

العمر لحظة

رواية السبيل



يوسف السباعي

السر لحظته

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كائنات هدى - الجيزة

للمؤلف

(قصص قصيرة ١٩٤٧)	أطياف
(رواية ١٩٤٧)	نائب عزرائيل
(قصص قصيرة ١٩٤٨)	اثنتا عشرة امرأة
(..... ١٩٤٨)	خبايا الصدور
(..... ١٩٤٨)	يا أمة ضحككت
(..... ١٩٤٩)	اثنا عشر رجلا
(رواية ١٩٤٩)	أرض النفاق
(قصص قصيرة ١٩٤٩)	في موكب الهوى
(..... ١٩٤٩)	من العالم المجهول
(..... ١٩٥٠)	هذه النفوس
(رواية ١٩٥٠)	إلى راحلة
(قصص قصيرة ١٩٥٠)	مبكي العشاق
(..... ١٩٥١)	بين أبو الريش وجنية ناميش
(..... ١٩٥١)	أغنيات
(مسرحية ١٩٥١)	أم رتيبة
(قصص قصيرة ١٩٥١)	هذا هو الحب
(..... ١٩٥١)	صور طبق الأصل
(رواية ١٩٥٢)	بين الأطلال
(..... ١٩٥٢)	السقامات
(قصص قصيرة ١٩٥٢)	سمار الليالي
(..... ١٩٥٢)	الشيخ زغرب
(..... ١٩٥٢)	نفحة من الإيمان
(مسرحية ١٩٥٢)	وراء الستار
(قصص قصيرة ١٩٥٣)	ست نساء وستة رجال
(..... ١٩٥٣)	هذه الحياة

(رواية ١٩٥٣)	البحث عن جسد
(مسرحية ١٩٥٣)	جمعية قتل الزوجات
(رواية ١٩٥٣)	فديتك ياليلي
(قصص قصيرة ١٩٥٣)	ليلة خمر
(١٩٥٣)	همسة عابرة
(رواية في جزأين ١٩٥٤)	رد قلبي
(قصص قصيرة ١٩٥٥)	ليال ودموع
(رواية ١٩٥٦)	طريق العودة
(مقالات ١٩٥٧)	أيام تمر
(١٩٥٨)	من حياتي
(١٩٥٩)	لطمات ولثام
(رواية في جزأين ١٩٦٠)	نادية
(١٩٦١)	جفت الدموع
(مقالات ١٩٦١)	أيام مشرقة
(١٩٦١)	أيام وذكريات
(١٩٦٢)	أيام من عمري
(رواية في جزأين ١٩٦٤)	ليل له آخر
(مسرحية ١٩٦٦)	أقوى من الزمن
(رواية في جزأين ١٩٦٩)	نحن لا نزرع الشوك
(رواية ١٩٧٠)	لست وحدك
(مقالات ١٩٧٠)	من وراء الغيم
(١٩٧١)	أيام عبد الناصر
(رواية ١٩٧١)	ابتسامه على شفثيه
(رحلات ١٩٧١)	طائر بين المحيطين
(قصة ١٩٧٣)	العمر لحظة

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

المقدمة

هذه القصة تقع أحداثها في أواخر ١٩٦٩ وأوائل ١٩٧٠ ؛
خلال الفترة التي سميها بحرب الاستنزاف .

ولقد سجلت هذه الفترة أروع بطولات الجندي المصري في
معارك العبور وضرب المدفعية وعمليات القناصة وتوغل
الكوماندوز إلى أعماق مواقع العدو ؛ وفي معارك الجو والبحر
التي أكدت قدرة الجندي المصري في المواجهة ، ومنحت العدو
أياماً مرهقة ، وأهدته أكبر قدر من الخسائر .

ومن أبرز المعارك التي خاضها الجندي المصري وقتذاك
معركة شدوان ، الجزيرة الصخرية ذات الشعب المرجانية ؛ التي
تقع في البحر الأحمر على مدخل خليج السويس ؛ في الشمالي
الشرقي للغردقة ، والجنوب الغربي لشرم الشيخ ؛ والتي يبلغ
طولها ١٦ كيلو متراً ويتراوح عرضها بين ثلاثة وخمسة كيلو
مترات .

ولم تكن قواتنا في الجزيرة لتجاوز المائة ، لحماية الفئار وجهاز
الرادار البحري الصغير اللذين وضعا من أجل إرشاد السفن ليلاً
ومنعا من اصطدامها بالشعب المرجانية .

ولقد واجهت القوة المصرية قصفاً جويًا بالقناتوم والسكاي
هوك ، كما واجهت هجوماً بكثيفة مظللات تزيد على الخمسمائة
جندي ؛ وقاتلت ببسالة وشجاعة من خندق إلى خندق ،
واستطاعت بالقتال المتلاحم بالسلاح الأبيض أن توقع بالعدو

خسائر فادحة

ولقد كنت خارج مصر عندما وقع العدوان الإسرائيلي على الجزيرة . قرأت أنباء المعركة وأنا في الطائرة في الجو . وعرضت الصحف الأجنبية صورة للمعركة ذكرت ما قالتها المصادر الإسرائيلية من أن القوة الإسرائيلية غادرت الجزيرة بعد أن أدت الواجب المطلوب منها وما قالته المصادر المصرية من أن العدو فشل في السيطرة على الجزيرة نتيجة الخسائر الفادحة التي تكبدتها واضطر إلى الجلاء بسبب المقاومة العنيفة التي لقيها ؛ وبسبب إصرار الرجال على التمسك بالأرض .

ذكرت الصحافة الأجنبية ما قاله الطرفان ؛ ثم علقت على المعركة بأن المصريين حاربوا بعنف وضراوة وأن الجزيرة شاهدت من القتال الضارى الوحشى ما لم يشاهده العالم منذ الحرب العظمى بين قوات الحور والحلفاء . هذا ما شهدت به صحافة العالم وقتذاك .

كانت المعركة رمزا لصلابة الجندي المصرى وجرأته وفدائه . ولقد أحسنت بضمير الكاتب أن تلك الفترة المشرقة في تاريخنا لا يمكن لأدبنا أن يعبرها في صمت . وحاولت من خلال الرواية أن أقول عنها شيئا أنصف الجندي المصرى .. والأدب المصرى أمام التاريخ . ونحن لا نملك إلا المحاولة .. أما التوفيق فمن عند الله .

(يوسف السباعى)

- ٧ -

إهداء

إلى الجندي المصرى
الذى تحمل فوق — آلام هزيمة يونيو — آلام تبعثها .
أهدى بعض ما يرفع عنه الظلم ويرد اللوم .
أهدى بعض الحقيقة .
حقيقة كفاءته وقدرته وشجاعته ..
إليه أهدى بعض عمله .
وهذا خير ما ينصفه أمام التاريخ .

(يوسف السباعى)

(١)

شائعات

قلبت نعمت مجموعة الصور الملقاة على مكتبها وألقت نظرة عابرة على الأوراق المرفقة بالصور وأخذت تتلو مسرعة عناوين الموضوعات المعدة للطبع « بيت لك على القمر » « المينى جيب ما زال مسيطرا » . « الزهور من أجل أعصابك المرهقة » . « فتيات الجيشا فى خدمتك » .

وهمست لنفسها « مش بطال »

ثم بدا عليها التردد وعادت تهز رأسها فى قلق .

فقط ينقصها موضوع عن المرأة العاملة ... أو الفلاحة .. شئ للشعب .

حتى لاتتهم بالرجعية ... والانعزالية ... وعدم التلاحم . إلخ

طبعاً لا أحد يجسر أن يوجه إليها تهمة ما ... لأنها حماية ... إنها ليست مجرد

رئيسة قسم المرأة بمجلة « الخبر » ولكنها زوجة رئيس التحرير ..

والصفة الأخيرة تمنحها الحرية فى أن ترفع فى المؤسسة كما تشاء .. فهى مهابة

رغم أنفها ... ورهبة الرئاسة تفرض سلطانها على من حولها بغير إرادة منها ولا

رغبة .

ولكنها مع كل هذه الحماية التى يفرضها عليها منصبها الزوجى .. تحب أن

تكون نفسها ... وأن تتعامل مع الناس بقيمتها الحقيقية المستمدة من ذاتها ..

فشلت بالطبع .. ولكنها حاولت دائما .

وإن كانت تحس أخيراً أن مهابة السلطان قد أخذت تهتز .. وأنها لم تعد تفرض

نفسها بالقوة والرهبة التى كانت تفعلها فى أول الأمر .

وهي تعرف لماذا ..

لأن الأستاذ عبد القادر زوجها . ورئيس التحرير يلعب بذيله .

والغجر من حولها ... لا شك يعرفون ذلك .

ولقد كانت بينهما قصة حب أفضت إلى الزواج منذ بضع سنوات ..

وعبد القادر لطيف عندما تكون المسألة مجرد مغامرة حب ..

وكمحررة صغيرة .. أدار رأسها أن يقبل عليها إنسان مشهور جذاب مثله ..

ولقد كانت هي دائما عنصرا جذابا .. في الجامعة للطلبة والمعيدين والمدرسين

وبعض الأساتذة .. وفي كل عمل التحقت به أثارت اهتمام من حولها .. اهتماما كان

يبلغ في كثير من الأحيان عروض زواج .. ولكنها كانت تشعر أن الفرصة لم تأت

بعد . ولم يكن لديها شعور ما لأحد ما .. والتحقّت بدار الخبر ..

وعف عليها .. المحررون والمصورون .. والرسامون .. وحسدتها المحررات ..

واتهمنها .. بأنها لعبية .. وماكرة .. ولعلها كانت كذلك ، بالمعنى البريء ، فلقد

كانت تعرف قدر جاذبيتها .. ولم تكن تجد ما يمنع من استعمالها بالقدر الملائم في

الوقت الملائم .

وطب عليها ... الفرخ الكبير .. الكاتب ورئيس التحرير .. ودار رأسها

.. واندفعت معه في مغامرة .. ولكنها كانت مغامرة حازمة .. مثمرة .. انتهت

بالزواج .

ومنعها الزواج .. صورة مختلفة .. ولبست هي الثوب الجديد .. ثوب

السلطان والمهابة .. لم تعد تشعر أنها في حاجة إلى استعمال جاذبيتها الشخصية ..

فقد كان في جاذبية مركزها الجديد .. كزوجة رئيس التحرير ... ما يكفي لتذليل

الصعب .. وإزالة المتاعب والعراقيل ..

وأبدى مدير التحرير تقديره الزائد لها ... وعينها رئيسة قسم المرأة .

ولم يمض وقت طويل حتى عين هو نائبا لرئيس التحرير ..

ولم يكن هناك غيره .. ولكن كان يمكن أن يبقى مديرا للتحرير .. طول عمره

.. لولا .. دفعة منها .. عند عبد القادر ..

اعترض في أول الأمر بأنه عبيط .. فقالت له : « أحسن ما يكون سافل »
واستمرت هيبتها كزوجة رئيس التحرير تفرض نفسها .. حتى بدأت
تضيق بها ... عندما أحست أن اسمها قد أضحي « الست » وأن قدرها
الشخصي قد أخذ يذوب في قدرها كصاحبة نفوذ .. بل إن قدرها كأنتى
جذابة ... أخذ يتجمد أمام رهبة المحيطين بها من هيئة زوجة رئيس التحرير ..
وخوفهم من الغلط ولوذهم « بابتعد عن الشر وغنى له » .

ومع ذلك وبذكائها .. وحلاوتها .. وخفة دمها .. نجحت بقدر ما تستطيع
في أن تجد مكانا لشخصيتها الأصيلة المجردة .. غير المختلطة برئيس التحرير ...
ونفوذه ... وقدرته على الترقية والمكافأة ... واستطاع المحررون — فيما عدا
الشديدى الجبن منهم ومن بينهم نائب رئيس التحرير — أن يعاودوا التعامل
معها كزميلة لطيفة رقيقة .. مع بعض التحفظ الراسب في أعماقهم بأنها مهما
كان الأمر فهي زوجة رئيس التحرير وقادرة على أن تقنعه بما تريد . ولم تكن
تضيق بهذا التحفظ الذى كان يحتفظ لها بجد أدنى من الاحترام .. وحسن
المعاملة .. وبقية من غلاسة الأنطاع وسخافة الأغبياء .

ولكن .. مع الوقت أخذت تحس باهتزاز الهيبة وبأن المحررين لم يعودوا في
حاجة إلى جهد لكى يعاملوها معاملة مجرد زميلة .. ولم تعرف من المسئول عن
هذا .. أهى محاولاتها الدائبة فى أن تكون ذاتها وتنفض عن نفسها ثوب الرئاسة
.. أم هو إحساس من الغجر .. بأنه ليس لديها نفوذ فعلى ..

ولماذا هذا الإحساس ..

ألأنهم يرونها ترفض أن تمارس النفوذ .. ؟ أم لأنهم يتصورون أنها
لا تستطيع أن تمارسه .

ولكن .. لماذا لا تمارسه ؟

أهو اعتقاد منهم بأنها ليست لها القدرة على النفوذ .. وأن أحدا غيرها يمكن أن يمارسه .. نتيجة لمغامرات زوجها المتواصلة .

على أية حال ... إذا كانت تكره أن تكون في الدار مجرد زوجة رئيس التحرير .. إلا أنها تكره أكثر من هذا أن تخلع من مكانها ... ويحتل أحد موضعها ويمارس ما رفضت هي أن تمارسه من نفوذ وسلطان .
وهي لا تعرف ماذا يقولون ..

ولا تعرف ماذا يفعل عبد القادر ... مما يجعلهم يقولون .. بل هي لا تشعر بالغيرة من أحد ... ولا على أحد ..
ولكنها تكره أن تكون محل لغط أو شائعات ..
إنها مسألة كرامة أولا .. وآخرها ..

وهي تعرف طبيعة زوجها .. مغازل بصباح .. ولكنها تأبى أن تقوم بدور الزوجة الغيور .. لأنها لا تغار عليه فعلا .. ولا تجد في باطنها من الانفعال ما يدفعها إلى الغضب أو الثورة .

ولكنها تكره ... أن توضع موضع المهانة .
ومع ذلك .. فالمسألة لم تصل إلى هذا الحد .
وإذا كانت هي تكره أن تلبس ثوب السلطة .. فلماذا تثور .. عندما يخلعونه عنها ؟

وكانت الصورة والأوراق ما زالت بيدها وذهنها يعدو في شروده ..
ومرة آخر عادت إلى الأوراق ..
تحتاج إلى موضوع من الشعب ... حتى توقف تعليقات بعض المتنطعين ..
الذين بدأت تعليقاتهم الهجومية توجه صراحة كدليل واضح .. على اهتزاز مكانتها الرئاسية ...

وجذبت أحد الأدراج وأخذت تقلب ما فيه من أوراق .. وجذبت ظرفا كتب عليه « بهانة وتنظيم الأسرة »

هذا معقول ... مع الموضوعات الثلاثة الأخرى يكون تشكيلة لا بأس بها وأقبلت فاطمة زميلتها في القسم وأصدق صديقاتها .. سليطة اللسان خفيفة الدم . لم يسلم من لسانها أحد . تتولى رئاسة قسم التهمة في الدار وأم لثلاثة أولاد وزوجة لأحد المذيعين المشهورين .

واستقرت على مقعد أمام مكتب نعمت وتساءلت في لهفة :

— ألم يبدأ الاجتماع بعد ؟

— أى اجتماع ؟

— اجتماع المحررين .. أليس اليوم هو الاثنين ؟

— أجل ..

— أليس المفروض أن يبدأ الاجتماع الأسبوعى في الثانية عشرة ؟

— المفروض .

— والساعة الآن الثانية عشرة والتصف .. لقد ظننت نفسى متأخرة وعدوت

ألهت لألحق الاجتماع ..

وقلبت نعمت يدها وألقت بنظرة على الساعة وقالت بهدوء :

— لا بد أن اجتماعهم فوق لم ينته .

— أى اجتماع ؟

— قال لى عبد القادر إنه سيجتمع مع مديرى التحرير لأن حالة المجلة سيئة ..

— طول عمرنا نسمع أنها سيئة ..

— الظاهر أنها أصبحت أسوأ .. التوزيع فى هبوط .. الإعلانات قلت ...

والتحصيل متراخ .. هكذا قال لى .

— كلام فارغ .. يبدو أنهم لا يريدون منحنا العلاوات .

— لا أظنهم يستطيعون .. فالعلاوات قد أصبحت شغل الدار الشاغل ..

ولعل الأستاذ زكى ينهى الموضوع اليوم بالنسبة للمحررين .

— ١٤ —

- العلاوات في العام الماضي كانت ملائم ..
— لا تبدو أنها ستكون هذا العام أفضل .
— تبقى مصيبة .. إن مرتبي على مرتب محسن .. لا يكادان يكفيان أجر البيت والطعام .. وعلى بعد ذلك أن أتسول لألبس .. وأذهب إلى الكوافير ..
وصمتت فاطمة برهة ثم أردفت قائلة :
— المهم ألا تنسينا هذا العام .
— كيف ؟
— اذكرينا عند الرجل الكبير .. إن الأمر يرجع إليه في النهاية وقد عدل الكشف في العام الماضي .
— كان البعض مظلومين ..
— كان لهم بخت .. ولعلنا نكون من أصحاب البخت هذا العام ... المهم أن تذكرينا ..
— أنت تعرفين أني لا أتدخل في هذه الموضوعات .
— عبيطة !
— لماذا .. ؟
— لأن أحدا .. لا بد أن يتدخل . فلماذا لا تكونين أنت .. وأنت صاحبة النفوذ الشرعي ؟
— ماذا تقصدين ؟
— ألسنت زوجة رئيس التحرير . يعني الرئيسة الشرعية .. فلماذا تتركين غيرك يعتدي على نفوذك ؟
— أنا لم أحاول قط التدخل في عمل عبد القادر .. ولا حاولت أن يكون لي نفوذ في الدار أكثر مما يتيح لي عملي كصحفية ..
— من أجل هذا يلطش غيرك النفوذ .
— من تقصدين ؟

— عيبك أنك لا تحضرين مجالس التيممة .. لو حضرت لعرفت الكثير مما تجهلين .. ولكن الأوغاد .. لن يتحدثوا أمامك .. إنهم جنباء ..
— وماذا يقولون ؟ ..

— يقولون .. إن الأستاذ .. يؤمن بالله، من جهة نظر محدودة .. هي أن الله جميل يحب الجمال .. وأنه لذلك يحب كل جميل ..
— قديمة .

— الجديد أن هناك جميلا جديدا .. يشغل الأستاذ ..
— اسمعى يا فاطمة .. لا تحاولى أن تثيرى غيرى .. فلست على استعداد لأن أقوم فى الدار بدور الزوجة الغيور .

— لا ضرورة لأن تقومى بالدور .. المهم أن تمارسى نفوذك على الرجل الكبير . من أجل أصدقائك .. متى آخذ علاوة إذا لم آخذها الآن وأنت رئيسة الدار ؟
ورفعت فاطمة يديها إلى السماء داعية :
— علاوة يا رب ..

وأقبل حامد الفراش . عجوز أسمر أحول العينين ووقف بالبواب يصيح :
— اتفضلى يا فندم .

ونظرت إليه فاطمة وهى لا تعرف من نظرة عينيه من يريد وقالت له فى هدوء :

— ابقى شاور يا عم حامد .. حتى نعرف من تريد ..
— الأستاذ زكى يطلب المحررين لأجل الاجتماع .

ونهمت نعمت تتبعها فاطمة متجهتين إلى حجرة نائب رئيس التحرير .
وحول منضدة طويلة التف المحررون والمحررات وعلى رأسها جلس الأستاذ زكى عثمان نائب رئيس التحرير وبجواره الأستاذ سعيد سكرتير التحرير ..
ونهمز زكى مرحبا عندما أقبلت نعمت وحاول أن يحضر لها مقعدا بجواره ولكنها جلست على أقرب مقعد خال فى نهاية المنضدة .

وكان زكى قد فرد آخر عدد صدر من المجلة أمامه وبجواره أعد سعيد ما كيت العدد القادم ومجموعة مقالات وظرفا به صور .

وكان المفروض أن يبدأ زكى باستعراض العدد السابق وبإبداء ملحوظاته عليه ثم سماع ملاحظات المحررين وتوجيههم ثم يبدأ بعد ذلك عرض ما كيت للعدد القادم والموضوعات المقدمة ..

كان هذا هو المفروض . ولكن زكى بدأ حديثه بعلامات تجهم كسابها وجهه ثم قال فى رنة أسى :

— قبل أن نبدأ ملاحظتنا على العدد السابق . يؤسفنى أن أخبركم بمعركة مزعجة حدثت هذا الصباح .

وهتف أحد المحررين متسائلا :

— فى الجهة ؟

ورد زكى :

— بل هنا فى المجلة .. أخذ السادة المحررين رفع حذاءه على زميل له ..

وضحكت فاطمة قائلة :

— وفيها إيه .. دائما يحدث هذا وأقترح أن يخلع المحررون أحذيتهم على باب الدار عند الاستعلامات ..

وسرت موجة ضحك من المحررين وعلق ربيع المحرر الفنى قائلا :

— نحن فى عصر الحفاء .. الهييز بلا أحذية .. والراقصات بلا أحذية .. فلماذا

لا نكون نحن حفاة .. ونوفر ثمن الأحذية ؟

ونقر زكى المنضدة بقلم فى يده .. وزاد من علامات التجهم على وجهه محاولا

زجر المحررين وإضفاء جو الجدبة على الاجتماع :

— هذا ليس وقت مزاح .. لقد بلغت المسألة رئيس التحرير وقال لى إن هذا

ليس مستوى محررين .. وطلب منى عمل تحقيق ..

وصاح الششتاوى .. المعتدى عليه قائلا :

— المسألة لا تحتاج إلى تحقيق .. لقد رفع على الحذاء .. أمام عدة محررين ..
والأستاذ حسنين والأستاذ فراج .. شاهدان .
وصاح عبد الرؤوف المعتدى مدافعا عن نفسه !
— أنت هددتني بالضرب بالحذاء .. ومددت يدك لتخلعه .
وتساءل زكى وهو يدير دفة التحقيق :
— ولكن أنت الذى رفعت عليه الحذاء ..
— كنت أذافع عن نفسى !
— ولكن هو لم يخلع حذاءه .
— لأن حذاءه برباط .. استعصى عليه خلعه .. ولكن حذائى موكاسان ..
سحبته بسهولة ..
وصاحت فاطمة :
— يعنى فرقت رباط .
وقال زكى فى لهجته الآسفة الجادة :
— عيب .. عيب جدا .. أن يحدث هذا بين أناس محترمين .
وهمس أحد المحررين : الناس تهبط إلى القمر .. ونحن نتبادل ضرب الأحذية ..
ورد آخر :
— ولا يهمك .. قد يحدث هذا فى القمر نفسه .
واستطرد زكى يقول :
— لقد طلب منى الأستاذ عبد القادر أن أوقف المحررين .. وأن أُنخذ إجراءات
رادعة لوقف هذه الأشياء المخزية ..
تدخل أحد المحررين لمحاولة الصلح قائلا :
— ليقبل كل منهما رأس الآخر .. ولتصافحا .. ونهى الموضوع .
وأمن معظم المحررين على قوله وجذب أحدهم المعتدى :
— قم قبل رأسه ..

(العمر لحظة)

- ووثب المحرر من مقعدة فأمسك برأس زميله وقبلها قائلاً :
- مع أنك أنت الذى هددتني بضرب الحذاء ..
- وصاحت فاطمة :
- كل هذا بسبب الموكاسان .. فى المرة القادمة .. البس فيلدبوت .. حتى تفكر جيداً قبل أن ترفع الحذاء على أحد .
- وصاح أحد المحررين قائلاً :
- خلاص .. انتبهنا .
- وهم زكى بفتح العدد عندما رفع أحد المحررين يده مستأذناً الحديث . متسائلاً :
- ماذا تم فى العلاوات ؟
- وقال زكى :
- خصص للمجلة كلها مبلغ محدود يوزع على المحررين .
- وسأل محرر :
- وما هو المبلغ المخصص لنا ؟
- أربعون جنيه .
- وسرت مهمة استياء بين المحررين ثم ارتفعت صيحات استنكار تقول :
- غير معقول .
- وتساءل أحد المحررين :
- على أى أساس ؟
- وقال زكى :
- بالرأس .
- وتساءلت فاطمة :
- يعنى إيه ؟
- ورد زكى :
- يعنى تم حصر جميع العاملين بالدار .. وقسم المبلغ المخصص للعلاوات على

عدد العاملين لينتج نصيب الفرد في المبلغ ... وعلى أساس هذا النصيب أعطى لكل إدارة نصيب الفرد مضروبا في عدد العاملين فيها .

وعادت صيحات الاستنكار تقول :

— غير معقول .

وصاح أحد المحررين :

— يعني يكون نصيب كل واحد سبعين قرشا ..

ورد زكى :

— حوالى هذا .. ولكن لن يأخذ كل محرر كالأخر .. سيكون توزيع المبلغ حسب الكفاءة .. أى قدر العمل ونوعيته .. والمواظبة على الحضور .

وقال محرر في سخرية :

— أنا متنازل عن السبعين قرشا .. الحكاية لا تستحق ..

وقال زكى :

— الذى لا يريد العلاوة يستطيع أن يتنازل عنها ولكننا الآن بسبيل إعداد حصر لعمل كل محرر .. وعلى أساسه سيكون توزيع العلاوة ..

وقال أحد المحررين :

— لماذا لا نحاول رفع المبلغ ؟

ورد زكى :

— لا فائدة — لقد حاولت كثيرا ..

— نحاول ثانية ..

— كيف ؟

— ندخل بطريق آخر ..

— ماذا تعنى ؟

ورد المحرر وهو يهز رأسه :

— أعنى أنه لو أمكن أن تتدخل الأستاذة نعمت . فقد يكون من الممكن ..

يعنى ..

وصمت المحرر.. أطبق الصمت على الحاضرين وأحست نعمت أن عليها أن تقول شيئا ... وبعد فترة صمت تمتت قائلة :
— الحقيقة أنى لم أعود أن أتدخل فى شئون الدار .. إنى أحاول دائما ألا أتجاوز قدرى كمحررة بينكم ..

وهتف المحررون :

— ولكن من أجل زملائك .. يجب عليك أن تتحدثى .

— ألم يتحدث نائب رئيس التحرير ؟

ورد زكى قائلا :

— فعلت كل ما فى وسعى .

وقالت نعمت :

— إذا كان هو لم يستطيع فلن أستطيع أنا .

وقالت فاطمة :

— غير معقول .

— إنى مجرد محررة .

— أنت زوجة رئيس التحرير .

— أنا هنا أعمل محررة ولست زوجة .

وهتف أحد المحررين :

— من أجلنا ..

وردت نعمت فى عصبية :

— لا أستطيع ..

ثم أردفت قائلة :

— لا أستطيع أن أفرض لى نفسى نفوذا خاصا أكثر من أى محرر أو محررة .. إننا

نستطيع أن نشكل وفدا وأنا منه .. ثم نصعد لمناقشته .

وهز أحد المحررين كفيه وقال فى سخرية :

— وفد .. سلامات يا وفد .

وقال آخر :

— المسألة تحتاج إلى نفوذ خاص .

وهمس محرر ثالث :

— النفوذ الخاص ... ليس هنا .. إن صاحبتنا زوجة .. مجرد زوجة .

ووصل الهمس إلى أذنى نعمت ولكنها تجاهلته فقد كرهت أن تتحول المناقشة إلى محاولة تقييم علاقتها الزوجية .. وسلطتها على زوجها . وممارستها لنفوذها عليه ..

وهمت بأن تقول شيئاً عن كتابة مذكرة بوجهة نظر المحررين ترفع إلى رئيس التحرير .. ولكنها أحست أن الهمس يسرى حولها .. وأن الكلمات الغامضة تتوالت على الشفاه . ووجدت الأنظار تتركز على نهاد المحررة بالقسم الثقافى ذات البروزات الجسدية المتحدية . والتي سمعت ذات مرة شائعة علاقة ما بزوجها .. ولكنها لم تأبه لها .. لفرط ما سمعته من شائعات ماثلة ولترفعها عن الدخول فى معارك غير من أجل أشياء فى نظرها لاتستحق .

وودت لو تغير الموقف السخيف الذى ينم بالصمت والهمس عن شائعات ولغط وأقاويل وأن ينتهى النقاش بطريقة سريعة حازمة فقالت فى كلمات مقتضبة :

— سأعرض عليه الأمر ... وأبذل كل جهدى .

وبدا الاقتناع على البعض .. ولكن البعض الآخر لم يشعر أن لكلامها قيمة .. لأنهم واثقون أنها ليست صاحبة النفوذ الخاص ... وأنها لاتملك التأثير على رئيس التحرير وإقناعه بأى شئ . وإنما صاحبة النفوذ الحقيقى هى نهاد . الذى تكاثر اللغط فى الفترة الأخيرة حول علاقتها بالأستاذ عبد القادر .

وانتهى الاجتماع بعد نقاش تقليدى معاد . وغادرت نعمت الحجرة وقد

تملكها لأول مرة إحساس بالهوان . فلقد كرهت أن يجعل منها عبد القادر موضع سخرة .. وأن تضع هيبتها ومظهر نفوذها اللذين لم تكن تحرص على ممارستهما لأن إحدى المحررات قد استولت عليهما واحتلت مكانتها المفروض أن تحتلها هي كزوجة لرئيس التحرير ..

وفي الظهيرة عندما عادت إلى مسكنها في عمارة ليون على النيل . جلست تتناول الغداء مع عبد القادر وخلال الطعام عرضت شكوى المحررين من ضالة مبلغ العلاوات .. فقال لها :

- لا أستطيع أن أمنحهم أكثر من هذا حسب القاعدة الموضوعية .
- إنها قاعدة سخيفة . غير معقول أن يعامل المحررون بالرأس كأنهم خراف .
- هذه هي القاعدة التي وضعتها لجنة الاتحاد الاشتراكي في الدار .
- وهل أنت مقتنع بها ؟
- ليس هناك وسيلة أكثر منها أمنا .
- ألا يمكن أن يزداد المبلغ المخصص للمحررين ؟
- لا يمكن .

وصمتت نعمت برهة وهي تعبت بملعقتها في الطبق ثم تساءلت فجأة :

— حتى ولو طلبت منك نهاد ؟

وأجفل من سؤالها ورد في عصبية :

— نهاد .. مالها نهاد ؟

- يقول المحررون .. إن لها نفوذا خاصا عليك .
- أولاد الكلاب .. لا يريدون أن يكفوا عن التشنيع .
- إذا ليس هناك شيء بينكما ؟
- مطلقا .

وأطلقت نعمت تنهيدة ثم أزاحت مقعدها للخلف وهي تهم بالوقوف . وقال عبد القادر في نبرات هادئة بعد أن تمالك نفسه :

— ٢٣ —

— لا تقلقى بالك بأقوال هؤلاء الفجر ..

واستطرد يقول بعد لحظة صمت :

— لم يتركوا واحدة إلا ونسبوا إلى علاقة بها .. ولو اتبعت شائعاتهم فلن تهدنى لحظة واحدة .

ولم تجب نبعث فلم تر من المفيد الإصرار على أن هناك شيئا .. وعاد هو يقول فى رقة :

— أما بالنسبة للعلاوات .. فسأحاول أن أدبر مبلغا آخر .. حتى ولو من المكافآت غير الثابتة التى يأخذها المحررون .. بحيث لا أضع عبثا إضافيا على الميزانية .

وردت نعمت وهى تغادر المائدة :

— متشكرة .

— على أية حال سأريحهم ..

وأحست نعمت بنوع من الارتياح وهى تجد أن مظهر اخوان الذى أحاطها به المحررون .. يمكن أن يحوّه نجاحها فى زيادة مبلغ العلاوات . وأن يعيد إليها هيتها كصاحبة نفوذ .. فى منطقة نفوذ طبيعية لها ..

ولكن الأيام لم تؤكد لها هذه الهبة ولم تكن نهاد هى السبب بل كانت هذه المرة فنانة شهيرة بدأت الألسنة تلوك علاقتها بعبد القادر وأخذ اسمه يقرن باسمها فى كل مجال . وعلى كل لسان .

وضاقت بالأمر عندما تطورت الشائعات إلى تأكيد زواجه بها وإلى تأكيد مصاحبتها لها فى السهرات وفى الأماكن العلنية .

وعزمت نعمت على أن تضع حدا للأمر .

وفى ليلة عاد إلى البيت قبيل الفجر وكانت على يقظة فى انتظاره وقد ملأها الغضب منه والضيق به وواجهته فى حزم قائلة :

— يبدو أنه قد آن لنا أن نضع حدا للأمر .

— ٢٤ —

- أى أمر ؟
— الأمر المؤسف الذى نحن فيه .
— لا أفهم ؟
— لم يعد هناك أحد لا يتحدث عن علاقتك بزيئات شكرى .
— كلام فارغ .
— ويؤكدون أنك تزوجت منها .
— كمان ؟
— ليس هناك أحد لا يؤكد ذلك .
— كلام فارغ .
— فارغ أو مليون ... لقد ضقت ذرعا بكل هذا . إنى لم أعد أحتمل هذه الحياة .
— إن وجودك وسط هؤلاء الغجر هو السبب . إن أحدا لم يسلم من لسانهم .
— بخدى أجازة واستريحى ..
— هل يضع هذا حدا للمشكلة ؟
— طبعاً .. ستبعدين عن وسط اللفظ والشائعات .. سافرى عند أمك فى الإسكندرية .. أو أتركى الشغل نهائياً .. إنك فى غير حاجة إلى المرتب ..
— أتظن أن المشكلة هى فى وجودى فى المجلة ؟
— بغير جدال .. أنت محاطة بالحاquدين .. والتمامين .. وكل من هب ودب ..
— يستطيع أن يسلط عليك لسانه .. بما يتفق عنه ذهنه من شائعات ..
— وأنت ؟
— مالى أنا ؟
— أليس هناك غبار على سلوكك ؟
— سلوكى طبيعى كأى صحفى .. علاقاتى متعددة .. ولا بد أن أجامل كل الناس ..

— ٢٥ —

— المسألة إذن مسألة مجاملات ؟

— لا أكثر ولا أقل ..

وعادت إلى فراشها والمسألة تدور في رأسها .. هل تقبل وضعها . وهل تعتبر
ما يمارسه من علاقات أمرا طبيعيا .. أو تنور وتنتهي كل شيء .. هل تقبل نصيحته
وتبعد عن الوسط الصحفى حتى تنأى بنفسها عن الأقاويل والشائعات ؟

(٢)

مزيد من المذلة

كانت معارك الطيران على أشدها في القناة .. وكان على نعمت أن تجرى تحقيقا مع الجرحى في مستشفى القوات المسلحة بالمعادي . وكان المصور في انتظارها فأخذته بجوارها في العربة وانطلقت إلى طريق المعادي .

وفي ميدان التحرير وقع بصرها على إعلان لأحد الأفلام السينائية وضعت عليه صورة زينات شكرى . وعلق المصور قائلا :

— لا بد أن أنتهى من التصوير بسرعة لأن لدى موعدا معها .

— لماذا ؟

— لأصور لها صورة غلاف .

وقبل أن ترد نعمت استطرد المصور يقول ببساطة :

— لست أدرى ما حكايتها .. المجلة كلها مسخرة من أجلها .. عملت لها ما

يقرب من عشرة ريورتاجات .. وصورتها ما يقرب من مائة صورة .. وهى لا

يعجبها العجب ولا الصيام فى رجب .. وكأنها مجلة أيبها ..

وكان المصور يتكلم بحسن نية دون أن يدخل فى حسابه الشائعات التى تتردد

حولها . ومدى ما يمكن أن يكون لحديثه من تأثير على نعمت .

ولم تشأ نعمت أن تدخل مع الرجل الطيب فى مناقشة مزعجة . واكتفت

بالتعليق ببساطة قائلة :

— كلهن كذلك .

— لا والله .. بعض منهن طيبات ولكن هذه متعافية .. لست أدرى له ؟

وكانت هي تدرى له ..! ولكنها لم تجد معنى لأن تعرف الرجل الطيب بما لا ضرورة لأن يعرفه :

ووصلت إلى المستشفى ووضعت العربى تحت المظلة بجوار السور وصعدت المطلع النحدر أمام الباب ثم اتجهت إلى الاستعلامات فى المدخل . وقبل أن توجه السؤال إلى الجندى الواقف وراء النافذة سمعت صوتا يرحب بها قائلا :

— أهلا نعمت .. ماذا تفعلين هنا ؟

والتفتت ورائها فأبصرت صديقة الدراسة هناء عبد الله ترتدى الزى العسكرى وتقبل عليها مرحبة فأجابتها بعد أن ردت التحية :

— أتيت لأعمل تحقيقا عن الجرحى .

— أهو أنت التى طلب منى أن أكون فى انتظارها .. صدفة هائلة . كان آخر

مرة رأيتك فيها فى المعمرة .. منذ ستين .. هل تذكرين ؟.

— كان لقاء خاطفا .. كيف حالك أنت ؟ وماذا تفعلين .. وما هذا الذى

ترتدينه .. ؟ أصرت ضابطا .. أرى على كتفيك ثلاث نجوم ؟

— ترقيت أخيرا الرتبة اليوزباشى .. لقد التحقت هنا كباحثة اجتماعية .

ونظرت إليها نعمت فى إعجاب قائلة :

— لم أتصور أبدا أن أراك فى زى عسكرى ..

— العمل متعب .. ولكنه يمنحك إحساسا بأنك تفعلين شيئا مفيدا .. وكيف

حالك أنت فى الصحافة ؟ .

وهزت نعمت رأسها . ومر بذهنها شريط سريع لتاعب المهنة وسخافتها

وللإشاعات والأقاويل وللحديث الذى دار بينها وبين عبد القادر . وردت فى

لهجة متبرمة :

— يعنى ! ..

— يعنى ماذا .. ألسنت راضية ؟

— مطلقا .. أتمنى فى أى وقت أن أترك العمل .

— أتحين أن تعملى هنا .. ؟

— أيمكن ذلك ؟

— بالطبع .. إنهم يريدون عددا من الباحثات الاجتماعيات وأعتقد أنه من السهل التحاقك بالعمل هنا ..
ثم أردفت ضاحكة :

— وترتدين بدلة الضباط .. ولكنى سأكون أقدم منك .. وسأمارس عليك كل أنواع السلطة والإمارة ..

وعاد قول عبد القادر يطوف برأسها .. خذى أجازة وابعدى عن العمل ..
اتركى الشائعات والأقاويل التى يثيرها الحاقدون والحاسدون .

وراقها أن تترك المجلة بكل ما فيها من متاعب وسخافات وأن ترتدى الزي
العسكرى لتعمل عملا مفيدا بدل هذا الجهد الضائع على الورق فى موضوعات
مكررة معادة لاتحوى غير التفاهات والسخافات .

وسألت هناء :

— أقولين حقا إني أستطيع أن ألتحق بالعمل هنا ؟

— طبعاً .. تعالى معى وأنا أدخلك لأركان الحرب .

— ليس الآن .. دعينى حتى أنتهى من التحقيق لأن المصور فى عجلة من أمره
.. وبعد الانتهاء من التحقيق يمكن أن نجلس معا لندرس الموضوع .
— انتبهنا .

وانتهت نعمت من عمل التحقيق . وقبل أن تغادر المستشفى كانت قد عرفت
الإجراءات المطلوب اتخاذها والأوراق المطلوب التقدم بها إلى إدارة الخدمات
الطبية .

وفى البيت أخبرت عبد القادر بما تنوى أن تفعله . ونظر إليها فى دهشة
متسائلا :

— هكذا مرة واحدة .. ؟

- ألدليك مانع .. ؟
- إذا كان هذا يرضيك ويريحك .. فافعله .
- ألم تطلب منى أن أبتعد عن الجو الصحفى ؟
- أجل ولكنى لم أطلب منك أن تجندى ..
- وماذا فى ذلك ؟
- هل هناك احتمال لذهابك إلى الجبهة ؟
- طبعا .
- وهل تحتملين أنت ذلك ؟
- ولم لا ؟
- كما تريد .. افعلى كل ما يريحك ..
- ولم يمض وقت طويل حتى كانت نعمت قد استقرت فى مستشفى المعادى
بالتياح العسكرية ..
- ولم يكن العمل مريحا .. ولا كان به عن الأعمال المجيدة ما يمكن أن يجذبها .
- وضاقت به فى أول الأمر وندمت على تركها الصحافة بكل ما يحيط بها من بريق
الشهرة ووهم السلطان .
- ولكن كان عليها أن تحتمل وتواصل العمل . حتى أقبل ذات مساء نزيل جديد
فى المستشفى أعلن عن وصوله بصراخ وضجيج أقلق كل المستشفى .
- وسألت نعمت هناء :
- ما الحكاية .. من هذا ؟
- مقدم من الصاعقة .
- ولماذا يحدث كل هذا الضجيج ؟ ..
- حنجرته قوية .. ويدعى الشراسة .
- ضحكت نعمت متسائلة :
- يدعى الشراسة فقط ؟

— ٣٠ —

— أجل فهو في الحقيقة إنسان طيب .

— ولماذا يدعى الشراسة ؟

— ليستغل قوة حنجرته في الصياح .

— وماذا أتى به إلى هنا ؟

— عنده حصوة في الكلى .

— مسكين ..

— أتى بضع مرات وخرج .. ولكن هذه المرة أعتقد أنهم سيجرون له عملية

لإخراجها ..

والتقت نعمت بمحمود عبد الله مقدم الصاعقة صاحب الحنجرة القوية
ومدعى الشراسة .

كان لقاء مزعجا .

كانت تمر بحنجرته فنادى عليها صارخا:

— أنت يا ..

وتلفتت إليه متسائلة :

— أنا ؟

— أجل أنت .. هذا مستشفى فوضى .. نصف ساعة وأنا أدق الجرس .. أين

أقراص الأفافورتان ؟

ودهشت من قلة أدبه . وكانت لا ترتدى الجاكete التى وضعت عليها النجوم

التى يمكن أن تنبئ عن مركزها . وبدا عليه كأنه يظنها إحدى المرضيات .

وحاولت أن تتمالك نفسها ورددت عليه بهدوء قائلة :

— سأرسل لك أحدا ..

— وماذا تفعلين أنت .. ريسة .. ؟

ولم تجب عليه واتجهت إلى حجرة المكتب وارتدت سترتها وعادت إليه ..

وقبل أن تفتح فمها بكلمة نظر إليها فى دهشة وهتف صائحا :

— ٣١ —

— ما هذا .. أنت نقيب ؟

ثم اندفع مقهقهها وهو يهتف بإعجاب :

— نقيب قمر ..

وعلا وجهها الاحمرار .. ولم تدر بماذا تجيب .. لقد كانت قلة الأدب أهون عليها من هذا الغزل المربك .

ورغم ميلها إلى الضحك كست وجهها علامات الوقار والجد وقالت له :

— غير معقول أن تثير كل هذا الضجيج .. إن هناك مرضى غيرك يحتاجون إلى

الراحة ..

وخلع على ملامحه ستار الندم وتم بصوت خفيض :

— أنا آسف .. ولكن لم أكن أظن أنك نقيب .. ولا ظننت أن هناك نقيباً ..

بمثل هذه الخلاوة ..

وعاودها الارتباك ونظرت إليه نظرة ملأتها كل ما تملك من حزم وقالت في

حدة :

— وبعدين .. أنت غير معقول .

وتمتطي البساطة والبراءة أجاب :

— والله أنت غير المعقولة ..

وعاد يتمتم كأنه يحدث نفسه :

— نقيب !؟ دى لوز ..

وتجاهلت حديثه إلى نفسه وقالت له في لهجة جادة :

— سأرسل لك إحدى الممرضات .

وهتف متسائلاً :

— لماذا ؟

— لتحضر لك الأقراص التي تريدها .

— لا أريد أية أقراص .. تفضلي أنت .. إنك أفضل من أى مهدى ..

وأحسنت أن من الخطأ أن تواصل مناقشتها معه فسارت وهى تتمم فى تجهيم
تحاول أن تخفى به ضحكة توشك أن تنطلق من شفتيها :

— هذا شئ لا يحتمل .. غير معقول .

ومن هذا اللقاء الصاخب — نشأت صداقة وطيدة بين الاثنين مقدم الصاعقة
قوى الحنجرة مدعى الشراسة والنقيب « اللى زى اللوز » ..

وأجريت العملية الجراحية لإخراج الحصوة .

وأقبلت نعمت تمنحه رعايتها وعطفها رغم بعد تخصصها كباحثة اجتماعية
عنه . حتى لقد ضاقت زوجته سامية بتلك الرعاية .. وأحسنت بنفسها أشبه
بالغريبة فى وجود نعمت التى بدت وكأنها مسئولة عن تمريضه والعناية به .

وأقبلت ابنته داليا عليها فى مودة وحب تخبرها أنها تود أن تدخل قسم الصحافة
عندما تأخذ التوجيهية وأنها كانت تقرأ لها بإعجاب كل ما تكتب وتسألها لماذا
تركت عملها فى الصحافة .

ورد أبوها ضاحكا :

— لكى تمارس علينا سلطانها وإمارتها .. كل هذا .. واترك هذا .. كأنها
التركى صاحب القلل .

وبقلة ذوق ردت أمها بفظاظتها المعتادة :

— وما لها هى بكل هذا أهذا هو واجبها ؟

وتمت نعمت فى حياء :

— واجبنا أن نرعى كل المرضى .. ونعمل على راحتهم .

وعادت سامية تقول فى سماجة :

— ولماذا لا تساعدن كل المرضى .

— أساعد قدر ما أستطيع .. ومحمود بك يستحق خدماتنا جميعا .. إنه بطل

من أبطالنا .

وأشاحت سامية بوجهها فى ضيق .

— ٣٣ —

وحاولت نعمت أن تتباعد بعد هذا الحديث عن محمود .. ولكنه أرسل في طلبها معاتبا :

— لماذا لا تسالين ؟

— أكره مناظر الغيرة ..

— غيرة من ؟

— زوجتك ..

— لا تأبى لها .. لقد اعتدت سخافتها ..

— ثم إنك أصبحت أفضل حالا .. ولم تعد تحتاج إلى شيء ؟

— من قال هذا ؟

— أنا .

— ولكنى ما زلت مريضا .

— ماذا بك ؟

— أعصابى متعبة .. وأحتاج إلى علاج نفسى .

وضحكت نعمت قائلة :

— سنرسلك إلى مستشفى بهمان .

— لم أصل إلى هذا الحد .

— ماذا تريد إذن ؟

— أريد جلسات نفسية .

— ليس هذا اختصاصى .

— ما هو اختصاصك إذن ؟

— أنا باحثة اجتماعية .

— يعنى إيه ؟

— يعنى أبحث مشاكل المرضى ومتاعبهم وأحاول أن أساعد فى حلها .

— حسن .. وصلنا .. إن لدى مشاكل ضخمة .

(العمر لحظة)

- مثل ؟
- زوجتى .
- ماذا بها ؟
- مزعجة .
- لماذا . ؟
- ضاربة بوز .. دائما .
- لا بد أنك تغضبها ؟
- أبدا والله .. لا أفعل أكثر مما يفعل كل الأزواج ..
- وماذا يفعل الأزواج .. ؟
- يهربون من بيوتهم .
- وماذا أيضا .. ؟
- ويعجبون بغير زوجاتهم ..
- أنت فعلا تحتاج إلى علاج .. لكى تبقى فى بيتك .. وتعجب بزوجتك ..
- ليست هذه مشكلتى .. أنا أمضى فى الميدان ثلاثة أرباع وقتى .. وفى المدة التى أمضيها هنا .. لا تترك لى زوجتى الفرصة لأى إعجاب بها .
- ما هى مشكلتك إذن ؟
- مشكلتى .. إنى لا أريد أن أغادر المستشفى .
- هذه مصيبة .. وليست مشكلة .
- كيف ؟
- ضابط مثلك فى الصاعقة .. مفروض أن يعود إلى الميدان بعد أن شفى من مرضه .. ولا يريد أن يغادر المستشفى .. هذا تمارض .. تستحق عليه الجزاء .
- على أية حال .. إذا لم تكن هناك فرصة للبقاء .. وإذا لم تنبت حصوة أخرى فى الكلية — فلا بد من أن أعود ثانية إلى هنا .
- كيف ؟

— جريج ..

— بعد الشر .

— لماذا .. ؟ لقد كان المفروض أن أكون هنا برصاصة .. وليس بحصوة .. غير معقول أن ترقدنى مجرد حصوة .. فى المرة القادمة .. أعد أن أعود إليك برصاصة .. وعدينى أنت أن تبقى بجوارى طوال المدة .

وأطرقت نعمت برأسها وبدا عليها الشرود ثم تمتمت قائلة :

— وراك الله شر الإصابة .. ووقانا شر التجربة .

— أية تجربة ؟

وأطلقت زفرة قصيرة ثم هزت رأسها كأنما تنفض عنها كابوسا وقللت له بسرعة :

— أبدا .. لا شيء .

ورحل محمود إلى الميدان .. فى السويس .

وبقيت نعمت فى المستشفى تمارس عملها العادى .

وأحس محمود أنه ترك شيئا عزيزا .. أكثر من مجرد امرأة لطيفة .. عبر فى رفقتها فترة مرض .. وأكثر من أنثى جذابة .. يمكن أن تشده إلى مغامرة ..

وأحسست نعمت أن الرجل القوى الحنجرة المدعى الشراسة .. قد رحل ..

خلف فى نفسها شعورا بوداع شيء عزيز . ليس من السهل التسليم بفرقه ..

أو نزع وجوده من حياتها .. هذا المخلوق لا يمكن أن يكون شيئا عابرا .. أبدا .

وشعرت بنوع من عزاء الفرقة وهى تلتقى بابتته داليا من حين إلى حين ..

كانت الفتاة الصغيرة تحمل الكثير من خفة دم أبيها وروحها الحلوة المرحية

ونفسه الصافية ..

لم تترك أمها أبدا أثرا من بصماتها عليها ..

وأقبلت نعمت تمارس حياتها الطبيعية وسط الجرحى والمرضى تغرق نفسها فى

مشاكلهم وهى تجاهد أن تنتزع من نفسها شيئا يحاول أن يشدها بعيدا ..

وبذلت جهدها في أن تربط نفسها بعبد القادر .. تقبل عليه وتسهر معه .. فلعل وجوده بكل ما يحيط به من صخب .. يحجب عنها ذلك الشيء الملح على تفكيرها الراسب في أعماقها .

وسألت عبد القادر وهو يرتدى ملابسه استعدادا للخروج ذات مساء :

— إلى أين .. ؟

— سأحضر استقبالا في سفارة فرنسا .. إنك مدعوة معي .. هل تحبين

الذهاب ؟

— ولم لا ؟

— إذن أسرعى بارتداء ملابسك .

— متى تبدأ ؟

— من الساعة حتى التاسعة .

— إذن ما زال هناك وقت ؟

— يجب أن أخلص منه قبل الثامنة .. لأن لدينا اجتماعا عند وزير الإرشاد .

— سألبس بسرعة .

وارتدت ملابسها . وقبل أن تخرج قالت لأُم محمد الخادم :

— لن أغيب يا أُم محمد .. إذا سأل عنى أحد فساكون هنا في التاسعة .

وانطلقت بهما العربة في شارع الجبلية إلى كوبري الجلاء . كانت الشمس قد

انحدرت وراء الأفق وأغصان البانسيانس قد تشابكت وظللت الطريق وتناثرت

الزهور الحمراء على الرصيف وغطت أرض الطريق .

كانت نعمت تحب الطريق الظليل .. تحب أشجاره المتكاثفة وزهوره الحمراء

التي تظل رعوس الشجر وتفتش الأرض .. وأحست بالشيء الراسب في

أعماقها يلح على مشاعرها وبدا لها الجالس بجوارها .. بعيدا .. بعيدا ..

ذات يوم أحزنها أنها لم تستطع أن تنجب منه طفلا . ولكنها تحس الآن بارتياح

أن لا شيء هناك يربطها به أكثر من مجرد رباط شكلي .. علاقة سطحية عامة ..

لا تشكل أى قيد على أحدهما .

ولقد خلصت بالبعد عن جو المجلة من الأقاويل والشائعات ومن كل ما يلاحقها من تعليقات السخرية أو العطف والراء التى كانت تذللها وتشعرها بالهوان .

ولم يكن الأمر يخلو من أشياء مثيرة تقذف بها إليها المصادفات .
مرة رآه أحدهم يتعشى فى شبرد مع زينات .. ومرة ثانية سأها زكى الصائغ عندما ذهبت لشراء هدية لمولود لإحدى زميلاتهما عما إذا كانت الإسورة قد أعجبتها ؟

فسألته فى دهشة :

— أية إسورة .. ؟

— الإسورة ذات الفصوص التركواز . إنها تحفة .. لقد أخذها عبد القادر بك من أسبوع .. وكنت واثقا أنها ستعجبك .
واستدركت نعمت تقول وكأنها تذكرت :
— أجل .. أجل .. كانت جميلة .

ونقلت الحديث إلى موضوع الهدية التى تريدها . خشية أن يسأل الرجل عن تفاصيل أخرى تجهلها عن الإسورة .

وكان واضحا أن عبد القادر .. اشتراها لإنسانه ما .. قد تكون زينات .. أو تكون أى أنثى أخرى .

جرأة وقحة .. أن يتنازع هدايا رفيقاته بهذه الطريقة العلنية .. لقد اعتقد الصائغ — محقا — أنها لها ولكن عبد القادر لم يفعلها مرة واحدة منذ الزواج حتى الآن ..

أشياء فرعية كانت تلقى بها إليها المصادفات . ولكنها كانت تحاول دائما ألا تثير جدلا حولها .. فما دام ليس هناك ما يصددها مباشرة .. فخير ما تفعل هو التغافل .

وانتهجت العربية إلى شارع السفارة .. ولم يكن في الشارع العمودى على النيل موقف لعربة .. كان المنادون يصيحون في ضجة ليس هناك ما يبررها .. ووضع عبد القادر عربته في شارع مجاور ثم سار ونعمت إلى باب السفارة .

كان يبدو أن كل الشخصيات المعروفة في مصر ، قد دعيت إلى الحفل وبعد تحية السفير وزوجته افترقت نعمت عن عبد القادر في الزحام .. ووقفت نعمت وسط مجموعة من الصحفيين والدبلوماسيين ..

ودار حوار بين المجموعة عن استمرار الحظر الفرنسى على بيع الأسلحة وموقف دييجول الشجاع ثم انتقل إلى جريمة إسرائيل المنكرة بحرق المسجد الأقصى والضجة التى أثارها في العالم كله .

وانتقلت نعمت إلى مجموعة أخرى تتحدث عن فضيحة إدوارد كنيدي التى غرقت فيها سكرتيرة أخيه وهى تتركب معه سيارته في ظروف غامضة ولم يحاول إنقاذها أو حتى الإبلاغ عن غرقها وقفز الحديث بسرعة إلى جريمة أخرى من جرائم المجتمع الأمريكى هى جريمة مصرع الممثلة شارون تيت التى لقيت مصرعها وشوه جسدها وفي بطنها جنين بواسطة جماعة من الهيز .

وبدأت التعليقات الساخرة .. وهمت نعمت بإبداء رأيها عندما سمعت صوت أحد الدبلوماسيين الذى يقف بين جماعة مجاورة يهتف باسمها « مدام عبد القادر أمين » وتلفتت في دهشة من نداء الرجل لها .

ولكنها فوجئت بأنها لم تكن المقصودة بالنداء . وأذهلها أن الرجل يقدم الممثلة زينات شكرى عشيقة زوجها إلى المجموعة المحيطة به بأنها « مدام عبد القادر أمين » .

وازدردت ريقها .. وحاولت جهدها أن تتمالك وأن تتجاهل التقديم المهين الذى يحدث بجوارها والذى يقدم عشيقة زوجها علناً .. ومع وجودها .. على أنها زوجته .

ولكن التقديم كان قد بلغ آذان الواقفين حولها .. وانطلق أحدهم ضاحكاً

وحاول البعض الآخر أن يخفى ابتسامته . واندفع أحدهم محاولاً أن يشغل المجموعة بالحديث حتى يحول انتباههم عن الحماسة الجارحة التي يرتكبها الديبلوماسى بالتهليل للممثلة وتقديمها على أنها زوجة الأستاذ عبد القادر .
اندفع صاحبنا يقول :

— إن ما يحدث فى الهند أمر خطير .. إن فوز جبرى الذى تسانده أنديرا غاندى على ريدى مرشح حزب المؤتمر يعتبر انتصاراً لإرادة الشعب ضد التخلف . ولم يعلق أحد .. كانت الأسماع مشدودة إلى المجموعة المجاورة والأبصار معلقة بوجه نعمت تتلمس آثار الصدمة عليها .
واستطرد الرجل يقول :

— لقد كان فوز جبرى بداية لأزمة عنيفة واجهتها أنديرا .. ولكنها خرجت منها منتصرة ..

ولم يرد أحد .. وأحست نعمت أن الأبصار ما زالت ترقبها .. وكرهت أن تظل هكذا تحت الرقابة فى هذا الموقف المذل .. واسم مدام عبد القادر .. يتردد فى الجماعة المجاورة .

وكست شفتيها ابتسامة مصطنعة ثم قالت بصوت هادئ :
— عن إذنكم ..

وانسحبت من بين الجماعة ..
وأحست أنها لم تعد تستطيع البقاء وسط الضجيج .. وكرهت لنفسها أن تنفعل لما أصابها من إذلال .. ووجدت نفسها تتسلل نحو الباب . ولكنها أحست باستحالة انصرافها وحدها دون أن تثير التساؤل . وتلفتت حولها تبحث عن عبد القادر فوجدته يقف فى ركن مع أحد السفراء .

اقتربت منه فقدمها إلى السفير . ورحب بها الرجل .. وحاول أن يقدم إليها مشروباً ولكنها اعتذرت ووجهت الحديث إلى عبد القادر قائلة :

— أأنت تنصرف ؟

ونظر إلى الساعة قائلا :

— ما زال هناك وقت ..

— أشعر بدوخة وأريد أن أنصرف ..

— بضع دقائق .

— إذا كنت تريد البقاء فساخذ تاكسيا وأعود إلى البيت .

— أبدا .. سأتى معك لأوصلك .. ثم أذهب إلى الاجتماع .

واتجها إلى الباب يحين السفير وزوجته وهى تكسو وجهها بقناع من الهدوء والابتسام .

وانطلقت بهما العربة على كورنيش النيل وهو تلوذ بالصمت وعيناها تحدقان فى أشجار الطريق .

وتساءل عبد القادر :

— أما زلت تحسّن بالدوخان ؟

وردت عليه بزفرة :

وكانت الأفكار تتسابق فى ذهنها . كانت تريد أن تحسم الأمر .. وأن تضع له نهاية .

لم تعد تشعر بالقدرة على مواصلة حياتها معه ..

إلى أين تذهب ؟ إلى أمها فى الإسكندرية .. وعملها فى المستشفى ؟ .

ولكن لماذا لا تبقى فى المستشفى ..

إن هناك بعثة طبية ستسافر إلى الجبهة فى السويس ..

لماذا لا تسافر معها ؟ .. وتبعد عن كل شيء ؟ ..

وعندما أحس عبد القادر أنها لم ترد عليه بغير الزفرة .. عاد يسأل :

— كيف حالك الآن ؟ ..

والتفت إليه لأول مرة وسألت فى سخرية :

— أهيّمك أمرى ؟

— ٤١ —

ورد في دهشة :

— طبعا .. لماذا تقولين هذا ؟

وعادت تزفر ثم قالت في نبرات هادئة :

— لست أريد أن أدخل معك في مناقشة .. ولكنى أحس أننا يجب أن نضع

حدا لحياتنا معا ..

وزادت دهشته وهو يتساءل :

— لماذا .. ماذا حدث ؟

— أنا لم أعد أحتمل المزيد من المذلة .

— أية مذلة ؟ ..

— مذلة أن تقدم أمامى عشيقتك في مجتمع محترم .. على أنها زوجتك .

— من فعل هذا ؟

— رجل ديبلوماسى محترم .

— متى ؟

— وأنا واقفة في الاستقبال .

— قدم من ؟ ..

— زينات شكرى .

— لمن ؟

وانفجرت غاضبة وهي تردد ..

— للناس .. لكل الموجودين .. وكان على أن أبتلع الإهانة .. وأن أحتمل

النظرات التي تمزقنى بالسخرية ..

— ولماذا يفعل الأحمق هذا ؟

— أسأله ..

وصمتت لحظة ثم اندفعت تهدر كالعاصفة :

— واسألها .. اسأل السيدة المحترمة .. لماذا تقبل هذا ؟

- وما ذنبى أنا .. ؟
والتفتت إليه وقالت فى غيظ مكبوت :
— يا أخى .. إذا بليت فاستروا .. ليكن لك ما شئت من عشيقات .. ولكن
لماذا تدعوهم علنا .. إلى الحفلات المحترمة .. بين الناس المحترمين ..
— أنا أدعوها ... إننى مجرد مدعو ..
— لماذا إذن تدعونى .. وأنت تعرف أنها موجودة ؟ ..
— كيف أعرف ؟..
— كيف ؟ .. أتريد أن تفهمنى .. أنك لا تعرف أنها ستوجد فى الحفل ..
أتريد أن تفهمنى أن الرجل الذى قدمها إلى الناس على أنها زوجتك .. يجسر أن
يفعل هذا .. دون أن يكون هناك ما يبرره .. من تصرفك نحوها .. ومن تصرفها
نحوك ؟
وزفرت فى يأس وأردفت قائلة :
— يا أخى .. لقد مللت كل هذا .. ماذا يكرهنى على كل هذه المذلة ؟
ورد عليها عبد القادر فى يأس :
— وماذا تريد ؟
— أن نفترق ..
— اهدنى يا نعمت .. ليس هناك ما يدعو لكل هذا ..
— أنا هادئة .. وقد قررت ما أقوله ..
— تفاهم غدا .
— لن يكون هناك تفاهم بعد هذا .. لقد انتهينا .
— سأترك البيت حتى تهدئ .
— لن أهدأ أكثر من هذا .. ولن تجدى فى البيت غدا ..
— إلى أين ستذهبن ؟
— إلى المستشفى ..

— ٤٣ —

- سأتى لك إلى المستشفى .
- سأسافر غدا إلى السويس ..
- السويس ؟ .. لماذا تسافرين إلى السويس ؟
- فى بعثة طبية للجبهة ..
- اعقلى يا نعمت .. سأترك لك أنا البيت حتى تطلبى منى العودة ..
- لا داعى لأن تترك البيت . فقد قررت أنا أن أتركه ..
- أستبقين فى المستشفى إلى الأبد ؟ ..
- عندما أرغب فى أن أستريح .. سأذهب إلى أمى فى الإسكندرية ..
- وكانت العربة قد وصلت إلى البيت وهبطت منها نعمت متجهة إلى المصعد
وهتف عبد القادر :
- سأحاول أن أعود مبكرا ..
- وعاد بالفعل مبكرا .. ولكنها كانت قد لمت حوائجها الضرورية فى حقيبة
وانطلقت إلى المستشفى فى المعادى ..

(٣)

مشاكل صغيرة

الصباح المبكر وعربتان تطويان أرض الطريق الذى يشق الصحراء إلى
السويس ونعمت تقبع فى إحدى العربتين ترقب الثبات الصفراء على جانبي
الطريق . وتجتاز العربية نقطة بوليس حرنى بأحد المعسكرات . ويبدو على اليسار
برج قديم مهدم .

وتلتقط أذناها حديثا بين الرفاق مليئا بالدهشة والحماس عن ثورة ليبيا ..
وشباب العشرين الذى يهز العالم بالإطاحة بأحد العروش المستقرة المدعمة
للقواعد العسكرية .
وقالت نعمت :

— إنها من أخطر أحداث ما بعد النكسة .

— لقد فاجأت العالم كله بما يشبه المعجزات

— لقد شد أزر العرب وصلب عودهم .. بعد ما توهم أعداؤهم من قصم
ظهرهم بعد النكسة .

ووقفت العربية عند أحد نقط التفتيش وساد الصمت .. وانطلق ذهنها يفكر
فيما خلفته وراءها وفيما هى مقبلة عليه .

لم تشعر نعمت أنها خلقت شيئا يستحق الندم عليه . لم يكن لعبد القادر أى
أثر عميق فى حياتها . حتى سيئاته — فيما عدا الأخيرة — كان يمكن أن تأخذها
بإحساس سطحي .. وأن تواصل سيرها معه على هامش حياته ..

ولم تكن تشعر بأن أمامها فى طريق المستقبل شيئا يثير الانفعال . لقد اعتادت

على الحياة بين الجرحى .. واعتادت الاستماع إلى مشاكلهم الاجتماعية والسعى إلى حلها . آباء مرضى مطلوب إدخالهم إلى مستشفى القصر العيني وليس هناك أماكن خالية .. وأبناء لم يقبلوا في المدارس .. أو قبلوا في مدارس بعيدة عن بيوتهم .. وزوجة تعمل ومطلوب نقلها إلى مكان قريب من الأسرة حتى لا تضيق دخلها الذى تحتاج الأسرة إليه فى نفقات مسكن أو أجور مواصلات .. ومسكن مطلوب منذ شهور طويلة ولا سبيل إليه .. مشاكل صغيرة بسيطة .. ولكنها من نوع السهل الممتنع .. تتعثر حولها بين دهاليز المصالح الحكومية .. وتسترخى فى أيدي الموظفين المختصين حتى يصيب أصحابها اليأس من حلها .

ولم يكن هناك ما يثير اهتمامها .. اللهم إلا شيء كان يطل على ذهنها خلصة .. وكأنها تخشى أن تضبط متلبسة بالتفكير فيه . أو توقع وجوده ..

كان محمود — صاحب الخطوة فى الكلية الذى وعدها أن يعود إليها فى المرة القادمة برصاصة والذى كان أقصى أمنيته أن ترعاه كجريح .. يراود ذهنها .. بأنه موجود هناك .. وأن اللقاء بينهما محتم .. ولكن لماذا .. ؟

هذه الجبهة العريضة المليئة بآلاف الضباط والجنود .. لماذا يتحتم عليها أن تلقاه هو بالذات .

أهى أمنية أن تلقاه ؟ ربما ..

ولكنها قد لا تلقاه .. ربما أيضا ؟ ..

وبرغمها .. تسرب إلى نفسها شعور بالضيق .

واستمرت العربة تطوى الطريق .. ولاحت أطلال على يسارها علق أحدهم عليها بقوله :

— هذا قصر للخديوى إسماعيل بنى لاستراحته وهو فى الطريق إلى السويس .

وعبرت العربة نقطة بوليس ثم أخرى .. وبدأت بعد ذلك أشباح بيوت ومدائن وقوائم بتروى ..

وأخيرا وصلت العربية إلى مقر القيادة ..
 وكان في استقبالهم بعض ضباط القيادة وبعض الأطباء .. وبدأت الدور من
 حولهم أطلالا مهدمة .. جدر منهاره وأسقف مقوضة ومآذن مساجد محطمة
 وأبراج كنائس مدمرة .
 لقد بدا لعينها .. أن هنا حربا .. وأن المدينة قد دكت بالقنابل والقذائف ..
 وأنها قد خلت من أهلها .. إلا قلة .. كنزوار المقابر في غير موسم .
 وقيل كلام لم تنصت إليه .. لعله ترحيب أو نصائح .. أو شرح لشيء ما ..
 كان ذهنها أكثر رغبة في التحليق وسط المدينة المضروبة المهجورة ..
 ومرة ثانية حملتها العربية من جديد مع رفاقها من الأطباء وبصحبتهم أحد أطباء
 المستشفى .

واستقرت في إحدى الحجرات . تمددت برهة للراحة .. وبعد لحظة دق بابها
 وسألها الدكتور رمزي :

— هل تودين الذهاب معنا إلى بورتوفيق .. أم نتركك تستريحين ؟
 ولم تكن تحس بالإرهاق .. فغادرت الفراش وأطلت من الباب قائلة :
 — سأتى معكم ..

وانتهجت العربية بهم إلى بورتوفيق . وبدأت المياه أمامها وقد حسرهما الجزر عن
 الشاطئ مخلقة الأرض المبتلة يتوالب عليها السمك .. ثم أخذت تعبر الطريق
 الضيق الذى دكته القنابل .. ومزيد من الدمار يحلق فوق الرعوس .. أنصاف
 بيوت انهارت سقوفها وبدأت أسياخ المسلح كأنها عظام جثث . وسواد الحرائق
 يلطخ بالهباب بياض جدران البيوت والمرافق . وأكوام الحجارة والطوب تختلط
 بالشظايا ..

هذا جزء من بلدها .. من جسد هذا الوطن .. ومن تراب هذه الأرض ..
 لا يكاد يشعر به الجزء الآخر .. جرح دام .. تقيح وتعفن .. ولم تنضج آلامه بعد
 على سائر الجسد .

- ٤٧ -

وتوقفت العربية عند المدينة الصغيرة .. بورتوفيق ..
لم تجد بها أثرا للمدينة .. كانت أطلالا .. رسمتها ريشة مصور ماهر .. يريد أن
يعبر عن معنى الدمار ..

وهنا وهناك يبدو بعض الجنود .. خرجوا من مخابهم المستترة في باطن الأرض
.. ومن بعيد بدت مياه القناة الزرقاء وعلى اليمن .. بقايا الميناء .. تفترشه بعض
الحصر يعلوها جندي يصلى .

وتوقفت العربية أمام مبنى مهدم وهبط الدكتور رمزي مع زميل مرافق تقدموا
نحو باب المبنى هابطين إلى قبو في المبنى وقال الزميل :
— هذه نقطة إسعاف أولية ..

ولم يكد الثلاثة يهبطون إلى الداخل حتى سمع صوت وقوف عربة في الخارج
وصوت يصيح :

— هذا بوطان. نقطة إسعاف بلا صبغة يود .
وأصابها الصوت برجفة .. كان صوت الحنجرة القوية .. التي تدعى
الشراسة ..

وحاولت جهدا أن تتمالك ..
لا تستطيع أن تنكر أنها كانت تتوقع لقاءه .. ولكن ليس بمثل هذه السرعة ..
وقال الطبيب المرافق وهو يتسم :

— إنه المقدم محمود عبد الله قائد الصاعقة .. لسانه زفر .. ولكن قلبه أبيض ..
وقبل أن يهبط محمود صعد الثلاثة إليه .. تتقدمهم نعمت ..
وأصاب الذهول محمود وهو ينظر إلى نعمت تصعد من قبو الإسعاف .
— من ؟ .. أنت ؟ ..

وابتسمت نعمت وهي تقول له :
— لا تنظر إلى هكذا .. كأني شبح ! ..
وازدد ريقه وهو يتساءل :

— غير معقول .. أنت هنا ؟ ..
وبين فرحة اللقاء وصدمة المفاجأة .. والخوف اللاإرادي عليها .. صاح :
— كيف .. كيف تركوك تحضرين إلى هنا ؟
قالت نعمت وهي تشعر بشيء من الخجل من هذه المظاهرة الصاخبة التي
أحاطها بها :

— إني هنا في عمل ..
— عمل ؟! .. عملهم أسود ..
وانتهت صدمة اللقاء الأول .. وصحبها إلى المستشفى .. وتلكاً في صحبتها
قدر ما يستطيع .. وأجهد فكره حتى يهيئ الفرصة للقاء الآخر .. ولم يجد أمامه
سوى دعوتها هي وزملائها للطعام معه .. ولكن أين ؟ .. في مخبئه على خط النار ؟
غير معقول ..

وقال الدكتور أمين حكيمباشي المستشفى :
— تتناولون العشاء كلكم بدعوة مني هنا .. أليس هذا أفضل ؟ ..
— كنت أود أن أكون في مكان آمن حتى أدعوكم أنا .. ولكن يبدو أنه لا مفر
من قبول الدعوة عندك .
واستمعت نعمت بالعشاء مع محمود .. بلهفته عليها .. وبفرحته بها ..
وكأنها أمنية في ليلة القدر .
وبدأ العمل ..

ولم تلزم نعمت المستشفى بين الجرحى .. بل انطلقت بين الجنود .
ويوما بعد يوم أحس الجنود بالارتياح لها وباتوا يشعرون أنها قد باتت جزءاً من
الجبهة ..

وأخذت الغارات الإسرائيلية في الازدياد والكثافة .. وصدرت التعليمات إلى
نعمت بأن تلزم المستشفى ولكنها كانت قد ألفت الميدان .. وبدأت تتنفس فيه
بحرية أكثر .. واعتادت أرض المعركة .. جحور المدافع .. ومخايء الجنود

.. وأصوات القذائف .

كانت تشعر أنها تستطيع أن تفعل الكثير لأجل هؤلاء الذين لا يقلقهم أزيز الطائرات أو دوى القنابل بقدر ما تقلقهم مشاكلهم الصغيرة التي خلفوها وراءهم .

لقيت صميذة في خندق المدفع .. تعلو وجهه مسحة حزن وهو يمسك بكوب الشاي وبقية طاقم المدفع يضجكون .
سألته باسمه :

— أوحشتك مصر ؟ ..

تنهد في صمت وعزم عليها برشفة شاي :

— تاخدى شاي ؟ ..

— شربت الآن فنجانا في المدفع المجاور :

وعاود الصمت الحزين .. سألته :

— منذ متى لم تنزل مصر ؟ ..

— أتيت البارحة .

— ومع ذلك تلبو حزينا ؟ ..

وعاد يهز رأسه في صمت وهو يرتشف الشاي .. وعادت تجاذبه أطراف الحديث .

— متزوج ؟ ..

وهز رأسه بالنفي .

— خاطب ؟ ..

— يعنى .

— ألدريك مشكلة حب ؟ ..

— أبدا .

— ما بالك إذن ؟ ..

— ٥٠ —

— عمى الذى يعول الأسرة مريض .

— بماذا ؟ ..

— مهدد بالعمى .. ولا بد من إجراء عملية .

— ولماذا لم يجربها ؟ ..

— ذهب إلى القصر العيني بتوصية من طبيب معرفة .. ولكنه لم يجد مكانا ..

قالوا له تعال بعد يومين .

— وبعدين ؟ ! .

— ذهب بعد يومين فلم يجد هناك مكانا إلا على فراش بجوار مريض آخر . فعاد

إلى البيت ..

— والطبيب المعرفة ؟ ..

— لم يستطع أن يفعل له شيئا . ذهبت معه .. لم يكن هناك مكان خال . قالت

لى الحكيمة إنه يتدلل ويرفض أن ينام بجوار مريض آخر . قال عمى إنه من غير

المعقول أن ينام بعد العملية بجوار مريض على فراش واحد . لم يكن لدى الحكيمة

حل — بعد التوصية — سواء .. عدت معه إلى البيت . وانتهت الإجازة وهو ما زال

ينتظر خلو فراش فى عنبر نمرة ١٢ فى القصر الجديد .

وكتبت نعمت اسمه وعنوانه وأخبرت صميذة أنها ستطلب من حكيمباشى

المستشفى هنا أن يتصل بالقصر العيني لكى يوجدوا له مكانا . وعندما تنزل .

ستذهب لزيارته والتأكد من دخوله المستشفى .

واستطاعت نعمت أن تبعث الطمأنينة فى قلبه .. وانفجرت أساريه .. لم

تكن مشكلته شظية قد تطيح برأسه .. وإنما فراش فى عنبر المستشفى استعصى على

عمه المههد بالعمى والذى يعول أسرة تركها صميذة فى رعايته .

وعبرت نعمة كومة من الأنقاض لتجد عبدربه خارجا من مخبئه ليبادلها التحية

باسما :

— صباح الفل .

- صباح النور .
- كنت عايزك يا ست نعمت .
- خير يا عبد ربه ؟
- كنت قدمت للمحافظ على سكن من ستة شهور .. ولم يرد على ؟
- اكتب لى طلبا آخر .
- تفتكرى فيه فائدة ؟.
- نجرب .
- طلبت سكنا فى الأباجية . أو فى زينهم . قالوا لى إن المساكن كلها وزعت مع أن نصفها يؤجر بالخلو .. والعين بصيرة واليد قصيرة .. طلبت فى البساتين .. قالوا لى انتظر .. وما زلت أنتظر .. وحالتى الاجتماعية .. زواج مع وقف التنفيذ .
- وضحكت نعمت قائلة :
- ولو أعطوك السكن ستسعد بالزواج ؟
- المهر مدفوع والعفش جاهز ومخزون فى بيت أبوها .. ولا ينقصنا سوى السكن .
- سأذهب بنفسى لمقابلة المحافظ بالطلب .
- ربنا يخليكى لنا . بس المهم لا تفعلى كبعض المسئولين !
- وماذا يفعلون ؟
- يأخذون الطلبات . وآدى وش الضيف .
- أتمنى أن أفعل كل ما يريحكم .. وربنا يوفقنى .
- ربنا يجعل فى وجهك القبول .. انت ست طيبة .
- كتر خيرك يا عبد ربه .
- وجعلت تنتقل من موقع إلى موقع .. والأولاد .. كما كانت تسميهم ..
- يضحكون ويمرحون .. والعابس منهم .. لا يقلقه الخطر .. وإنما تقلقه المشاكل

الصغيرة التي خلفها وراءه في داره .. عبد الستار يهز رأسه غيظا وهو يقول لها :

— هو ذا معقول ؟ ..

— اهدأ وقل ما بك .

— ناظرة المدرسة التي بجوار البيت .. ترفض قبول ابني .. لأن الفصول كاملة العدد .. وأضطر أن أدخله مدرسة لا يستطيع أن يذهب إليها إلا بالمواصلات .. وتضطر أمه كل يوم أن تركب معه حتى آخر شبرا في زحام الأوتوبيس .. هل ضاقت المدرسة على الولد !؟

— أعطني اسمه وسأبذل جهدي لإدخاله المدرسة المجاورة للبيت .

— لا فائدة .. لقد أخذت كارت من مدير المنطقة .. ولكنها لم تفعل شيئا .

— دعنى أجرب .

وجندى آخر زوجته عينت للتدريس في بنها .. وحائر .. هل تأخذ الأولاد وتقفن في بنها أو تبقى في القاهرة وتسافر كل يوم !؟

وتجلس نعمت لشرب الشاي .. والاستماع إلى مشاكلهم البسيطة .. عندما تسمع أزيز الطائرات .. ودوى القنابل .. وتنقلب الحياة إلى جحيم .. وتحس كأن الأرض كلها تنفجر .. وتنكمش في أقرب مخبأ .. لتقرأ القرآن .. وتسأل الله اللطف والغفران .

والأولاد الذين ضجوا بالشكوى .. من أجل سرير في مستشفى أو مسكن للزواج .. أو مكان في مدرسة .. انطوت مشاكلهم وتبدد ضيقهم ، حل محله إحساس بالتحدى والإصرار وبرقت عيونهم وشدت أكفهم على مدفع أو دانة وتعالّت أصواتهم بندايات يتبادلونها دون أن تفهم منها شيئا .. وتظل قابعة في مكانها .. وشفتاها تتمتم بما تعرفه من القرآن والدعوات . حتى يخفت الدوى . ويتباعد الأزيز . ويسود الهدوء إلا من انفجار هنا .. ودوى هناك .

وغادرت المخبأ مودعة أصحابه .. مؤكدة لهم أنها ستبذل كل جهدها لحل مشكلاتهم . وأنها ستستعين بكل السلطات ، وبالصحافة ولن تهدأ حتى تقضى

حاجاتهم ..

واتخذت طريقها إلى المستشفى وهى تخوض فى الأثرية والأنقاض والشظايا
عندما أحست بعربة قادمة تعلو وتهبط فى المطبات مثيرة الغبار من حولها .
وتوقفت العربة بجوارها وأحست بشبح يهبط منها . وانزاح الغبار عن محمود
يقف فى مواجهتها وسألها فى دهشة :

— ماذا تفعلين هنا ؟ ..

— ذاهبة إلى المستشفى .

— وأين كنت ؟ ..

— فى المعسكر .

— خلال الغارة ؟! ..

— أجل .

— غير معقول ! ..

— ولماذا .. كنت أتجول بين المواقع .. وصادفتنى الغارة فهبطت فى أحد

الخنادق .

— أنت مجنونة ! ..

— لماذا ؟ ..

— لأنها كان يمكن أن تصادفك . وأنت بعيدة عن الخنادق .

— ربنا ستر ..

— قد لا يستر مرة أخرى .

— ربنا كريم .

— كريم .. كريم . ولكن ماذا تفعلين فى المواقع ؟! ..

— أمر على الجنود .

— ما شاء الله .. وماذا تركت لنا .. المفروض أن المرور للقادة .

— المرور لكل من يستطيع أن يؤدى خدمة للأولاد ..

— ٥٤ —

— وأية خدمة تستطيعين أن تؤديها أنت للأولاد ؟
— ربنا يقدرنا على خدمتهم .. إن مشاكلهم كثيرة .. وأنتم لا تعرفون عنها شيئا .

— إن لديهم التعيينات . والسجائر . وتقدم لهم الوجبات الساخنة في موعدها .. والخدمات الطبية على ما يرام . مم يشكون إذن ؟
— يشكون من أشياء تقلقهم .. هناك في الخلف .. في المدارس والمستشفيات ودواوين الحكومة . وروتينها المعقد ..

— كل الناس لهم هذه المشاكل .
— وكل الناس يسعون لحلها ولكن عندما يقبعون في خنادقهم على خط النار .. ويمرمون من مجرد السعى لحلها .. تتحول هذه المشاكل إلى نوع من الطين في رؤوسهم لا سيما إذا كانوا هم وحدهم المسئولين عن حلها .. إذا كانوا آباء لصغار أو أبناء لعجزة .

— وهل انتهت من حصر المشاكل ؟ ..
— ليس بعد .

— لا أظنك وحدك التي ستحلين مشاكل الجبهة ..
— من واجبي أن ألقاهم وأنصت إليه وأسمع .. وأسعى من أجلهم .
وكان الحديث يجرى على الطريق .. وسمع صوت عربة تقبل . فسألها محمود :
— أأنت ذاهبة إلى المستشفى ؟ ..

— أجل .
— إذن أوصلك ونكمل الحديث في العربة .
وساعدها على الركوب بجواره . وانطلق بالعربة نحو المستشفى . وعاد محمود ليستطرد المناقشة :

— كنت تقولين إن من واجبك لقاءهم .
— أجل .

— ٥٥ —

- ولكن وجودك هنا خطر ..
- كيف ؟ ..
- يعنى قد تصادفك غارة وأنت بعيدة عن الخنادق .
- قالوا لى أن أنبطح أرضا .
- وضحك محمود قائلا :
- تحفظين التعليمات جيدا ... ولكن قد تصيبك شظية مباشرة فلا يجديك الانبطاح .
- قسمتى .
- سلامتك من كل سوء .. ولكن لى رجاء عندك .
- ما هو ؟ ..
- مادمت تصرين على التجول بين المواقع .. فلماذا لا تمنحيننى الفرصة لكى أساعدك ؟!
- كيف ؟ ..
- أمر وإياك بالعربة على المواقع .
- أهذا معقول ؟
- ولم لا ؟!
- قائد الصاعقة بحاله .. يضيع وقته من أجل المرور مع الباحثة الاجتماعية ! ..
- لماذا تضعينها فى هذا الشكل ؟
- وكيف أضعها إذن ؟ ..
- نزهة سواقة .. مع فاتنة .
- وبعدين ؟!
- ولا قبلين .. المهم .. هل قبلت العرض ؟ ..
- لا أريد أن أثير الشائعات من حولنا .
- يا ستى ولا يهملك .

- ولكن سأعطلك عن عملك .
- ليس لى عمل بعد طابور الصباح .. سوى المرور وسيكون مرورى معك .
- أمرك .
- سأحضر فى الصباح لآخذك .. اتفقنا ؟
- اتفقنا .

ورغم كل ما أصابها من قلق .. فقد كانت فى قرارة نفسها راضية .. كانت تحاول أن تنهك فى عملها حتى تبعده عن تفكيرها .. وكانت تتجنب لقاء جهدها .. ولكن عندما فرض عليها اللقاء .. أحست بأنه قدر ... وقدر ممتع .. فقد كانت تحس الأمان والراحة إلى جواره .. وبضعة أيام من اللقاء فى هذه الظروف القاسية .. لن يكون لها أية مضاعفات .

أمضت ليلتها فى المستشفى مع المرضى والمرضات والأطباء .. وفى اليوم التالى .. استعدت للقاءه ، بشيء من الطمأنينة على شكلها ، فقد كانت تتمنى أن تكون كما حاول أن يمدحها مغازلا « فاتنة » .

وأقبلت على العربية .. فإذا به وحيدا بغير سائق .. كان هو نفسه يسوقها .. وتساءلت :

- سنمر بغير سائق ؟!
- تعودت أن أسوق العربية بين المواقع بنفسى .. ألم أقل لك إني أعتبرها نزهة مع فاتنة ..

- بين الانقراض ؟!
- ستخضر الأرض ويورق الشجر .. عندما يمر به طيفك .
- وضحكت نعمت .. وتساءل محمود :

- ماذا يضحكك ؟ ..
- تنقلب فجأة إلى شاعر .
- أقول ما أحس به .

- أنت لطيف .. رغم ما تحيط به نفسك من فظاظة .. وشراسة .
- الله يسامحك .
- أنت مشهور بهذا بين كل الضباط .
- مشهور بماذا ؟ ..
- بالشراسة .
- هم يقولون عنى هذا ؟!
- وانطلق محمود بالعربة .
- وقالت نعمت وهى تبصر الخرائب والأنقاض من حولها :
- غير معقول أن يحدث كل هذا .
- لماذا غير معقول .. ؟ إنها الحرب ..
- لا أحد فى مصر يتصور هذا .
- ولماذا تريدنيهم أن يتصوروه ؟ ..
- لكى يعيشوا حياة المعركة ..
- تتحدثين فى بلاهة الخطباء .. لماذا تريدنيهم أن يعيشوا حياة المعركة ؟! ..
- لكى لا تكون هناك فجوة بينهم وبين الجبهة .
- وضحك محمود ثم قال :
- ولكن هناك فجوة واقعة فعلا فلماذا ننكرها .. نحن نشعر هنا بالدمار ..
- لأن هنا دمارا .. وهناك لا يشعرون بالدمار .. لأنه ليس هناك دمار .. وعندما تمتد
- إليهم — لا قدر الله — يد الدمار .. سيحسونه .. وسيعيشون حياة المعركة رغم
- أنفك وأنفى .. وأنف الخطباء ومدعى الزعامات الصغرى .
- ولكن .. ألا يزعج الجنود أن يجدوا المدينة تحيا حياتها بالأغاني ..
- والأنوار ؟
- أليس هذا خيرا من أن يذهب ليجد أهل بيته فى نواح وظلام .. ألم تقول
- أنت إن ما يضايق الجنود هنا .. ليس خوف الشظايا .. وفزع الدوى .. ولكنها

مشاكلهم الصغيرة التي تركوها وراءهم .. ما بالك إذن لو أحس أحدهم أنه قد ترك أهله وراءه في دمار وخراب .

وأطلقت نعمت تنهيدة ثم قالت في نبرة خافتة :

— كل ما نريده ألا يحسوا بالعزلة .. وأن يعرفوا أن قلوبنا معهم .

واقتربت العربية من المواقع .. وبدأ القلق يساور نعمت . وعادت تتمم :

— أكره اللغظ والشائعات .

وضحك محمود :

— خليها على الله .

وقبل أن يفرغ من كلماته . سمع الأزيز . وبدأ الدوى . وفي لمح البرق وثب

محمود من العربية ثم جر نعمت من ذراعها نحو حفرة على جانب الطريق . وقبل

أن يهبط فيها سمع دويًا يصم الآذان . وعلا دخان كثيف .

وانبطع الاثنان على الأرض ومحمود يضم نعمت إليه .. ومضت برهة حاول

محمود أن يلتقط أنفاسه وسأل نعمت وهو يلهث :

— كيف حالك ؟ ..

وهممت بصوت خافت :

— لا أدري .

وضمها إليه في قلق . فأحس بلزوجة الدم على أصابعه . ووجد كتفها ينزف

.. ومزق كم القميص . وأصابه جزع وهو يهتف :

— أصبت في كتفك .

— لا أحس بشيء .

— كان يجب ألا أتركك تخرجين .

واستمر الأزيز والدوى .. وطلقات الرشاشات تنهال من حولهما .

وأخذ محمود يرقب السماء وهو يضم نعمت في جزع .. وقد أحس فجأة أنها

شيء عزيز لديه .. بل أعز من أي شيء .. لقد كان دائما يشعر أنها لم تكن شيئًا

— ٥٩ —

عابرا في حياته . أما الآن فهو يحس أنها شيء مستقر في حياته .. وكأنها الحقيقة الوحيدة في حياة كلها أطيا ف .
وأخذ يرقب الجحيم من حوله وهو يحس بلزوجة الدم على يديه ويهمس في
جزع :

— متى ير حل هؤلاء الكلاب ؟! .
وفجأة دوى انفجار في الجو . ووجد لها يشتعل في السماء .
وفي وسط ارتياحه وجزعه هتف صارخا :
— أوقعنا طائرة .. إنها فانتوم .. ياسلام يا ولاد ..
وكانت نعمت تحس بدوار .. وغثيان .. وبدأ الدوى يخفت من حولها ..
وأحس محمود بجسدها يسترخي تحت ذراعيه .. وهمس بصوت يملؤه الجزع :
— نعمت .. نعمت ..
وبدأ إحساسه بآس مخيف وهو يرقد بجوارها عاجزا .. لا يعرف ماذا يفعل .
وفجأة .. صمت الدوى .. وتباعد الأزيز ، وساد السكون .
ونفض محمود رافعا نعمت من ذراعيها ووضعها في العربة وانطلق إلى
المستشفى .

(٤)

فنجان شای فی نقطة مراقبة

لم يكن الجرح الذى أصاب نعمت فى كتفها خطيرا فلقد مست الشظية كتفها
 فمزقت القميص وأصابت الكتف بجرح سطحي . وبقي محمود فى المستشفى
 بجوارها حتى ضمد الجرح وعادت إلى غرفتها بعد أن تماكنت قواها .
 وانصرفت الممرضة بعد أن أعدت لها الفراش .
 ووقف محمود يرقبها فى صمت وقد جلست فى الفراش وغطت ساقها بملاءة
 بيضاء ، وبسطت على كتفها شالا أزرق .
 وتنهت نعمت فى انتظار كلمة وداع بعد تجربة قاسية .
 لم يتحدث محمود . ظل يرقبها فى صمت وكأنه قد استراح لهذا الوضع ..
 واستمرت تلك النظرات المسترخية فى هدوء على وجهها الشاحب .
 وتحدثت هى . قالت فى نبرة ندم :
 — آسفة .. على كل ما سببت لك من متاعب .
 ورد فى حزم :
 — من الغد سترحلين من هنا .
 وأخذت برؤده وتساءلت فى ضيق :
 — لماذا ؟!
 — لست أريد أن أخوض معك تجربة أخرى .
 — لم أكرهك على مصاحبتى .
 واستمر يتحدث وكأنه لم يسمع كلماتها المحتدة الناهرة :

— منذ أن تركتك في القاهرة ، لم أكف عن التفكير فيك .. كنت أعتبر ذكريات المستشفى رصيذا من المتعة ألبأ إليه كلما استبدى الضيق .. وعصف بى الملل .. كنت أتوق إلى رؤيتك .. وأرسم الخطط للقائك عند عودتى إلى القاهرة .. كنت أحيأ بأوهامى الجميلة .. وذكرياتى الممتعة .. وعندما حضرت إلى هنا .. كانت مفاجأة ممتعة .. وحاولت جهدى أن أفعل المناسبات .. للقائك .. ومن بينها ما فعلت اليوم من صحبتك في المواقع .

وصمت محمود لحظة .. ونظراته تتحسس وجهها .. وهى صامته ترقب جسده الطويل وكتفيه العريضين وقد علاه الغبار وبدا شعره مشوشا .. ومزق في ركة البنطلون عفر بالتراب .

واستطرد يقول في لهجته الهادئة :

— ولكن عندما رقدت بجوارى في الحفرة .. وأحسست لزوجة الدم بين أصابعى وأنا أمسك بيدي كتفك .. ووجدت جسدك يسترخى في إغماء تحت ذراعى . انتابنى شعور مروع لم أعرفه من قبل . شعور الذى يفقد ابنه بين يديه .. لم تكونى مجرد شيء ممتع كما توهمت من قبل .. بل أحسست بك شيئا عزيزا .. يرونا أن نفقده .. أنا أعرف شعورى للنساء .. ليس لك عندى هذا الشعور .. إنه شيء أكثر .. خليط من شعور الابنة والحبيبة والأم ..

وأخذت نعمت بقوله .. وأصابها منه خليط من المتعة والخوف .. كانت تعجب به .. وتتوق إلى لقاءه .. ولكنها لم تتوقع أنه بمثل هذه الدرجة الجارفة من الحرارة والنقاء والإخلاص .

كانت تحس بالأمانة والصفاء في كل ما قال ..

ورغم ذلك أشارت إليه بيدها ، وكأنها تدفع خطرا :

— محمود .. اذهب الآن واسترح .. إنك منفعل بالتجربة المروعة .. أنا أيضا .. ارتعت من هولها .. لم يصبى الإغماء من الجرح .. ولكن من جهنم التى كانت تحيط بى .

— ٦٢ —

وبرغمه ، أخرج من أنفه زفرة سخرية وقال فى ضيق :
 — أية تجربة تلك التى أنفعل بها . إني أعيشها كل يوم .. بل كل ساعة .. هذا
 الجحيم الذى أصابك بالإغماء .. بات حياتنا .
 وصمت لحظة يهدئ فيها من لهجته .. ثم استطرد بهدوء :
 — اسمعى يا نعمت .. غدا سترحلين .
 ونظرت إلى وجهه وحاولت جهداً أن تخفى إعجابها به ولهفتها عليه وقالت
 فى برود :

— لست أتلقي تعليماتى منك ..
 — سأمنعك من دخول المعسكر .
 — لا تستطيع .
 — سترين .
 ومد يده بمسك بيدها .. وقبل أن يتركها رفعها إلى شفثيه .. ومسها مساً رقيقاً
 .. ثم مد يده ليتحسس رأسها وجبينها ثم قال فى لهجة عاتبة :
 — لا يسعدنى شيء كلقائك .. ولكن ليس فى هذا الجحيم .. لم أبلغ بعد من
 الأثانية .. حد التضحية بك من أجل متعتى .

وردت متخائبة :
 — ولكنى لم آت إلى هنا للترفيه عنك ..
 — أعرف هذا .. ولكنى أستمع بك .. برغمك .. وبرغمى .
 واستطردت تقول :
 — لقد أتيت لكى ألقى الجنود .. وأحل مشاكلهم .
 ورد فى سخرية وهو يوشك أن يستدير ليغادر الغرفة :
 — أنت التى ستحلين مشاكلهم ؟!
 — ولم لا .. ؟
 — لماذا لا تدعين هذا للحكومة .. لقد حضر بعض المسئولين إلى هنا ..

استمعوا إلى الجنود .. وجمعوا كوما من المشاكل .. وما زالوا يحلون فيها حتى الآن ..

— واجبي أن أسمع وأحاول .

— أظنك سمعت ما فيه الكفاية .. غدا .. سترحلين .

وقبل أن يستمع إلى ردها .. غادر الغرفة وهو يهتف :

— تصبحين على خير .

وردت « وأنت من أهله » .. وهي ترقب جسده الفارع يختفي وتنصت إلى

وقع قدميه على أرض المعر .. ثم وقعهما يطرقان الدرج ..

ولم يطل بقاؤها في الفراش سوى بضعة أيام ..

وفي ذات صباح كانت تتجه بإحدى عربات المستشفى إلى الطريق الملىء

بالحفرة والحجارة والأنقاض .. وعند أول نقطة مرور أوقف الحارس العربية لحظة

ثم أشار للسائق بالعبور .

وفي النقطة الثانية .. أوقفت العربية مرة أخرى .. وتبادل السائق والحارس

بضع كلمات ثم أشار إليها قائلاً :

— ممنوع .

ورد السائق في دهشة :

— كيف ؟!

— الأوامر .

وعاد السائق يتساءل مستنكراً :

— ممنوع دخول حضرة النقيب ؟

وبعناد أجاب الحارس :

— أجل .

وصاح السائق :

— أوامر من ؟

وأحسنت نعمت بالخرج وهى ترى المناقشة تتصاعد بين الحارس والسائق وهى — موضوع المناقشة — صامتة لا تتدخل وبهدوء قالت نعمت للسائق :
 — أرجوك يا إبراهيم .. دعنى أكلمه .
 وأشارت للحارس لكى يأتى إليها .
 واقترب الحارس وأدى التحية ورد بهدوء :
 — أفندم .
 — أليدك أوامر تمنعنى من الدخول ؟
 — أجل .
 — تمنعنى أنا بالذات ؟
 — كل السيدات .
 — ولكنى نقيب !
 — ولو .
 وأحسست بالإهانة .. وبدا الغضب يتصاعد فى صدرها .. ولم تعرف على من تصب الغضب ..
 لقد فعلها محمود ..
 لقد عرضها لموقف مهين .. ولم تعرف كيف تتصرف .. هل تستسلم وتعود .. ؟ أو تصر على الدخول .. ؟
 ولكن ماذا تفعل إذا أصر العسكرى على منعها .. ؟
 وهل يمكن أن يستعمل سلاحه فى تنفيذ الأمر ومنعها من الدخول .. ؟
 جائز ! ..
 ولكن هل لمحمود الحق فى منعها .. ؟
 إنها نقيب .. وليس من حق جندى أن يمنعها من دخول أى مكان .
 أى مكان ؟ .. أى مكان !؟
 بالطبع لا ..

لا بد من تحقيق الشخصية .. ومعرفة الغرض ..
ولقد كان هذا هو المفروض في أية نقطة حراسة ..
أما أن تعطى التعليمات بمنع دخول السيدات .. على الإطلاق .. فهذا غير
معقول .. لماذا إذن قبلوهن في الجيش ومنحوهن الرتب .. حتى يأتي مقدم ويعطى
تعليماته بمنع دخولهن في معسكر ما .
ثم هي قد دخلت قبل الآن .. ومرت بالمواقع الأمامية .. بل وكانت في
صحبه .

هذا غير معقول ..
ولم تستطع أن تحزم أمرها ..
ولم تقبل أن ترجع .. وتبتلع الإهانة ..
ولم تستطع أن تقتحم طريقها وتقبل المغامرة التي قد تقاوم بالعنف .
وقبل أن تقدم على الاختيار .. أبصرت غبار عربة قادمة في الاتجاه الآخر . ولم
تلبث أن توقفت أمام نقطة المرور وبعد لحظة هبط منها جندي يضع على ذراعيه
ثلاثة أشربة كانت تراه دائما في صحبة محمود .
وتساءل صلاح في لهجة من بيده الأمر والنهي :
— فيه إيه ؟

وصاح سائق العربة في لهجة احتداد :
— إنه يمنع حضرة النقيب من الدخول .
وبدا الغضب والدهشة على وجه صلاح .
لم يكن قطعا قد عرف بالأوامر .
وأقبل على الحارس فهمس في أذنه بوضع كلمات . لم يلبث بعدها أن أدى
التحية وأفسح الطريق قائلا :
— اتفضل يا فندم ..

ولم تعرف نعمت ماذا قال صلاح للجندي الحارس .
(العمر لحظة)

ولكنها لم تشك في أن تعليمات محمود عبد الله الحمقاء لم تصل إليه بعد .. وأنه تصرف باعتبار قدرها الذى لمسه دائما في نفس قائده الشرس أو مدعى الشراسة .

وأقبل عليها صلاح محيا معتذرا بصوت عال :

— لا مؤاخذه يا فندم .. العسكرى لا يعرف سيادتك ..

ثم خفض صوته قليلا وهو يقول :

— أنت تعرفين عساكرنا .. يطبقون التعليمات بدقة ..

كانت تعرف أنه هو الذى يخالف التعليمات .. وأن محمود لو عرف لأوقع به .
الجزء .

ولم تدر .. أمن الشهامة أن تتركه في جهله وتواصل سيرها داخل المعسكر !
.. أم تخبره بأنها تعرف أنها هي المقصودة بالذات بهذه الأوامر ؟

وكان من المستحيل بالطبع أن تقدم على الحل الأخير مهما كان فيه من شهامة .. بل لم تستطع أن تجد هناك تفسيراً مقبولا لماذا أصدر قائده أمراً بمنعها هي بالذات من دخول المعسكر ..

أتجسر أن تقول إن قائده الشديد يخشى عليها لأنه يشعر نحوها بمعزة الابنة والحبيبة والأم ؟ .

ومع ذلك فقد كرهت أن تستغل طيبة الفتى وحسن ظنه .. وتوقعه في محذور مخالفة تعليمات قائده عمدا .. مما يكاد يكون تحديا له .

ولم تجد خيرا من التظاهر بأنها — وبعد أن أفسح لها الطريق إلى المعسكر — قد قررت العودة إلى المستشفى لسبب ما .

واستدارت إلى السائق قائلة ببساطة :

— إبراهيم .. لا بد أن نعود إلى المستشفى الآن .. هيا ..

وصاح صلاح محتجا :

— غير معقول .. لا بد أن تتفضلى .

- لقد تذكرت أن لدى عملا في المستشفى .. لا بد أن أعود لأنجزه ..
- ولكن سيادة القائد سيغضب جدا إذا عرف أنهم منعوك من الدخول .
- .. يا غبى .. سيادة القائد سيقتلكم إذا عرف أنكم سمحتم لي بالدخول .
- وأجابت في هدوء :
- لا داعي لأن يعرف سيادة القائد بما حدث .. إنى سأعود إلى المستشفى في سكون .
- ولكن الأحمق أصر على دخولها . وأفسح لها الطريق .. وكاد يجذبها جذبا إلى عربته .
- تفضلى .. اركبى سأسوق أنا حتى لا يجسر أحد على مثل هذه الحماسة ..
- ووجدت نفسها تركب العربة إلى جوار صلاح وهو يبتف لسائق عربتها :
- عد أنت إلى المستشفى .. وسأعود أنا بحضرة النقيب بعد أن يقوم بجولته ..
- وانطلق صلاح بالعربة .. دون أن يترك لأحد فرصة الاعتراض .
- وتساءل والعربة تندفع مهتزة بمطبات الطريق :
- نذهب إلى الرئاسة ؟
- وهزت رأسها في حزم قائلة :
- لا .. لا .. إنى أريد أن أقوم بزيارة المواقع ..
- وصمتت برهة تحاول أن تمسك بالمقعد حتى تتجنب هزات العربة . ثم
- استطردت تقول :
- ما زالت هناك الكثير من المواقع لم أزرها .
- وابتسم صلاح قائلا :
- ومن بينها موقعنا ..
- لقد ذهبت إلى مركز رئاستكم .
- أقصد نقطة المراقبة الأمامية .

— ٦٨ —

وردت نعمت محاولة تجنب لقاء محمود عبد الله :

— نذهب إليها بعدين .

— ولم لا نبدا بها ؟

— لا أريد أن أثقل على سيادة القائد .

— سيادة المقدم لا يبقى هناك عادة .. إنه يمر مجرد مرور ..

وتساءلت نعمت في حذر :

— لعله يمر بها الآن .. وأنا لا أريد أن أعطله .. إنى أريد أن أمر وحدى .. على

راحتى ..

— اطمئنى .. إنه الآن فى مؤتمر فى رئاسة الفرقة .

وبدا التردد على نعمت فى خوفها من لقاء محمود عبد الله .. واكتشافه أنها

دخلت رغم أوامره .. وفى احتمال إقدامه على حماقة طردها من المعسكر .

ولكن صلاح عاد يلح :

— سأقدم لك فنجانا من الشاى .. عندنا فى الموقع وابور سيرتو .. وشاى ..

وسكر ..

وابتسمت نعمت قائلة :

— شكرا .. لقد شربت الشاى الآن .

— سأقدم لك قراقيش صنعتها أمى وأعطتها لى فى آخر أجازة .

وأمام إلحاح الفتى لم تستطع نعمت إلا أن تهز رأسها قائلة :

— حاضر .. سأذهب معك .

وعلت وجهه ابتسامة رضا وهو يقول ضاحكا :

— ثم إنه لدينا مشاكلنا نحن أيضا ..

وبدا صلاح بشعره الخشن الذى غبر التراب سواده .. ووجهه الأسمر

وقميصه الذى رسم العرق آثاره على ياقته .. وقد علت البسمة شفتيه .. وشاع

المرح فى قسماته .. شىء عجيب .. وسط هذا القفر والدمار المحيط به .. شىء

أشبه بعود الجهنمية النابت بأوراقه الخضر وأزهاره الحمراء من بين الأنقاض في إشراقه تتحدى كل ما يحيط به من خراب .. شيء يؤكد تدفق الحياة .. وتحديها لكل وسائل الدمار .. وملاً نعمت إحساس بالأمومة .. التي تمنح الحياة .. وترعى النبت .. وتمنت لو استطاعت أن تضم إليها كل هؤلاء الأولاد .. الرابضين في مواقعهم .. الضاحكين رغم كل آهات الجراح التي قد تتصاعد من بينهم بعد نوبات الجحيم التي تصب على رؤوسهم .. المرحين بغير شيء يبعث على المرح .. سوى شعاع إيمان ينبع من داخلهم ليدفع قلوبهم .. وطبيعة مرحة جلبوا عليها لا يستطيعون مقاومتها .. تضع النكتة أبداً على طرف ألسنتهم وتطلق الضحكة أبداً من أعماق صدورهم .

وأخذت العربية تقترب من شاطئ القناة .. وبدأ على اليسار مبنى هوى سقفة .. وبقر باطنه .. وبدأت أرضه الباركية منثورة وسط أكوام الحجارة .
وهزت نعمت رأسها أسفا .
وقال صلاح معلقاً :

— الكلاب لم يتركوا جداراً قائماً .. ولكنهم لم يستطيعوا أن ينالونا بسوء ..
لقد استحكمنا في المواقع وهجرنا المدنيين .. فهم لا يستطيعون أن يضرّوا الآن
سوى الحجارة والأرض .. وذات يوم سنثار لأنفسنا وللحجارة وللأرض ..
وردت نعمت وهي تحاول أن تبعد عن نفسها سحب اليأس التي دفعها من
حولها كل هذه الأنقاض التي تحيط بها .

— إن شاء الله .. سنطردهم ونستعيد الأرض .. ونقيم كل الجدر ..
توقفت العربية .. قريباً من نفس المكان الذي وصلت إليه في أول الزيارة ..
الميناء القديم على اليمين وبجواره زاوية للصلاة فرشت بالحصى .. ودشم المدفعية
.. تناثرت في باطن الأرض على طول الشاطئ .

وسار صلاح يقود نعمت إلى موقع يبدو في الطرف في مواجهة الشاطئ
الآخر .. وأخذ يهبط بها إلى الموقع وهو يقول ضاحكاً :

— ٠٧ —

— المكان ليس على قدر المقام .. ولكنه الموجود .. أرجو ألا يكون الأولاد قد عبثوا بما فيه حتى يبدو مرتبا .

وصاح صلاح مناديا الجنود داخل الموقع محاولا أن يمنح صوته لهجة السلطة التي تمنحها له الأشرطة الثلاثة المعلقة على ذراعيه :

— صبحى .. عطوة ..

وأقبل جنديان يهروان « أفندم » .

ونظر صلاح إلى بقايا بصل وفئات خبز على مشمع فرش على الأرض .. وقال مستنكرا :

— قلت مائة مرة لا أريد هذه الفوضى في الموقع .

وصاح في لهجة صارمة :

— نظف هذا ..

وأسرع أحد الجندين يرفع بقايا الطعام من فوق المشمع .

ونظرت نعمت إلى الحفرة المربعة لاتضيئها سوى فتحة عريضة ضيقة تبدو منها مياه القناة الزرقاء ورمال الحافة المقابلة للقناة وفي ركن منها استقر جهاز لاسلكى وبضعة صناديق خشبية تستعمل ما بين مقاعد ومناضد ومخازن للأكل وللثياب وفوق أحدها وضع وابور سبرتو وبعض علب صفيح . وفي الركن بدت بضعة مدافع رشاشة وصندوق للدخيرة . وفي جانب الفتحة المطلة على القناة ركب مدفع يطل بفوهته على الشاطئ الآخر .

وعاد صلاح يستحث الجندين لإنهاء ترتيب الموقع بسرعة :

— اعمل لك همة .. منك له .. قلت مائة مرة لا أريد هذا البوظان .

ثم كسا لهجته نبرة الاحترام وهو يستطرد قائلا :

— سيادة النقيب يقول علينا إيه ؟

واختلس الجنديان نظرة إلى سيادة النقيب .. واستطاعا في الضوء الذى تلقيه النافذة الضيقة أن يميزا أى نوع من النقباء قاده إليهم حضرة العريف .

ولم يدركا .. ما الحكاية ..
لماذا يزورهم سيادة النقيب ..
في المستشفى يوجد نقياء مثله ..
ولكن هنا ؟ لماذا ؟
لعله .. يفتش على النظافة والترتيبات الصحية ..
أو لعله سيعطيهم حقنا .. أو سيشرط أذرعهم ..
لكن النقيب لم يفعل شيئا من هذا .. بل أقبل يطل من خلال الفتحة ..
و لم يد على العريف أنه يعد له شيئا من هذا على النقيض لقد صاح بأحدهم :
— أين براد الشاى ؟
إذن فسيادة النقيب أتى ليشرب الشاى .
وأكد هذا شروع صلاح فى إحراءات عمل الشاى .
أوقد وابور السبرتو ..
صب بعض الماء من الزمزية فى البراد الأسود .. ثم رجها فى داخله وقذف بها
بعيدا ..
فى الغالب لا يغسل البراد .. بل يستعمل التفل الباقي .
ولكن من أجل سيادة النقيب .. غسل البراد .. ووضع شايا جديدا . وهو
يتمتع معتذرا ..
— المكان ليس قدر المقام .. ولكن إن شاء الله .. نعوضه بزيارة فى مصر ..
وضع الماء فى البراد .. والبراد على السبرتو .. واستطرد يقول :
— نحن نقطن فى شارع يلغا .. يمكن أن ندخل له من شارع شبرا .. أو من
الترعة البولاقية .. ولكنه أقرب من ناحية الترعة البولاقية .
ترك صلاح البراد واتجه إلى النافذة الضيقة العريضة التى تقف وراءها نعمت
.. وهو يقول لأحد الجنديين :
— أصلح شكاارات الرمل .

وللآخر :

— أكمل تزيت السلاح .

وحولت نعمت بصرها المشدود إلى المياه الزرقاء .. وسألت صلاح :

— هل أعطاكم عن أعمالكم ؟

— مطلقا .. لم يكن أمامي سوى مشوار لورشة الصيانة من أجل استعجال

السلاح الذى بها .. وقد مررت بهم قبل أن ألقاك على البوابة ..

وألقي صلاح نظرة على براد الشاى ثم استطرد يقول :

— يوجد حكمدار مسئول عن كل نقطة .. ومعظم وقتى أقضيه فى المرور مع

سيادة المقدم أو تشهيل أشياء معطلة فى الصيانة أو المهمات .. والأمور لا تتحرك

كما يجب .

ثم ضحك قائلا :

— نحن نستطيع أن نجرى وراء أمورنا هنا .. أما أمورنا فى القاهرة فلا نجد من

يجرى وراءها كما يجب .

وابتسمت نعمت قائلة :

— أنا فى خدمتكم .. وسأبذل كل جهدى .

وعلا صوت غليان المياه فى جوف البراد . فاستدار صلاح ورفع البراد من

فوق السبرتو ومد يده داخل الصناديق فأخرج كويين صغيرين . وعلبة صفيح

.. وأخذ يصب الشاى فى الكويين ويضع السكر ويقلبه .

ومد يده داخل صندوق آخر فأخرج علبة كرتون . ثم وضع كل هذا على

صندوق وجذب صندوقين آخرين . ونظر إلى الجنديين متسائلا :

— تاخذوا شاى ؟

وتتم الجنديان بالشكر وواصلتا عمليهما فى إصلاح شكاثر الرمل وتزيت

السلاح .

وألقي صلاح نظرة رضا على المائدة التى أعدها ثم هتف بنعمت :

— تفضلى .

وقالت نعمت وهى ترى مائدة الصناديق والشاى والقرايش :

— لماذا أتعبت نفسك هكذا ؟

— أنت ضيفتنا .

— أنا أودى واجبى .

ورفع صبحى رأسه عن المدفع الذى يجرى عليه يده بكهنة الزيت مختطفاً نظره إلى سيادة النقيب عله يعرف شيئاً عن واجبه هذا الذى أقبل عليهم لتأديته .
وتناولت نعمت كوب الشاى ورشفت رشفة ثم بادلت صبحى نظره المستفسرة وأدركت حيرة الجندى فأقبلت تسأله :

— كيف حالك يا صبحى ؟

— الحمد لله يا فندم .

— ما هى أخباركم ؟

— رضا يا فندم .

— ألا تشكو من شىء ؟

— أبداً يا فندم .

وأدركت نعمت أن الجندى قد تخيل أنها أتت للتفتيش من قبل القيادة ..
وأدركت أن أجوبته لا بد ستم بالرضا التام .

ورشفت رشفة أخرى وعادت تسأله فى غير كلفة :

— وأسرتك كيف حالها ؟

— بخير يا فندم .

— ألا يحتاجون لشىء ؟

وصمت صبحى برهة .. ينظر إليها فى دهشة ..

ماذا يستطيع سيادة النقيب أن يفعل لأهله .. ولم يستطع أن يقنع نفسه .. إن هذا النقيب يمكن أن يكون .. ذا فائدة .

— أية فائدة — له أو لأهله .

إذا كانت ستعطيهم حقنة .. فلتعطيها وتمشى .. ولا داعي لهذه الأسئلة التي لا معنى لها .

وانطلقت منه إجابة التقليدية :

— أبدا يا فندم .. كله تمام يا فندم .

وضحك صلاح وقال لصبحي :

— اسمع يا صبحي .. سيادة النقيب لا يفتش علينا .. إنه يحاول أن يخدمنا .. قل إذا كانت لديك أية مشاكل في البلد .

ورفع صبحي حاجبه في دهشة .. وبدأ عطوة يترك شكائر الرمل ويصغى إلى الحديث الدائر .

قال صبحي في شيء من السخرية :

— مشاكل ؟! .

ثم صمت للحظة وقال في لهجة يائسة :

— ليس لدينا مشاكل .. لدينا متاعب .

وأرهفت نعمت السمع .. وأقبلت تتساءل في دهشة :

— لماذا .. خير ؟

— ومن أين الخير .. كان أنى فيما مضى ينتظر موسم القطن ليكسينا .. ويسدد القرشين الى استدانهم ويمشى أموره .. والآن أصبح موسم القطن يحل كالقضا المستعجل .

وتساءل صلاح :

— لماذا .. ألا تبيعون القطن ؟

— نبيعه .

— ألا تقبضون ثمنه ؟

— نقبضه .

— ٧٥ —

— إذن أين المتاعب ؟

وهز صبحى رأسه قائلا :

— يا شاويش صلاح .. أنت رجل من البندر .. من شبرا لاتعرف هذه الأشياء .

وابتسمت نعمت وسألت صبحى :

— إذن اشرح لنا .

— نقبض باليمن وندفع بالشمال .. ديون متلتلة .. مقاومة وتطهير .. وخلافه .. الجمعيات التعاونية .. أصبحت كالمرأى . ، لا يحل الموسم إلا وقد خربت بيتنا ..

واحتارت نعمت بماذا تجيب . إن كل معلوماتها عن هذه المسائل مجرد قراءات في الصحف .. وكان آخر ما قرأته عن الصرف المغطى .. وبحسن نية سألت صبحى :

— لقد سمعت أن هناك مشروعا للصرف المغطى سيحسن الأرض ويزيد من المحصول .

وتساءل صبحى :

— صرف مغطى ؟

ثم استدرك قائلا :

— الذى أعرفه أن المصارف عندنا .. مغطاة بورد النيل .. وقدم أبى .. والشيخ زين .. وبقية أهل الناحية عريضة إلى التفتيش لتطهير المصرف .. وفى آخر إجازة لى .. كان المصرف ما زال مغطى .

ولم تعرف نعمت هل يتخابث صبحى .. أو أنه فعلا لا يعرف شيئا عن الصرف المغطى .. ولم تجد بدا من إدارة الحديث إلى ناحية أخرى .. لأنها لاتعرف ماذا يمكن أن يؤديه من خدمات بالنسبة لمشاكل الجمعيات التعاونية .. ومقاومة الآفات .. والرى والصرف .

— ٧٦ —

سألته :

— أنت متزوج ؟

— خاطب فاطمة بنت خالتي ..

— ومتى تتزوجان ؟

— لما أُنْتَهَى من الخدمة ..

ولم تعرف نعمت ماذا تسأله بعد ذلك .

وأنقذها صلاح عندما قال لها :

— نخرج إلى الخارج لتشاهدى القناة والبحر .. ومدافع اليهود .

ووافقت نعمت وتبعته صاعدة إلى الخارج ووقف الاثنان يرقبان الأفق .. المياه والشاطئ والسماء .

أشار صلاح بيده يمينة . وهو يقول :

— هذا جبل عتاقة ؟

ونظرت نعمت إلى جبال ترتفع وتمتد وواصل صلاح حديثه قائلاً وهو يشير إلى بقعة تمتد أمام الجبل :

— وهذه هى الجزيرة الخضراء .

ثم أشار إلى الشاطئ المقابل وهو يتنهد قائلاً :

— وهذا هو شاطئنا الآخر ..

(٥)

حكاية على شاطئ القناة

- تهدت نعمت وهي ترقب الشاطئ الآخر بالسد الرملى يتعالى وراءه وأشياء
تتحرك في أفقه .. وسألت نعمت وهي ترقب الأفق :
- وأنت يا صلاح .. ما هي أحوالك ؟
— الحمد لله .
- قلت إن لديك مشاكل .
- الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه .
- تبدو سعيدا بأداء واجبك في الجبهة ؟
— يعنى ..
- يعنى ماذا ؟
- لقد كان وجودى هنا مصيبة .
- مصيبة على من ؟
- على أمى وعلى أخواتى الصغار .
- لماذا ؟
- كنت عائلهم الوحيد .
- ولكن العائل الوحيد لا يجند .
- المفروض ! ..
- وأنت ؟ .
- كنت فعلا معفى من التجنيد .

— ٧٨ —

- وماذا حدث ؟
- خرج أبى .
- من أين ؟
- من السجن .
- أبوك كان سجيناً ؟
- أجل .. وأعفانى سجنه من التجنيد .
- وماذا حدث ؟
- حل العيد .. وأفرج عنه لحسن السير والسلوك بعد ثلاثة أرباع المدة .
- ولسوء الحظ كان أبى حسن السير والسلوك .. فخرج .
- خير .
- ومن أين الخير .. لقد خرج من السجن .. وجندت أنا .
- ولماذا لا يعول هو الأسرة ؟
- كيف ؟
- يعمل .
- وصحيفة السوابق ؟ .. إنها تسد طريق العمل أمامه .
- يعمل فى القطاع الخاص .
- أتوجد وظائف فى القطاع الخاص ؟ .. ولأصحاب السوابق .. الذين
- تضيق بهم الحكومة والقطاع العام بكل ما تأوى من موظفين .
- ألا تقبل الحكومة أصحاب السوابق ؟
- طبعاً .. إنها فقط توردهم إلى السجون .. ولكنها لا تستعيدهم .
- ولكن .. ألا يمكن أن يعمل أى شئ .. أليس هناك أى سبيل للعمل ؟
- حاولنا أن نفتح له كشك سجائر .
- فكرة جيدة ..
- ولكنها تحتاج إلى رخصة .

— ولماذا لا تحصلون عليها ؟

— حاولنا في المحافظة .

والتفت إلى صندوقين فارغين جذب أحدهما وأعد منه مقعدا وقال لها :

— أتجلسين ؟

وبدا التردد على نعمت وهي تقول :

— غريب أن يكون خروج أبيك مصيبة للأسرة .. ولكن .. لماذا دخل

السجن ؟

— هذه حكاية طويلة .. إذا كان لديك وقت أقصها عليك .. تفضلي .

وجلست نعمت على مقربة من الموقع يمتد أمامها التقاء البحر بالقناة .. ويعلو

في الأفق جبل عتاقة .. تقبع أمامه الجزيرة الخضراء .. وفي المواجهة القرية يبدو

الشاطئ الآخر من القناة .. يتحرك الجنود الإسرائيليون من ورائه .

ومد صلاح يده فجذب الصندوق الآخر واستقر عليه وقبل أن يبدأ الحديث

قالت نعمت شبه معتذرة :

— أرجو ألا يكون سؤالى مزعجا .

ورد صلاح وهو يرقب المياه الزرقاء .. ومن ورائها الشاطئ الآخر :

— هنا لا يبدو شيء مزعجا .. سوى الانتظار دون الثأر .. ودون الأرض ..

عندما ننظر أمامنا يبهت كل ما وراءنا .. يصبح كل شيء .. أطيافا وذكريات .

ثم نظر إليها وتهد قائلا :

— في مثل هذا المكان تتحول الأحداث التي روعتنا ونغصت حياتنا .. إلى

مجرد قصص تروى ..

وصمت صلاح برهة .. ثم استطرد يقول وكأنه يحاول أن يستعيد إلى ذهنه

تفاصيل صورة بهت معالمها ..

— كنت في الإعدادية وقتذاك .. وكنا كما قلت لك نقطن في شارع يلعبا في

شبرا وكان أبى يعمل رقبيا في الجيش .. وكانوا يسمونه وقتذاك حضرة الصول ..

وكان يعمل فى سلاح خدمة الجيش .. أو التعيينات .. بالاسم الشائع وقتذاك .. وكانت حياتنا رخيصة .. لم أذكر أبدا أننا شكونا من ضيق فى العيش .. لست أدرى أكانت الحياة حينذاك أسهل .. وتكاليف الحياة أرخص .. أم أن أى كان يستطيع أن يهبى لنا الرخاء .. بموارد أخرى منظورة .. أم هما الأمران معا .. المهم أن حياتنا بغير شك .. كانت أفضل كثيرا مما يمكن أن تبيته موارد صول .. مجرد صول .. رغم ما تعودته ألسنة الجيران من تسميته بحضرة الضابط .

كان الأكل لدينا بوفرة .. بل لعله كان دائما أكثر مما نحتاج .. بحيث تعودت أمى أن توزع على أخواتها — خالاتى — ما لدينا من مخزون الأرز والعدس والبصل والسمن .. والسكر والشاى .. الذى يحضره أبى فى الشوالات والصفائح . وبالطبع لم يطف بذهنى وقتذاك شىء من الشبهة التى قد تخطر لى الآن بعد أن خدمت فى الجيش .. عن مصادر هذا الخزين الذى كان أبدا يحتفظ به البيت .. كل ما كنت أعرفه أن حياتنا كانت سهلة .. لا أذكر أننا احتجاجنا إلى شىء عجز أبى عن أن يوفره لنا .. ولم تكن بالطبع احتياجات غير عادية .. أمى سيدة طيبة مدبرة .. لا يتعدى عالمها نطاق الأولاد الخمسة .. « ولدين وثلاث بنات .. أنا أكبرهم جميعا » تطعمهم وتلبسهم .. وتحميم كل أسبوع وتدعكهم بالليفة والصابونة جيدا .. وتأخذهم إلى بيت أبىها فى « السيدة » مرة كل أسبوع ليقضوا يوم الجمعة مع جدهم وستهم .. وعندما ماتا الواحد بعد الآخر .. كانت تطلع بهم القرافة .. وتحملهم أسبئة الرحمة والفاكهة ..

وكان أبى يذهب بنا إلى السيينا أحيانا .. سيينا دوللى فى « الشتاء » وسينا شيرا بالاس فى « الصيف » وكان مشوار السيينا أشبه بالرحلة .. نحمل فيها طعامنا .. من السندوتشات .. بحيث لا نشترى من السيينا سوى الكوكاكولا .. اللب كانت أمى تجمعها من البطيخ وتحمصه .. ونأخذها معنا فى كيس إلى السيينا . وأبى رجل طيب .. حتى بعد أن دخل السجن .. وخرج منه .. شكله طيب .. لا تبدو عليه أبدا سمات المساجين .. أعنى المساجين الذين نراهم فى السيينا ..

بنظرات مخيفة وأصداء تتلاعب عظام فكها .. بل هو أبدا .. باسم .. ناعم هادئ ..
 . حتى عندما كانت أمي تطلب منه أن يرينا .. وينهرنا لأننا نتعارك .. ونقلب
 البيت رأسا على عقب .. كان لا يملك ألا أن يقول لنا في لهجة معاتبة « وبعدين »
 أو يتساءل « مزعلين أمكم ليه ليه » .

و ذات يوم نقل أوى إلى الخطوط الأمامية .

جزعت أمي في أول الأمر ..

ولم أتصور أنا .. أن أوى يمكن أن يذهب إلى حيث يقف المحاربون يوما .. وأنا
 أعرف أن أوى — رغم ثيابه العسكرية — لا علاقة له بالحرب . وأن تعامله
 لا يتعدى مجال الطعام . أحاديثه التي تتردد في البيت .. عن متعهد اللحم .. وعن
 الجراية .. (يعنى رغيغ العيش) .. والرز الذى ظهر فيه عجز .. وباللات التبن
 التى لا يجدون لها مكانا فى المخازن ..

كلها أحاديث لا علاقة لها بالحرب ..

ومع ذلك فقد نقل لأن وحدته نقلت إلى هناك ..

وأفزع غيابه عن البيت أمي .. فى أول الأمر .. فهى لم تعود أبدا الحياة بدونه
 .. ولكنها بدأت تعود النمط الجديد لحياتها .. لاسيما وأن غيابه من البيت لم يطل
 فى أية مرة أكثر من أسبوع فقد كان لا يعدم أبدا الوسائل التى يأتى بها إلى مصر ..
 للصرف .. أو لاستكمال الصرف .. أو لاستعجال أوراق .. فى كل أسبوع كان
 له سبب للمجيء .. حتى بدأنا نشعر من جديد أنه معنا .. وكأنا يسافر لإنجاز
 مهمة ثم يعود ..

وفى ذات ليلة .

أذكرها ليلة صيف .. وأمى تجلس على الكنية بجوار النافذة تمشط أختى بهية
 وسميرة تقرأ فى مجلة وثرىا وعلى قد استغرقا فى النوم .

طرق الباب .. قالت لى أمى : افتح ..

قلت لسميرة افتحي . قالت لى سميرة افتح انت . أصررت أنا على أن تفتح هى .

(العمر لحظة)

شتمتنا أُمى .. ودفعت بهية من حجرها وقامت لتفتح هى وبدا فى الباب
الشاويش إبراهيم الذى يعمل مع أُمى ..
قالت أُمى :

— خير يا إبراهيم .. تفضل .

وتردد إبراهيم فى وقفته بالباب قبل أن يدخل .. ثم خطا إلى الداخل .. ووقف
فى منتصف الحجرة تبدو عليه الحيرة .. وتتم قسماته عن الجزع .

وعادت أُمى تتساءل :

— مالك يا إبراهيم ؟ .

— حضرة الصول .

وصمت برهة فصرخت أُمى لتستحثة على النطق .

— ماله ؟

— مسكوه .

ولم تعرف ماذا يعنى « مسكوه » .

فسألت أُمى فى مزيج من الدهشة والجزع .

— مسكوه فىن ؟

— على الحدود .

وواصلت أُمى الأسئلة .. تحاول أن تنزع الحقيقة من شفتى الرجل الذى يقف

بيننا فى فزع وذ هول .

— لماذا ؟

— قالوا إنه يهرب حشيش .

ضربت أُمى يدها على صدرها وصرخت :

— يا مصيبتى ..

ورد إبراهيم يحاول طمأنتها :

— هذا كمين .. عملوه فيه عساكر الحدود .

— ولماذا ؟ .

— لا بد أنهم طلبوا منه أشياء ..

وتساءلت أنا في ذهول :

— أشياء ؟ مثل ماذا ؟ .

— أشياء من غزة .. إن طلباتهم لا تنتهى .. وأعرف أنه دائما يحضر لهم ما

يريدون .

— ولكن لماذا ؟ ..

— حتى لا يضايقونا عند المرور في القنطرة .

— وكيف يضايقونكم ؟ .

— بالتفتيش .

— ولماذا يفتشونكم ؟

وضاقت أُمى بالحوار الغبى الذى بدأ يدور بينى وبين الرجل وصاحت

مقاطعة :

— المهم .. أين عبد القادر ؟

وتردد إبراهيم برهة قبل أن يقول :

— فى السجن ..

وانطلقت صرخة من أُمى أشبه بالصوات التى نسمعه فى المآتم .

واستيقظ النائمان .. الصغيران من إخوتى على صوت الصراخ وهما

يصرخان .

واندفع سكان الشقة المجاورة إلينا .. يتساءلون فى جزع عما حدث .. وقد

ظنوا أن أحدا قد مات ..

ومنذ تلك الليلة .. لم نرأى إلا من وراء قضبان السجن .. أو منقولا فى الطريق

تحت الحراسة فى عربة السجن ..

ووكلت أُمى محاميا .. دفعت إليه بعض ما توفّر لديها من نقود .. وبدأت

تصحبني إلى مكتبه بين آونة وأخرى .. لا أذكر أننا رأينا الرجل نفسه .. فقد كان يجلس وراء باب مغلق .. يجتازه إليه .. عبد الرحيم أفندي كاتب المحامي كهل طيب بشوش .. كان يحسن معاملتنا ويقبل على أمي باهتمام ورقة .
وبدأت زيارتنا لمكتب المحامي تقل .. وأخذ عبد الرحيم أفندي نفسه يزورنا .. بدوسيه الأوراق في يده .. يشرح لأمي .. ويحدثها .. ويطمئنها ..
حتى .. صدر الحكم .. خمس عشرة سنة سجن مع الأشغال الشاقة .
جزعنا بالطبع ..

كان الأمل ما زال يراودنا في البراءة .
كانوا يقولون .. إنه كمين من الحدود .. وإن أمي برىء ..
ومع ذلك فقد صدر الحكم .. ونفذ . وأودع أمي — كما يقولون — غياهب السجن .

روعت أمي .. فقد كان لديها أمل حتى آخر لحظة .. إنه برىء .. وإنه سيفرج عنه ويعود إلينا .

وجلس عبد الرحيم أفندي على الأريكة .. وقد بدا عليه الوجوم .. والدموع تنساب من عيني أمي وهي تقلب كفها في يأس .
كان يخيم على البيت كله .. جو الوفاة .. والعزاء .
كانت أمي تتصرف وكأن أمي قد ماتت .
قال عبد الرحيم أفندي كلاما على سبيل العزاء :
— الصبر طيب يا ست عليّة .

وهزت أمي رأسها في يأس وهي تتمتع ..

— من أين الصبر ؟

— ربنا كريم .

وردت أمي في شروود وكأنها تحدث نفسها :

— إنهم خمسة .. كيف أربيهم .. لم يكن لنا سواه .

ثم رفعت كفها إلى السماء والدموع تنساب من عينيها وتساءلت :
— لماذا يا رب ..

وطيب عبد الرحيم أفندى خاطرها .. وأكد لها أنه في خدمتها .. وألا تتردد في اللجوء إليه عندما تحتاج إلى أى شئ .. ثم ختم حديثه قائلا :
— وإذا لم يضايقك .. أزورك من وقت لآخر .. فلعلى أستطيع أن أساعدك في شئ ..

وتتممت أُمى بكلمات شكر . وانصرف الرجل .
وبدأت تطحننا .. رحي الحاجة .. والمذلة ..
أقسى ما يمكن أن يطحن إنسان في هذه الحياة ..
ولم تكن المسألة تحل بالدعوات والتمنيات الطيبة . كانت تحتاج إلى نقود ..
نقود مستمرة .. لكي نجرى بها حياتنا .. الحد الأدنى من الحياة .
وسحبتنى أُمى وبعض أخواتى .. في مشاوير المذلة في بيوت الإخوة والأقارب ..
والأصدقاء الطيبين .

واستطعنا أن نحصل على جنيه من هنا وجنيه من هناك .. لنجمع حدا أدنى ..
لدخل يمكن أن ندفع به عجلة الحياة ..

ولم تترك البيت .. كان أجره .. بعد التخفيض وتخفيض التخفيض قد وصل إلى ثلاثة جنيهات .. ولم يكن ممكنا أن نجد بيتا يسعنا .. الأم والأولاد الخمسة ..
بأقل من هذا السعر في أى مكان .

وانتقل خالى الأصغر عادل الذى كان يدرس في التوجيهية والذى كان يعيش مع أخيه الأكبر إلى بيتنا ليحل محل رجل البيت .
وبدأنا نعرف مذلة الحاجة .. وقسوة العيش .

الطعام أضحى بقدر .. وحرمت بعض أنواعه كمظهر من مظاهر الترف .
الفطار فول مدمس .. والبيض ممنوع .. والجبن ليس صنفا إضافيا بل هو يشكل وجبة . وبرز العسل الأسود والطحينة .. كنوع أساسى من الطعام .

والفاكهة حرمت . إلا البطيخ صيفا .. والبرتقال شتاء وعندما يدخل التسعيرة ..
وأحيانا ..

وكما حل الضيق بالطعام .. حل بالملبس .. البدل تقلب . وبعض ملابس أوى
القديمة .. تضيق لثلاثتنا . ومع نقود الشهر التى نجمعها من بيوت الأقارب ..
نمنح بعض الثياب القديمة ..

مذلة .. كان علينا أن نختلمها .. ونعتادها .. وإلا جعنا .. وتعربنا .
وحملت على كفى بعضها .. أصحب أوى فى جولتها أول الشهر أحيانا .
وأذهب وحدى أحيانا أخرى .

تلقانى بسمات الترحيب . وكلمات العطف أحيانا ..
ويلقانى التبرم والضيق أحيانا أخرى .

ولكنها كلها مذلة .. البسمة مذلة .. والعبوس مذلة أحملمها على كفى مع النقود
وأعود إلى أوى لأسلمها إليها وأرى فى عينها . حيرة العاجز .. الذى عليه أن يحل
لغزا أول كل شهر .

وضيق العيش .. ومذلة الحاجة .. على قسوتهما محتملة .. ولكن الشىء الذى
لم أكن أحتلمه حقا — رغم أنه بات اليوم مجرد كلمة أنطقها بغير مبالاة — فهو
أنى ابن سجين .. وسجين لا وجه لادعاء الفخر بسبب سجنه .. فهو لم يتهم فى
« قضية سياسية » بل فى مخدرات .

ولست أدرى كيف يعرف الناس خبايانا السيئة .. إن لديهم موهبة خارقة فى
اكتشافها .. ومناقشتها والتمتع بالحديث عنها .. والإضافة إليها .. والمبالغة فيها .
حاولت فى بعض الأحيان . أن أقول أوى قد سافر .. أو حتى قد مات .. ولكن
الجميع — حتى الذين لا أعرفهم ولا أتصور أنهم يعرفوننى — كانوا يعرفون أنى
ابن سجين تهمة تهريب مخدرات .. وكان البعض يحولونها إلى سرقة .. أو إلى
قتل ..

وذهبت أحمّل وإخوتى عبء الحاجة والمذلة .. وسجن أوى .. وكنا نذهب

لزيارته بعض الأحيان .

أحيانا نرى وجهه الدليل اليائس .. البادى الطيبة رغم إطار الإجرام الذى يوضع فيه . وأحيانا نسمع صوته ضمن ضجيج الأصوات التى تتعالى من نوافذ السجن ونحن نقف مع أمى فى الطريق . تحاول أمى أن تدبر حوارا معه يضيع وسط الأحاديث المتشابكة المتبادلة بين الطريق والنوافذ . لتسأله عن الحال ولتطمئنه على الأولاد .

ونجح خالى عادل فى التوجيهية . وسعى له بعض الأقارب فى التوظيف حتى يعيننا . وأحست أمى بعض العبء يرفع عن كاهلها . وبأن جنيتها خالى ستحل محل بعض الجنديات الشهيرة المفقودة بعد أن بدأ أصحاب الإحسان من الأقارب يضيّقون بنا .. وبعد أن بدأت مأساتنا تبرد فى مشاعرهم . وأراحنا مرتب خالى عادل بعض الوقت .. حتى وقع له أمر طيعى .. اعتبرته أمى كارثة .

حضر إليها ذات يوم يقول لها :

— أنا حاخطب .

— تخطب ؟! ..

— أجل .

— من ؟ .

— ليلى .

— ليلى بنت الست .. عديلة ؟

— أجل .

ووجهت أمى .. أحست كان مؤامرة دبّرت ضدها فى الخفاء لتخطف اللقمة

من فمها .

وتساءلت وهى تحاول أن تكبت غيظها :

— وهل اتفقتم على هذا ؟

— ٨٨ —

— أجل .

— منذ متى ؟

ورد عادل كمن ضبط متلبسا بجريمة :

— يعنى .

— والست عديلة تعرف هذا ؟ .

— أظن .

— وأنا وحدى التى لم تعرف ؟

— أنا أقول لك الآن .

— بعد ماذا .. بعد أن طبختوها معا ؟

— طبخنا ماذا .. أليس المفروض أن أتزوج ؟

— تتزوج الآن ؟

— ولم لا ..

وهزت أمى رأسها وأطلقت زفرة يائسة وهى تقول :

— قسمتى ..

وانهمرت الدموع من عينيها وهى تستطرد قائلة :

— منكم لله .. لم أكذب أنفوس .. وأشعر أن هناك من يحمل العبء معى .. حتى

يخطفوك .

— لماذا تقولين هذا .. إنى لن أتركك .. سأبقى معك .

— تبقى معى . بزوجتك وأولادك .

ولم تجد أمى ما تختم به حديثها والدموع تنهمر من مقلتيها سوى أن تكرر

كلمتها التقليدية :

— قسمتى السوداء ..

ثم تدعوه فى مرارة :

— الله يسامحك .

ولم تكذب ظنون أمى .. خطب خالى .. وتزوج .. وطار .
وبقينا وحدنا .. نواصل الاستجداء .. وأعباء الحياة تتناقل وإحساس الأهل
بمأساتنا مع الزمن .. أصبح أقرب الأقرباء — إخوة أمى — يضيّقون بنا .. أحسوا
أن لديهم من المشاكل ما يكفيهم . وأن علينا أن نحمل عبء مشكلاتنا .
الرجل الذى لم يرخ الزمن حبال ارتباطه بنا وإقباله علينا هو عبد الرحيم أفندى
.. كاتب المحامى .

لقد ازداد إقباله علينا مع الأيام .
وانخذ اهتمامه بنا . شكلا عمليا .. فيما يحمله إلينا .. من هدايا .. أطعمة أحيانا
.. وأشياء تلزم للبيت أحيانا أخرى ..
وكان الرجل كهلا بady الطيبة . بady الرقة .
ولم أشعر مرة واحدة .. أنه خرج عن حدوده .. لفظا أو فعلا ومع ذلك فلم
نسلم من لغط أثارته علاقته بنا . وإقباله علينا .. والهدايا التى يحملها إلينا .

تساءل الجيران :

— أهو قريب لهم ؟

وعندما عرفوا أنه . كاتب المحامى . بدأ اللغط .. وبدأت الشائعات ..

قالت جارتنا لأمى :

— الناس بدأوا يتكلمون ..

— عن ماذا ؟

— عن عبد الرحيم أفندى .

— ماله عبد الرحيم أفندى ؟

— لماذا يكثر من زيارتكم ؟

— رجل فيه الخير .

— لا يا ست علىة .. إنه رجل غريب . وأنت سيدة وأم أولاد . وليس فى

بيتكم رجل .. وخروجه ودخوله عليكم . ليس أمرا مقبولا .

— وماذا أفعل ؟

— لحى له بأن يخف رجله .

— إنه رجل طيب رحيم .

— الباب الذى يأتى لك منه الريح .. سده واستريح ..

وانصرفت الجارة ..

وسمعت أمى تتمم :

— لا ترحمون .. ولا تدعون رحمة ربنا تنزل ..

وأطلقت زفرة أسى واستطردت تقول :

— ألاقها منين والامنين .

وزاد اللفظ .. وكثرت الشائعات .

وبدأ عبد الرحيم أفندى .. يشكل لى شبها مخيفا .

باختصار .. ورغم أنى لم أجد أمامى ما يمكن أن أؤاخذه عليه .. وأن تصرفه

كان سليما مائة فى المائة .

وأنه كان يحنو علينا . كأبناء .. ويعطف على أمى .. كأخت .

إلا أن الشائعات التى أمسكت بتلابيبه .. وضعت فى صورة عشيق لأمى ..

وجعلت منه عبئا آخر على كتفى ..

زادت أعباء الحياة هما جديدا .

الحاجة والمذلة .. وسجن أبى . وعشيق أمى .

وحاولت أن أصمت وأن أحتمل .. فأنا أعرف حاجتنا المذلة إلى أى شىء يرفع

عنا وطأة العيش .. وأعرف ما يقدمه إلينا الرجل بما يرفع به عن أمى بعض العبء

. وأعرف أنه لم يفعل — على الأقل أمامى — ما يجعلنى أحس له بكل هذه المشاعر

من الضيق والسخط . بل والبغض والكراهية .

لم أكن أنقص مذله . ، حتى يأتى ، بحق أو بوهم ليضع على كاهلى مذلة

عشيق الأم ..

وكان على أن أواجه الأمر .. أو أقدم على الخلاص من الحياة .
قلت لأُمى ذات مساء والكتاب أمامى يشرد بصرى بين سطورهِ .. أرى
الحروف ولا أعى . وهى تمسك بإبرة وخيط لترتق بعض الثياب والإخوة قد أروا
إلى قُرشهم .

— كنت أود أن أحدثك فى مسألة ..
ورفعت رأسها وبدا فى نظرتها توقع لما أنوى أن أقول .. ولكنها تصنعت
الدهشة وساءلت :

- أية مسألة ؟ .
- عبد الرحيم أفندى ؟ .
- ماله عبد الرحيم أفندى ؟ .
- كثر كلام الناس عليه .
- ماذا يقولون ؟ ..
- يقولون كلاما سخيفا .
- ومالنا وللناس . إنه الوحيد الذى يسأل علينا .
- ومن أجل هذا يتكلمون .
- الناس كلاب .. يأبون أن يدعونا فى حالنا .. لم يعد أحد يسأل عنا . حتى
إخوتى .. لم يعد هناك من يقف بجوارنا سوى هذا الرجل الطيب .
- الناس يقولون إنه ليس قرينا .
- إنه خير من القريب .
- خير من القريب فى نظرك ولكنه غريب أمام الناس ..
- لقد حملت عيكم وحدى .. فليتركنى الناس فى حالى .
- ولكنهم لا يفعلون .. إنهم ينهشوننا بألستهم .
- لا يهمنى .
- ولكن يهمنى أنا .. أنا ألقاهم وأسمع حديثهم .. وشائعاتهم .. وفى كل يوم

ألتقى منهم سهما في صدرى .
وتنهدت أُمى . ثم تركت الثوب من يدها ورفعت عينيها إلى وتساءلت :
— وماذا تريدنى أن أفعل ؟
— نمنعه من زيارتنا .
— أبعد كل ما فعله من أجلنا .. أطرده ؟
— من أجل سمعتنا
— وكيف أحمل عبئكم وحدى .. إنه يساعدنا .
— ولماذا يساعدنا ؟
— لأنه رجل طيب .
— ليس فى هذه الدنيا أناس طيبون . والناس لا يصدقون أنه يساعدنا الله .
الناس يعرفون أنه عشيقك .
وازدردت أُمى ريقها وردت فى صوت جريح :
— اخفض صوتك .. حتى لا يسمعك إخوتك .
ومنذ تلك الليلة لم يعد الرجل يزورنا .
كانت أُمى تخرج أحيانا . ولم أعرف أين كانت تذهب .. ربما كانت تلقاه فى مكان ما ..
لم أرد أن أفكر .. كان لدى من المذلة ما يكفينى .. وكنت أحس أن على أن أقوم أنا بدور العائل فى أسرتى .. وأن أعفى أُمى من كل هذا الاستجداء .
وكنت قد التحقت بمدرسة التجارة المتوسطة ووصلت إلى السنة الأخيرة .
واجترت الامتحان النهائى .. وأصبح فى يدى شهادة .. ولم يصعب على أن ألتحق بوظيفة .
أصبحت رجلا .. موظفا .
وأنى ما زال فى السجن .
فرحت أُمى بالجنيهاات التى أعطيتها إياها أول مرة : ضمنتى إليها والدموع

تترقق في عينها .
واستغنيا عن الاستجداء الشهري .. الذى أخذ يتضاءل مع الزمن .. حتى
استقر على بضعة جنيهات .
ولم أكتف بالمرتب .
بدأت اكتسب خبرة فى الآلة الكاتبة .
وعملت فى مكتب خاص .. استطعت أن أحصل منه على ضعف مرتبى .
وأعطيت دروسا خصوصية .
وبدأت أجمع فى آخر الشهر مبلغا محترما .. كنت أسدد به كل مطالبنا ..
وحولت به مجرى حياتنا . رفعت قيد الحرمان وحطمت قضبان الحاجة والمذلة ..
ومنحت إخوتى كل ما يريدون .
وطلبت فى التجنيد .
ولكنى كنت عائل الأسرة الوحيد . لأن أبى فى السجن .
ولم يعد أبى السجن يشكّل سبة لنا .. أو عارا علينا .. بهت صورته من حياتنا
.. نسيه الناس .. وكدنا نحن أن ننساه ..
عشر سنوات كانت كافية .. لجعله على هامش الأسرة وفى ذات عيد ..
علمنا أنه صدر أمر بالإفراج عن المساجين الذين أمضوا ثلاثة أرباع المدة ..
وكان أبى من بينهم ..
وأخيرا حضر إلى البيت ..
كان شيئا آخر ..
لم يكن هو صاحب البيت .
كان رجلا غريبا .. تملّوه المذلة وثقله المسكنة .
وتلقيناه بفرحة .. بالطبع .
كانت نعمة أن يعود إلينا .
حتى عرفنا .. أن على أن أذهب إلى التجنيد وأن الأسرة ستفقد كل دخلها ..

وأنها ستعود مرة أخرى إلى الاستجداء .
 ولم يكن هناك مفر من مواجهة الأمر بكل ما فيه من سخرية ..
 لم نكن نستطيع بالطبع أن نعيده إلى السجن ..
 كان على أن أذهب إلى الجيش .
 وكان عليه أن يبقى ليبحث عن عمل لا أمل فيه . ليعول به الأسرة أو على
 الأصح .. ليلقى بها إلى هوة الحاجة والمذلة .. مرة أخرى .
 وكما قلت .. سدت كل السبل أمامه . بسبب صحيفة السوابق . ولم يبق أمامنا
 .. سوى كشك السجائر والكوكاكولا . وبدأت المحاولة الفاشلة في الحصول على
 ترخيص به من المحافظة .

(٦)

حالة انهيار

صمت صلاح ، لم ينظر إلى نعمت ، بل أخذ يتطلع إلى المياه الزرقاء ..
وبدت نعمت مشدوهة .. وهى تواجه كل ما أخرجه هذا الإنسان البادى
الرضا الباسم الثغر من خبايا صدره .
وأخرجت زفرة طويلة ثم قالت بهدوء محاولة أن تخفى انفعالها :
— لا أعتقد أن ترخيص كشك السجائر مستحيل .
— بالنسبة لى .. بات مستحيلا .
— أعدك أن أبذل جهدى ، بل سأحاول بكل طريقة ، أن أجد عملا ما ..
إن حقلك على المجتمع ، الذى تقف للدفاع عنه أن يهيب لأسرتك عائلا . تواصل
العيش الكريم فى ظله ..
ووقفت نعمت .
كان عليها أن تواصل المرور على المواقع ، ولكن نظرة إلى الساعة فى معصمها
أنبأتها أن نصف النهار قد انقضى فى نقطة المراقبة وأن عليها أن تعود إلى المستشفى .
ونفض صلاح وقد ارتسمت على شفثيه ابتسامة عريضة .. وكأنه لم يفرغ
منذ لحظات . من نبش رفات ذكريات مريرة مليئة بالمذلة والأسى .
قال معتذرا :
— وددت لو كان لدينا شيء يستحق أن أدعوك عليه للغداء .
— يسعدنى أن أتناول معكم أى شيء .. وكما يقول المثل بصلة المحب خروف
لكن لا بد أن أعود إلى المستشفى .

— أعود بك فوراً .. آسف إن كنت قد عطلتك ، أو أثقلت عليك بكلام لا يهملك .

— كل ما قلت يهمننا جميعاً ، نحن أسرة واحدة ، وسأحاول أن أفعل من أجلك ما أفعله لأخي ، وأرجو أن أوفق .

— حتى إذا لم توفقي ، يكفي أنك استمعت إلي .
— لقد أحسست بكل ما قلت ، كأنه مأساتي ، وإن كنت كرهت أن أثير لك أحزانا قديمة .

— لقد أرحتني ..

واستطرد وهو يتبعها إلى العربة :

— لقد باتت متاعبنا جزءاً منا ، نحملها على أكتافنا دون أن نشعر ، وإن كان يحلو لنا أحياناً أن نحملها للغير لنستريح من عنائها لحظة .

وجلست نعمت على المقعد بجواره وقالت بلهجة ملؤها التفاؤل :

— لا تحملهما ، سيجد أبوك عملاً لائقاً إن شاء الله .. وسأذهب لزيارة

والدتك عندما أعود إلى القاهرة ، إذا سمحت لي ..

وكست وجهه الفرحة والتفت إليها متسائلاً :

— أحقاً ستفعلين ؟

— طبعاً .. سأذهب لأطمئن عليهم وأطمئنهم عليك .

— ستفرح بك كثيراً .. سترين الأولاد والبنات ، سيعجبونك كثيراً .

وغامت على وجهه فجأة سحابة هم واستطرد يقول وكأنه يتحدث نفسه :

— أرجو ألا يكون هناك ما يضايقهم .. لقد كنت أحاول دائماً ، أن ألبى كل

حاجاتهم ، كنت أريد أن أجنبهم مذلة الحاجة التي عانيتها في طفولتي .

— لا تشغل بالك بهم ، إن أباك بينهم .. وسيجد عملاً إن شاء الله .

وانطلق بالعربة في الطريق المليء بالمطبات بين الأنقاض وفجوات القنابل وهو

يتمتم قائلاً :

— أبى لم يعد أبى .. لقد أصبح شيئاً آخر ، أصبح غريباً فى البيت ، يتحرك بيننا فى خوف وكأنه يخشانا جميعاً ، لقد هذه السجن ، حطمه روحاً وجسداً .. غيره مبنى ومعنى ، لقد عاد إلينا بغير شكله وبغير ذاته .. ابيض رأسه ، وضمر جسده ، وملأت التجاعيد وجهه ، لا يبدو فى عمره أبداً وكأن السنين العشر التى مرت به فى السجن ، مائة عام ..

— لا تقلق عليه ، سيستعيد صحته مع الوقت .

— ليست فقط صحته ، لقد فقد ذاته ، لم يعد يشعر بأنه رب هذه الأسرة ، وبأن له حق القيادة عليها ، بل لقد رسب فى نفسه إحساس ، أنه مذنب . لم يكفر السجن عن ذنبه .. بل خرج منه إليهم بذنب أكبر .. وهو حرمانهم من عائلهم .. لقد كنت أحس من نظراته دائماً .. وكأنه يعتذر عن وجوده ..

ولم تعرف نعمت كيف تجيب ..

أمسكت بيدها المقعد ، حتى لا تقذف بها المطبات خارج العربة ..

وهذا صلاح من سرعته وهو يتمم :

— آسف .. لى سائق ردىء ..

وضحكت نعمت وهى تقول :

— أنت عصبى .. اهدأ .

وأطلق صلاح ضحكة قصيرة من أنفه وقال :

— أنا هادئ ، و .. ولكن عندما أذكر الأولاد .

— قلت لك لا تحمل همهم . سأذهب إليهم ، وسأعتبرهم إخوتى .

— الله بخليك .. أنت أميرة ، لقد صدق سيادة المقدم فى كل ما قاله عنك .

وتساءلت فى شيء من الدهشة :

— المقدم !؟ .. وماذا قال على سيادة المقدم ؟

— قال إنك رجل .

وضحكت نعمت .. وردت فى سخرية :

(العمر لحظة)

— هكذا .. ؟

— إى والله .

— ويعتبر هذا مديحا ؟

وتمم صلاح فى شبه اعتذار :

— تعودنا أن نصف الإنسان الشهم الجاد .. بالرجولة .

.. والمرأة .. عكس ذلك .

— طبعا لا .. ولكنها عادة .

— عادة سخيقة .

— معك حق ، فلست أظن هناك علاقة بين الشهامة .. والجنس . إن هناك

سيدات أرجل من الرجال ..

وضحكت قائلة :

— عدت تستعمل كلمة أرجل ..

— آسف ، أقصد أكثر شهامة ، على أية حال لقد قصد سيادة المقدم أن

يمتدحك ، إنه يقدرك كثيرا ..

وردت نعمت بضحكة ساخرة :

— كتر خير ، وإن كان لم يتصرف معى بما يعبر عن هذا التقدير .

— كيف ؟

وأحست نعمت أن من الخير للفتى أن يعرف تعليمات قائده ، حتى لا يتورط

أمامه بالاعتراف بمخالفتها .

قالت :

— هل تعرف أن الأوامر التى صدرت بمنع من دخول المعسكر ، هو

صاحبها ؟

— غير معقول .

— هذا ما حدث .

— ولكن لماذا ؟ .

— ربما لأنه لم يشعر أنى لدى الرجولة الكافية للدخول للمعسكر ..

— لا أستطيع أن أصدق ، إنه لا يسعده شيء كوجودك معنا ، إلى لم أراه متهللاً كما رأيته عندما أتيت إلينا .

— على أية حال ، لا تقل له إنك السبب في دخولى .

— بل سأقول له .. إن وجودك بيننا حيوى .. كالشأى والسجائر .

وضحكت نعمت قائلة :

— هذا أول تقدير أسمع من نوعه .

— ألا تعرفين أهمية السجائر هنا .. إنها أهم من الطعام عندما يتأخر تعيين السجائر .. تسود حالة قلق بين العساكر .

وعبرت العربة البوابة .

وردت نعمت تحية الحارس وهى تقول :

— لقد كان مصرا على منعى من الدخول .

— غبى .

— لقد كان ينفذ الأوامر .

— سأرجو سيادة المقدم أن يلغى هذه الأوامر ، إننا حقيقة فى حاجة إليك ،

إن مشاكلنا وراء الجبهة ، تقلقنا أكثر ، أما فى الأمام ، فلا نحتاج إلا لمجرد أمر ، بالتقدم ، ولا يعود لدينا مشكلة .

— أترى الأمر بهذه السهولة ؟

— بالنسبة لنا .. أجل .

وتنهدت نعمت وتساءلت فيما يشبه الهمس :

— وأرواحكم ؟

— هنا لا نفكر فى أرواحنا ، إن عمرنا هنا ، لحظة ، نكسبه فيها ، أو نفقده .

وفكرت نعمت برهة فيما قال الفتى ..

— ١٠٠ —

وتتمت هامة :

— نحن كذلك دائما ، هنا ، وفي أى مكان « قد يهون العمر إلا لحظة » .

وردد صلاح يتم بقية البيت ..

— وتهون الأرض إلا موضعا ..

وصمت برهة ثم استطرد يقول فى صوت خافت :

— ويظل هذا الموضع أمانا لا نعرف قدره ، حتى تطأه قدم غريب ، فيصبح

أعز ما فى الوجود .

وجاوزت العربية نقطة الحراسة الثانية .

وقالت نعمت متضحكة :

— هذا الجندى لم يمنعنى من الدخول .

— لم تكن الأوامر قد وصلته بعد .

— لعلها قد وصلته الآن .. ولن أستطيع فى المرة القادمة أن أعبر حتى من

هنا ..

— بل ستعبرين من أى مكان ، ما زال لدينا الكثير مما نود أن نقوله لك . إن

مشاكلنا كثيرة .

وتساءلت ضاحكة :

— أما زال لديك أنت مشاكل أخرى ؟

وهز صلاح رأسه قائلا :

— يعنى ؟!

— يعنى ماذا ؟

— مشكلة مزمنة ، أعتقد أنها أصبحت الآن غير ذات موضوع .

— ما هى ؟

— مشكلة البحث عن سكن .

— ولكن ألم تقل لى إن لديكم مسكنا مريحا معقولا فى شبرا ؟

— ١٠١ —

— إن الأولاد يكبرون .. وكنا نحشر الأولاد والبنات كلهم في حجرة واحدة .. ولكنهم كبروا ، وضاق البيت بهم .. وكان لدى مشروع زواج ..
وتساءلت نعمت في شيء من الدهشة :
— ولكنك لم تخبرني بشيء عنه .
— إنه مجرد مشروع ، مع وقف التنفيذ .. ككل مشروعات الزواج في جيلنا هذا ..

— كيف ؟
— نحتاج لسكن .
— ألا يتسع بيتكم الحالي له ؟ .
— طبعا لا ، إن البيت يكاد يكفى الأولاد .
— وأمك تعرف ؟
— قلت لها عنه من البداية .
— هل ضاقت به ؟ .
— بالعكس ..
— ألم يزعجها .. كما أزعجها زواج خالك ؟
— كان الحال يختلف ، كنا في يسر ، لقد كان دخلي من الوظيفة ، ومن العمل في مكتب الآلة الكاتبة ، ومن الدروس الخصوصية ، يفيض عن حاجتنا .. حتى لقد بدأت أمي توفر مما أعطيه لها .. وكذلك فعلت أنا . ولقد لمحت لها ذات مرة أحاول أن أجس نبضها .. فأحسست منها فرحة . وتشجيعا ، كل ما كان يهمها هو أن تكون على حد قوليها « بنت حلال » تأمن على في جوارها ..
وابتسمت نعمت وتساءلت في مزاح :

— وهل كانت كذلك ؟

— جدا .

— كيف عرفتها ؟

— ١٠٢ —

- زميلة في العمل ، رقيقة كالنسمة ، وضاعة كالفجر .
- نتحدث كشاعر .. أنت شاعر ..
- أحب قراءة الشعر .. وأطرب لسماعه .
- عجيبة ؟
- لماذا ؟
- ظننت الحياة جرفتك في مجاريها انسفلى وقد عاملتك بمثل هذه القسوة .
- الحياة لا تجرف أرواحنا أبدا .
- لنعد إلى صاحبك الرقيقة الوضاء .. هل جمع الحب بينكما ؟
- طبعا ..
- وكيف ؟
- وضحك صلاح وأجاب :
- كما يجمع بين الناس .
- وصمت برهة ثم تساءل في تردد :
- ألم تجربيه ؟؟
- وتنهدت ثم أجابت :
- يعنى ؟!
- ماذا تعنى يعنى ؟!
- من منا لم يجربه ؟
- ثم أدارت مجرى الحديث بسرعة متسائلة :
- المهم .. إلام انتهى مشروعك ؟
- كل شيء سار على خير ما يرام ، ورأتها أسمى وفرحت بها ، وزرنا بيتهم في شارع خيرت ، وارتاحت أسمى إلى أسرتها .. وتمت الخطبة .
- جميل .
- وبدأت المشكلة المزمنة ، مشكلة البحث عن مسكن .

— ألم يكن من الممكن أن تعيشا مع أسرتهما .
 — يتهم لا يتميز عن بيتنا ، سبعة أولاد وبنات مكتظون في الحجرات
 كالسردين .. بيوتنا لا تكاد تكفى من فيها .. فكيف تطلب منها أن تأوى
 عروسين .

— مشكلة حقا .
 — ونحن نخطط لبيت .. ولأولاد مقبلين .. ولا نكاد نجد حجرة لشخصينا .
 — وماذا فعلت ؟

— كما يفعل غيرى ، مجرد خطبة ، مشروع زواج مع وقف التنفيذ ، ودأب
 متواصل من أجل الحصول على مسكن ، حتى خرج أبى . وجندت ، وبرزت
 مشكلة أكبر هى أن نعيش .. نواصل العيش دون أن ينهار هيكل الحياة الذى
 استطعت أن أشده ليظل الأسرة ، لقد نحيت المشكلة الصغرى جانبا . لم تعد
 مشكلتى البحث عن مسكن .. فقد ضمير فى نفسى إحساس بحق الزواج ،
 وإنشاء أسرة جديدة .. وأنا لا أعرف كيف أعول الأسرة الأصلية ، بل وبات
 الزواج أمرا غير معقول ، وأنا هنا أفضى جل عمري ، إلى وقت غير محدود .. فلا
 أكاد أذهب لألقاها إلا مرة خلال إجازتى الشهرية .

وصمت صلاح برهة ثم قال باسم :
 — وهكذا سأجنبك المشكلة الصغرى .. من أجل المشكلة الكبرى لم أعد فى
 حاجة إلى مسكن .. بقدر حاجتى إلى كشك سجاثر .
 وتحولت ابتسامة إلى ضحكة أشبه بالقهقهة .

ولم تجد نعمت ما تقوله سوى الدعوات .. فتمتت قائلة :
 — أسأل الله أن ينصرنا .. ويعيدك وإخوانك سالمين إلى بيوتكم ..
 وقال صلاح ضاحكا :

— بينى وبينك .. هنا أريح .. مشاكلنا هنا بسيطة .. السجاثر قد تتأخر
 أحيانا ، ولكنها تأتى ، الصيانة قد تؤخر إصلاح العربات ، أو السلاح ، ولكن

الملاحقة بالشكوى ، تعجل تسليمها إلينا .. الأمور تسير ، وكأقلت لك لا يبقى
أماننا سوى إشارة .. ونتحرك لنؤدى واجبنا . ونفعل ما يجب فعله .. ولا يبقى
لدنيا ما نقدمه سوى أرواحنا .. وهى — بينى وبينك أيضا — لا تشغل من فكرنا
الكثير .. فمصيرها ، يحدده مسار طلبة .. أو شظية يحولها القدر أئمة ، بمنة .. أو
يسرة لتخطف الروح أو تبقيها .. ويصبح عمرنا ، كأقلت لك ، لحظة ، هى أوج
العمر أو نهايته .

ومرة أخرى انطلقت من شفتيه فقهة ساخرة .. وهو يستطرد قائلا :
— لحظة تفرض علينا .. البقاء .. أو .. الاستشهاد ، نحن لا نستشهد برغبتنا
.. إنه قدر ، يفرضه علينا ، مسار شظية أو طلبة لتعبرنا .. أو تستقر فى أجسادنا
.. لتجعلنا إما أناسا عاديين ، مجرد جنود عائدين من معركة .. أو تضعنا فى سجل
التاريخ أبطالا !!

وصمتت نعمت وهو يسأئلهما :

— أليس كذلك ؟

لم تعرف بماذا تجيب .

وقبل أن تقول شيئا . بدا جندى فى الطريق يلوح للعربة ..
ضغط صلاح على الفرامل ، وانقشع الغبار الذى أثارته العربة ليبدو جندى
أسمر طويلا نحىلا وهو يقترب من العربة .

وميزه صلاح وسأله فى شيء من الدهشة :

— ما الذى أحضرك إلى هنا يا عبد العزيز ؟

— أريد الذهاب إلى المستشفى .

— ألم تذهب فى الصباح ؟

— أجل ..

— وكشفوا عليك ؟

— أجل ..

— ١٠٥ —

- وماذا قالوا لك ؟
ورد العسكرى فى تبرم :
— قالوا إنه ليس بى شىء .
— إذن فلماذا تذهب ثانية ؟
— لأنى متعب .
— ولكنهم قالوا لك إنك ليس بك شىء ..
— ولكنى أحس أننى متعب .
— اركب .
— وركب عبد العزيز فى المقعد الخلفى .
وعاد صلاح يسأله .
— ماذا بك ؟
— أنا تعبان ..
— تعبان .. من ماذا ؟
— لا أستطيع البقاء فى الموقع .
— وماذا تريد ؟
— أريد النزول .
ونظر إليه صلاح وتساءل فى دهشة :
— ألم تأت من الإجازة منذ بضعة أيام ؟
— أجل .
— وماذا تريد إذن ؟
ورد عبد العزيز فى عصبية شديدة :
— أريد النزول .
ونهره صلاح بعنف قائلا :
— أجننت .. أتظنها فوضى ؟

وكانت العربية قد اقتربت من المستشفى وهدأت لتقف بالباب .
ونزلت نعمت وصلاح ليودعها .. وهم عبد العزيز بالنزول .. لكن صلاح
نهره قائلا :

— اجلس كما أنت ..

وتدخلت نعمت قائلة في حزم :

— دعه يا صلاح .

— ولكن ليس به شيء ..

— سنرى ما به .

— إنه يتدلع ..

— دعه لي ..

— حاضر ..

ثم نظر إلى العسكري وقال في لهجة صارمة :

— إذا لم يكن بك شيء .. ستعود .

وأجاب عبد العزيز في إصرار :

— سأنزل ..

— ستسجن .. خذ بالك جيدا .. لا تودى نفسك في داهية .

وتدخلت نعمت قائلة :

— دعه لي يا صلاح .. أنا مسئولة عنه .

ووقف صلاح منتصب القامة يؤدي التحية العسكرية وهو يقول :

— أمرك يا أفندم .

ثم مد يده ليصافح اليد الممدودة إليه وهزها في انفعال وهو يقول :

— متشكرا يا أفندم .. متشكرا جدا .

— لا تقلق بالك بشيء .. سأفعل كل ما أستطيع .. وأرجو أن أوفق .

— ألف شكر .. مع السلامة يا أفندم .

— ١٠٧ —

— الله يسلمك .

وعبرت نعمت باب المستشفى وهى تشير إلى عبد العزيز أن يتبعها قائلة :

— تعال ..

ورد عبد العزيز عليها بعصبية وأصرار :

— أريد أن أنزل .

وردت عليه نعمت بهدوء :

— ستنزل .. ستأخذ كل ما تريد .. فقط اهدأ .

وصعدت نعمت بضع درجات مفضية إلى الباب وهى تسأل عبد العزيز :

— أكنت هنا فى الصباح ؟

— أجل ..

— ومن كشف عليك ؟

— الدكتور السمين .

— وماذا قال لك ؟

— قال لى ليس بك شىء .. ولكنى أريد أن أنزل .. وإن تدعونى أنزل ..

سأهرب .. وأسير حتى القاهرة .

— لا داعى لكل هذا . سأحصل لك على إذن بالنزول .. ولكنى أريدك أن

تستريح وتهدأ .

وانتهجت نعمت إلى حجرة الطبيب النوبتجى ..

وخرج إليها النقيب رشاد مرحبا :

— أهلا نعمت .. أين كنت ؟

— كنت فى المواقع .

— كان هنا من يسأل عنك ؟

— من ؟

— المقدم محمود عبد الله .

— ١٠٨ —

— متى ؟

— منذ لحظات .

— وأين هو ؟

— كان هنا الآن .. واتجه إلى الميس .

وأحست نعمت بضربات قلبها تتلاحق . وتمنت لو استطاعت أن تدور لتلاحق به قبل أن يغادر المستشفى . ولكن كان عليها أن تنتهي من أمر عبد العزيز ولو مؤقتا .

والتفتت إلى رشاد وهي تشير إلى عبد العزيز وقالت في صوت حاولت أن تكسبه ما استطاعت من هدوء :

— أرجو أن تدخل المستشفى ..

— ماذا به ؟

ورد عبد العزيز .. بحدة :

— أريد النزول ..

ونظر إليه رشاد في غضب وتحد .. ولكن نعمت نظرت إليه نظرة ذات معنى ثم قالت لعبد العزيز :

— قلت لك ستنزول يا عبد العزيز .. ولكنى أريدك أن تستريح قليلا .. حتى نتحدث معا ..

وزفر عبد العزيز زفرة ضيق ثم قال :

— حاضر ..

وأشار رشاد إلى أحد الممرضين قائلا .

— اكتب له أورنيك عيادة .. وأدخله المستشفى .

وقالت نعمت وهي تربت على كتف عبد العزيز :

— ادخل يا عبد العزيز واسترح .. حتى أعود إليك ..

وتساءل عبد العزيز في لهجة متوسلة :

— ١٠٩ —

- وهل سأنزل ؟
- أجل .. لقد وعدتك بذلك .. فلا تقلق .
- ووجهت نعمت الحديث إلى الجندي المريض قائلة :
- دعوه يستريح حتى آتى له .
- حاضر يا فندم .
- وسار المريض يتبعه عبد العزيز .
- وسألت نعمت رشاد :
- منذ متى سأل عني المقدم محمود عبد الله ؟
- حالا .. من بضع دقائق .
- إذن سأذهب للحقاق به .. ثم أعود إليكم .. خذ بالك من العسكرى .. لا تدع أحدا يسيء معاملته .
- لا تقلقى عليه سأرشاه بنفسى .
- واتجهت نعمت في المر المؤدى إلى مبنى الميس في خطى مسرعة محاولة للحقاق بمحمود قبل أن يغادر الميس .. وقبل أن تعبر باب العيادة .. وجدت محمود يخرج من باب الميس ولم يكدر أراها حتى هتف بها :
- غير معقول .. لقد دخت في البحث عنك .. أين كنت ؟
- وببساطة أجابته :
- كنت في المواقع ؟ .
- وتساءل غير مصدق :
- أى مواقع .. ؟
- المواقع الإسرائيلية .
- تكلمى جد ..
- ماذا أقول لك .. كنت في مواقعنا .
- غير معقول ؟

— ١١٠ —

— لماذا ؟ ..

— لأنه .. لأنى ..

— لأنك أعطيت أوامر بعدم دخولى ..

ونظر إليها محمود وعلى شفثيه شبح ابتسامة دون أن يجيب وعادت تسأله

قائلة :

— ألم تفعل ؟

— أجل ..

— لماذا ؟ .

— لأنى لأريد أن تتعرضى لتجربة أخرى .

— أنا مسئولة عن نفسى ..

— وأنا مسئول عنك .

— لا دخل لك بى .

— كيف ؟ ..

— أنت مسئول عن قواتك . وأنا لا أتبعك .

— أنا مسئول عنك أمام نفسى .. أنت أهم شىء عندى فى هذا الوجود ..

— كف عن هذا الكلام . فنحن فى مكان عام .

— إذن نذهب إلى مكان خاص .

— بل ستفضل وترينى عرض أكتافك .

— اهدنى .. ولا تكونى عنيدة .. ألك جدة تركية ؟

— هذا ليس شأنك .

— إذن نتحدث على رواقه .. نتفاهم .

— ليس بيننا تفاهم مرطتنى أمام الجنود .

— كيف ؟

— منعنى عسكرى الحراسة من الدخول .

— ١١١ —

- إذن فكيف دخلت ؟
— أنقذنى صلاح ..
— هو الذى أدخلك ؟ .
— أجل ..
— سأخرب بيته .
— إياك أن تمسه بأذى .. لقد أدهشه أن يجد العسكرى يمنى من الدخول .
وأحس أنك ستغضب من هذا الجرم .. ولم يعرف أنك صاحبه .
وضحك محمود ثم قال فى رفق :
— أنا أخشى عليك ..
— لا أريد شفقتك السخيفة . التى تضعنى موضع الهزاء .
— أنا آسف . وأعتذر .. ولكن دعينى أرافقك فى جولاتك ؟ ..
— غير معقول .
— لماذا ؟
— سنجعل الجبهة كلها تتحدث عنى وعنك .
— ينفلقم .. أنا لا يهمنى .
— ولكن يهمنى أنا .
— أمرك .. سأفعل كل ما تريد .
ونظرت نعمت إليه وبدأت الابتسامة ترسم على شفتيها .
وضحك محمود ثم قال :
— أجل .. هكذا .. ليس هناك على الأرض أجهل من ابتسامتك ..
— وبعدين ؟ ..
— متأسف .
— والآن ماذا تريد ؟
— أريد أن تدعينى للغداء ..

- الميس تحت أمرك .
- أريد دعوة خاصة ..
- ولكن لدى الآن عملا .
- أين ؟ ..
- هنا في المستشفى .
- من أى نوع ؟
- عسكري في حالة انهيار عصبي .. ويريد النزول .
- اتركه لي ..
- ماذا ستفعل به ؟
- سأكتب له أورنيك ذنب .. وأحكم عليه بالسجن .
- غير معقول .. ليس هكذا يعامل البشر .. أنت قاس .
- وأنت بلا تجربة .
- إذن دعني أجرب .
- افعل ما تشائين .. ولكن فقط ادعيني للغداء ..
- تفضل ..
- وتناولت نعمت الغداء مع محمود .. وقبل أن تودعه للذهاب إلى عبد العزيز اتفقت معه على لقاء في الصباح ليصاحبها في جولتها بين المواقع .. بعد أن قال محمود في حزم :
- إما أن أصحبك . أو ستمنعين من الدخول . وفي هذه المرة لن يفلح أحد في تهريك إلى المعسكر .. فاهمه ؟
- فاهمه ..

(٧)

مشكلة في جوف سعدية

جلست نعمت في حجرة الطبيب النوبتجي . وجلس أمامها عبد العزيز وقد
بدا عليه القلق والإرهاق .

قالت نعمت :

— والآن ، اهدأ ، واحك لي عن كل ما بك .

ورد عبد العزيز في غناد وإصرار :

— أريد أن أنزل .

— لماذا ؟ ..

— هناك أشياء هامة لا بد أن أقوم بها .

— لأسرتك ؟

— ليس بالضبط .

— ألا يستطيع أحد أن يقوم لك بها ؟

ورد عبد العزيز في حزم قاطع :

— لا ..

— ألا أستطيع أنا مثلا أن أساعدك فيها ..

وأجاب بحدة :

— طبعاً لا .

— لا تغضب هكذا ، إني أريد أن أساعدك .

— لا يمكنك ..

(العمر لحظة)

— لماذا ؟

— إنها أشياء تخصنى أنا .. وأنا وحدى الذى أستطيع أن أنجزها .
— ألا أستطيع حتى أن أعرفها . لعلنى أساعدك فى التفكير فى إنجازها .
— المسألة لا تحتاج إلى تفكير . لقد فكرت وانتهيت .. وسأنزل لأفعلها .
— ولكن .. !

— إذا لم يسمحوا لى بالنزول ، سأخرج الآن .. وأسير حتى القاهرة ،
وليفعلوا لى ما يشاءون .

— لا أظن المسألة تحتاج لكل هذا .. فإذا كان لديك فعلا .. ما يحتم نزولك
إلى القاهرة ، فيجب أن يسمحوا لك بالنزول . فقط .. لو أعرف شيئا عن
مشكلتك ، فلا جدال أنه سيساعدنى على إقناعهم بالسماح لك بالنزول .

وساد الصمت برهة .. وعادت نعمت تقول فى لهجة حانية :

— قل .. ماذا بك .. اعتبرنى أختك ، لماذا تريد أن تنزل ؟

زفر عبد العزيز فى نفاد صبر وأجاب فى حسم :

— لأتزوج ..

ورفعت نعمت حاجبيها فى دهشة .. وجاهدت لكى تكتم ضحكة أو شكت
أن تفلت من شفيتها ..

كان رد عبد العزيز آخر ما تتوقع ! ..

لم يخطر ببالها أبدا أن مشكلة الفتى الملحة .. التى يريد أن ينزل فورا من
أجلها .. هى الزواج .

وتساءلت فى هدوء :

— ألم تكن فى إجازة قريية ؟

— أجل .

— لماذا لم تتزوج إذن .. إذا كانت المسألة ملحة بهذا الشكل ؟

— كنت أحمق .

وصمت عبد العزيز لحظة ثم عاد يقول بلهجته العصبية الملحة :
— لا بد أن أنزل ..

وردت نعمت تحاول تهدئته :

— ستنزل إن شاء الله .. سأبذل كل جهدي لإقناع المسئولين وإن كنت لا أعلم هل الزواج يمكن أن يكون سببا كافيا .. لإجازة استثنائية .. أو لا ..
ونظرت نعمت إلى الوجه الأسمر النحيل المتوتر القسّمات الزائغ النظرات واستطردت لتسأل :

— من الذى يملك منحك الإجازة ؟

— سيادة المقدم .

— المقدم من ؟

— محمود عبد الله .

وتذكرت ما قاله محمود عن رأيه فى كيفية معاملة عبد العزيز وأمثاله ..
تذكرت ما قاله عن أورنيك الذنب والسجن وعادت تقول لعبد العزيز :

— لو أنى أعرف فقط بعض التفاصيل .. إنى مقتنعة بضرورة نزولك مهما كانت الأسباب ، إن مجرد رغبتك فى النزول كافية فى نظرى للسماح لك بالإجازة .. ولكن .. لا أظن ذلك يمكن أن يكون مقنعا لسيادة المقدم .. فلماذا لا تشرح لى الأمر .. فلعلى عندما أفهم الموضوع أكون أكثر قدرة على إقناعه .

وساد الصمت برهة ..

قطعتة نعمت بقولها فى رفق وثقة :

— اهكذا يا عبد العزيز .. وثق أنك ستنزل ، وإذا شئت أن تحدثنى ، فتكلم ..
وإذا لم تشأ فإذهب الآن لتستريح .. وسأحاول الاتصال بسيادة المقدم .. وغدا سأحصل لك على تصريح بالنزول ..

وأطلق عبد العزيز زفرة طويلة .. أخرج معها بعض ما أثقل كاهله وأنقض ظهره .. واسترخى فى مقعده ..

— ١١٦ —

وقالت نعمت تستحنه على الحديث :

— استرح يا عبد العزيز .. وقل .. ماذا بك ؟

ورد عبد العزيز وقد شرد ذهنه وكأنه يحدث نفسه :

— كنت جباناً ..

— لاتقل هذا .. كلكم شجعان ..

— لا أقصد هنا . الشجاعة هنا ليست مشكلة .. نحن نتعجل الوثوب

عليهم .. نتعجل الثأر ، إنه قدرنا المحتوم ..

— كيف إذن كنت جباناً ؟

— هناك .. معها ..

— مع من .. ؟

— مع سعدية .

— سعدية من ؟

— التي تحمل ابني في بطنها .

وبدت المسألة على شيء من التعقيد بالنسبة لنعمت .

وصمت عبد العزيز وكأنه شرح كل شيء ..

تساءلت نعمت في صوت رقيق :

— أهي زوجتك ؟

— طبعاً لا ..

— وابنتك في بطنها ؟

— أجل .

— قبل أن تتزوجها ؟

— أجل .

— ولماذا لم تتزوجها ؟

— لأنه ، لأنه ، لم يكن هناك داع لذلك .. كان كل شيء ممكناً بغير زواج ..

— وهى رضيت بذلك ؟
 — طبعا .. كانت المسألة طبيعية بالنسبة لها .. لم أكن وحدى .
 — لم تكن وحدك ؟
 — أعنى فى أول الأمر .. كانت مع كثيرين .. ولكن فى النهاية استقرت معى
 وحدى .
 مشكلة ؟ !
 بدأت نعمت تفهم .. بشكل عام ..
 الصورة اتضحت ، بما يسمونه خطوطا خارجية . ولكن بغير تفاصيل .. وبلا
 معالم محددة .
 ودون أن تسأل بدأ عبد العزيز يضع التفاصيل .. ويرسم المعالم .
 تجلس سعدية مكان أمها فى مدخل المنحدر فى عرب يسار القائمة على السفح
 الشرقى لتل القلعة .. أسفل مسجد محمد على .. والمكان الذى تحتله سعدية ،
 مكان عتيق ، تغيرت معالم الحى كله .. ولم تتغير معالمه .
 وعبد العزيز يذكر الحى منذ سنوات بعيدة .. البيوت العتيقة فى أسفل التل كما
 هى ، والجامع فى مدخل المنحدر والجبانات تمتد على مدى البصر تتصاعد من بينها
 المآذن المقطوشة طارت قممها فبدت كأنها مجنوب بلا طرطور أو ولى من أولياء
 الله بغير عمامة .. والطريق يلف حول الحى ليصعد إلى الباب الخلفى للقلعة ، وإلى
 مبنى البكتاشية من تنابلة السلطان فى سفح المقطم وأمام المنحدر يقوم سجن قره
 ميدان بسوره المرتفع .. ونوافذه الصغيرة .. تمسك بقضبانها الأكف .. وترتفع
 الصيحات .. تتجاذب الحديث مع الأهل على قارعة الطريق .. وعلى اليمين يمتد
 ميدان القلعة تقف بيايه مآذن وقباب الجامعين الكبيرين المتلاصقين وكأنهما
 حرس الباب .
 يذكر عبد العزيز كل هذا فى طفولته .
 ويذكر خالته زهرة .. أم سعدية .. فى المكان العتيق .. وراء القفص المقلوب

ترص عليه الليمون ، والمشنة ترص فيها الكرات والفجل والجرجير ، والقصعة ملئت بالفول النبات .

يذكر زهرة أيضا كامرأة سيئة السمعة .. يحذر بشدة أهل الحى رجالهم منها . عاد أبوه ذات يوم بعد أن أغلق حانوت السمكرى الذى كان يعمل به وفى يده لفافة سمك وبضع حزم فجل .

تناولت أمه اللفافة وقد تقعت بقع الزيت خارجها ولم تعلق عليها ، كانت حزم الفجل موضع تعليقها ، تساءلت فى غير فرحة :
— ما هذا ؟

وكان واضحا أن الذى بيدها فجل برعوسه البيضاء وأوراقه الخضضر ..
ورد أبوه فى استنكار :

— فجل نبلىع به السمك .
— من أين ؟

— يعنى إيه من أين ؟ من بائعة الفجل ..
— من ؟

— من أى بائعة فجل .
وأصرت أمه على التساؤل :
— من بالذات ؟

— من زهرة على باب الحارة !
وانفجرت أمه :

— لم أقل لك مائة مزة .. ألا تقرب العاهرة .
— لم يكن أمامى سواها فى الطريق ..
— يناقص الفجل !

— لا أدري ماذا بينك وبينها .. أتغارين منها ؟
— فشر .. أغار من عاهر ؟!

بدأ الغضب يلعب بأصداغ الرجل قال محذرا :

— اتلمى يا عديلة .. ولا داعى للتكد .. دعى الليلة تمر .

وبدأت الأم تتراجع . قالت فى صوت أنعم :

— أخاف على سمعتك يا عبد ربه .. لم يعد هناك رجل من أهل الحى لم يصبه رشاش من المرأة .. إنها تجلس فى باب الحارة كالخطاف ، لم تترك رجلا إلا ولهفته .. لماذا تشين سمعتك بالاقتراب من هذه اللبوة .

وكان عبد العزيز ينصت إلى الحديث فى صبر نافذ . وهو ينتظر أن تفتح لفافة البسملك ويبدأ العشاء . ولكن كلمة لبوة أثارت انتباهه ، لم يعرف كيف يمكن أن تكون زهرة لبوة ، فصاح فجأة قائلاً :

— يعنى إية لبوة يام ؟

وزغدته أمه فى جانبه وصاحت به :

— اخرس أنت .. مالك لهذه الأشياء ..

ومضى الزمن وتغيرت أشياء كثيرة ..

كل ما حول الحى تغيرت معالمة ، هدم السجن . وأصبح حديقة مورقة خضراء محاطة بسور سلك شائك حتى لا يفتك بها أهل الحى . وشق طريق عريض وسط المقابر تمر به العربات فى ملح البرق .. وتحذر الأمهات أطفالهن من الخروج إليه حتى لا تلهفهم العربات .

شيدت حول الحى مبان عالية . أسفل المقطم فى الأباجية ، وقرب الطريق الكبير أسفل سور القلعة ..

... وامتد طريق طويل أعلى الجبل .. وبنى مسرح على ربوة قرب الباب

الخلفى للقلعة ، تحول إلى سينما صيفى ..

أشياء كثيرة حدثت .

حدثت ثورة .. كان صغيرا بالطبع عندما حدثت ، ولكنها وضعت بصماتها واسمها على كل شىء ..

مات أبوه .. وماتت زهرة ..

وضمرت أمه تحت جلدها المجمعد ..
وانطوت في ركن من البيت .. صامته ، وكأنها تنتظر الموت ، لا تكاد تنطق
إلا بضع كلمات ، تحذره من سعدية كما كانت تحذر أباه من زهرة .
— اكف الجرة على فمها تطلع البنت لأُمها ..
خلوة ، واسعة العينين ، يرفع صدرها الجلباب من الأمام ، ويشده ردفاها
المترجرجان من الخلف .
وهي لبؤة كأُمها ..
كان ذلك بالنسبة له في أول الأمر مجرد شائعة تتردد .. حتى حدث ذات
ليلة ..

وقبل أن يحدث ، كان عبد العزيز قد أصبح جنديا في الصاعقة ، حاول أبوه
إدخاله المدارس ففشل .. كان يقضى كل وقته يلعب الكرة مع الأولاد في الشارع
العريض أمام المقهى أسفل القلعة ، وذات مرة حاول هو وأصحابه السرقة، نجحوا
مرة .. وضبطوا مرة أخرى .. وذهب أبوه لإحضاره من قسم الخليفة .. ولطفه
علقة كاد يقتله فيها من فرط ما ضربه .. لم تنقذه سوى أمه ، التي ألقت بجسدها
بينه وبين أبيه وأطلقت الصوت حتى لمت الجيران .

ومن يومها تاب ، عن السرقة ، وعن الدراسة .. وألحقه أبوه بورشة لتصليح
السيارات في شارع محمد علي بجوار حانوته .. حتى أصبح بعد بضعة سنوات
مشروع أسطى .. بل لقد أطلقت أمه عليه فعلا « الأسطى عبد العزيز » .. بعد
أن مات أبوه ، وأصبح هو رجل البيت وعائلته .

وجند .. مر بأيام المستجدين الأولى التي يمر بها كل عسكري .. وضاق بكل
شيء في أول الأمر .. وكاد يفر أو بالتعبير العسكري « يبلغ فرار » لولا بقية شعور
بالكبرياء ، وخوف من أن يقال عنه جندي هارب .. وأخيرا انتظم في وحدته ..
وأصبح بعد تدريب شاق عنيف جندي صاعقة ..

وذهب إلى الجبهة .. بكته أمه في الوداع ، وشيعه المعارف من أهل الحي بخليط

من الفخر والحزن .

وفي أول إجازة له .. حدث ما حدث :

مر بسعدية في أول المنحدر أمام الجامع المخطط ، رmqته بنظرة إعجاب من عينيها الواسعتين المكحلتين . واقتصر ثغرها عن ابتسامة عريضة كشفت عن سنيها الذهبيتين . وقالت في لهجة مريحة :

— مسا الخير يا شاويش عبد العزيز .

— مساء الخير يا سعدية .

— حمد لله على السلامة .

— الله يسلمك .

— أفضّل .

— متشكر .

— فنجان شاي .

— كتر خيرك .

— طب .. كاكولا ..

وعاد عبد العزيز يردد كلمات الشكر .. وهو مستمر في سيره .. فهتفت به :

— انت مستعجل ليه .. مش قد المقام والا إيه ؟ .

وتوقف عبد العزيز ..

كان بحكم التحذيرات المتواصلة من أمه ، والتي تعودت أن تسوقها إلى أبيه .. ثم إليه من بعده ، يتجنب هذه البقعة الخطيرة التي تضم .. قفص الليمون ومشنة الفجل . وقصعة الفول النبات .. ووراءها .. اللبؤة . تتمثل في زهرة في جيل أبيه ، ثم خليفتها سعدية .. في جيله .

تبدل كل شيء في الحى ، مات من مات ، ورحل من رحل .. وحدثت ثورة وحربان ، وخرج جيش ، ودخل جيش ، وبقعة « اللبؤة » الخطرة كما هي .. تحتلها زهرة ثم خليفتها سعدية .. بعد أن ذهبت الأم ، وورثت الابنة ، عدة

الشغل ، القفص والمشنة والقصعة .. وتجربة العمر .. بالإيماءة واللفتة ،
والغمزة ، ونداء الدلال .. وضحكة الإغراء ، وغيرها من أساليب الجذب ، وإن
اختلفت سماتها من جيل إلى جيل .

كان عبد العزيز يتجنب دائما منطقة الخطر .. بعد كل التحذيرات التي
تعودت أمه أن توجهها إلى رجال البيت هو وأبيه وبقية الأهل والمعارف ، ولم
تكن سعيدة تمنحه من الاهتمام ما يمكن أن يجعل تجنبه لها عسيرا ..
كان يمر .. وكانت تتركه يمر .

ولكن في هذه المرة .. بدت الدعوة ملحة .. مغرية .
والنفث عبد العزيز إلى سعيدة وقال في شيء من الحياء :
— العفو ..

— إذن تفضل .. عندي شاي يعجبك .
وكانت سعيدة قد أضافت إلى عدة الشغل وابور ويراد شاي علاه الهباب
وبعض كوبات وضعتها في طبق ملء بالمياه .

وبدا التردد على وجه عبد العزيز .. لم يعرف كيف يمكن أن يبدو أمام أهل
الحى . وهو يجلس على قارعة الطريق ببدلة الصاعقة ليحتسى الشاي بجوار اللبوة
سعيدة .. لقد كان مجرد شراء أيه للفجل من أمها ، كاف في نظر أمه ، لتشويه
سمعته ، فما بالك بالجلوس بجوارها واحتساء الشاي .

ثم .. كيف يمكن أن يبدو بالثياب العسكرية ، وهو يجلس القرفصاء على
الأرض بجوار مشنة الفجل وقصعة الفول النابت ؟
وقرأت المرأة الذكية أفكاره .

عرفت سبب تردده ..

قالت بطريقة ناعمة :

— تشرفنا في البيت .

وكان البيت .. الذى ورثته أمها .. عشة في طرف الحى على سفح التل ..

أسفل السور الذى قفز منه المملوك الهارب من مذبح القلعة .. وفى هذا البيت —
 كما كان يشاع — كانت تمارس الأم .. ومن بعدها الابنة عملها الآخر .
 وتسلفت النشوة إلى عروق عبد العزيز .. من مجرد الدعوة ..
 ومع ذلك استمر التردد يعلو وجهه ، ويمسك بخطواته .
 وقالت سعدية تستحثة فى لهجة لم تخل من سخرية :
 — أتخشى من فنجان شاي مع حرمة .. ماذا إذن تفعل فى الجبهة ؟
 وأجاب عبد العزيز ضاحكا :
 — فى الجبهة نشرب الشاي وننام فى هدوء .
 — أنتم إذن لا تحاربون ؟
 — يعنى .. طلاقة هنا .. وطلقة هناك .
 — فنجان الشاي عندى ، بغير طلقات ..
 ثم صمتت لحظة وتساءلت :
 — ستأتى .
 ورد عبد العزيز وهو يواصل صعود المنحدر :
 — سأذهب إلى أمى ، حتى تسقط الشمس .. وآتى لك .
 — سأنتظرك .. لا تتأخر .
 ولقيته أمه بالدموع .. كما تودعه بالدموع .. وضمته إلى صدرها فى لهفة كأنما
 تريد أن تعيده إلى جوفها .
 وكان أهم شيء لديها .. هو أن تطعمه ..
 ذبحت له بطة من البطاط الثلاث التى كانت تتبختر فى الفناء .. وأصرت على
 أن يبقى حتى تنضج لكي تعمل له من مرقها ملوخية وفنة .. ولكنه أخبرها أنه على
 موعد هام .
 — سأعدها لك للعشاء .
 — قد أتأخر .

— لماذا ؟ ..

— عندى مهمة لا بد أن أؤديها الليلة ..

ولم يصبر حتى تسأله أمه عن نوع المهمة .. خلع البذلة العسكرية وارتدى قميصا وبنطلونا . وانطلق يصعد التل . إلى العشة المنعزلة في أسفلها .. ليتناول فنجان الشاي .

كانت تجربة مثيرة ..

الكوخ تلفه الظلمة والصمت .. وسعدية تبرع على حشية وأمامها عدة الشاي .. وقد أخذت تلف سيجارة بعناية وتؤدة . وأشارت له إلى مكان بجوارها فوق الحشية .
— اقعد ..

وكانت سعدية قد فكت منديل رأسها ، فتهدل شعرها على كتفها ، وبدا الثوب الذى ترتديه خفيفا فضفاضاً .. وصدرها المكتنز من ورائه متحرر من كل ما يقيده .. ملقى فى استرخاء مثير .

ومد ذراعه يحيط جسدها .. متسللا بيده إلى إحدى الكتلتين المكتنزتين وشدها إليه .. فاهتزت يداها بالسيجارة التى تلفها .
قالت وهى تلم فتات الدخان التى سقطت فى حجرها :
— اصبر ..

ولفت السيجارة .. ثم مدت يدها إليه قائلة :

— خذ لك نفس .

— معى سيجائر .

وهم بإخراج علبه السجائر من جيبه .. فردت عليه ضاحكة :
— هذه شىء آخر .. توزن دماغك .

ونظر عبد العزيز إلى السيجارة نظرة متسائلة :
فاستطردت تقول :

— ١٢٥ —

— معمرة ..

وفهم عبد العزيز ورد عليها ببساطة :

— لا أشربه ..

— جرب ..

— لا داعى .

— نفس واحد .

وأشعلت سعدية السيجارة واستطردت تقول وهى تمد ساقها فى استرخاء :
— عندى كمية طيبة .. مع إنه شاحح فى السوق . احضرها إلى على الفك ..
تعود أن يأتى إلّى بين آونة وأخرى ، وفى ذات مرة سلم لى لفافة لم أعرف ما بها
.. ثم قال لى ، إنك تستطيعين مساعدتنا ..

— قلت له كيف ؟

رد ببساطة :

— سأقطع .. وأبنت تلفين وتوزعين .

— وعرفت ما باللفة وأقول الحق إنى خفت ولكن الرجل قهقهه ضاحكا ..

وأجاب :

— زبائننا معروفون .. وغير مطلوب منك أكثر من أن تضعى اللفافة مع حزمة
الفجل .

ووجدت المهمة سهلة .. وبدأت أمارسها مع بيع الفجل والنابت .

وأحس عبد العزيز بالقلق ..

إن هذه مغامرة معقدة ، مزعجة ، ماله هو وهذا الجو .. المشحون
بالخطورة .

وفكر في الانسحاب من المغامرة .
ولكن الثوب الفضفاض الخفيف المعلق على الصدر المكتنز الكاشف عن كل ما تحته .. جعل الانسحاب مسألة غير معقولة .
وأشعلت سعديّة السيجارة ، شدت منها نفسا ، وأعطته نفسا .. واستندت إليه .. بجسدها اللين الطرى ، وبدأ عبد العزيز يحس بالطمأنينة .. وزال عنه الخوف والقلق .
وكانت ليلة ممتعة . أدت فيها سعديّة واجبا بمهارة وإتقان وجاذبية .. مهارة الوراثة وإتقان التجربة وجاذبية الأنوثة نضارة العمر وخفة الروح واكتمال التركيب الأنثوى .
وعاد عبد العزيز إلى أمه في ساعة متأخرة ..
وجد المسكينة قلقة يقظة .. ضمته إليها وأطعمته البطّة ..
أحسّت بذكائها وتجربتها .. نوع المهمة التي أداها .. ولكنها لم تلم ولم تثر .. بل منحته المسكينة والطمأنينة .
وتكررت المهمة في الليالي التالية .
ولكن اللقاء بدأ يتخذ شكلا آخر ..
لم يكن لقاء غرباء تمارس فيه متعة محدّدة ، بل لفه إحساس بالألفة والمودة ..
وخلا من السجاير الملفوفة .. وطال فيه الحديث والخصن الحنون ..
وعندما انتهت إجازة عبد العزيز .. ووقفا للوداع .. لم يكن وداع غرباء .. لأن كلا منهما لم يكن غريبا عن الآخر .. لقد شدتهما الليالي القليلة التي قضياها معا برباط وثيق لم يعرف كل منهما كيف نشأ .. وكيف نسجت خيوطه .
وضمته سعديّة إلى صدرها وهي تردد هامسة :
— سأنتظرك .. لا تغيب .
وأحس عبد العزيز أنه يكره أن يتركها .
كيف حدث هذا ؟ ..

أمعقول أن يحبها .. وهى بكل هذه السمات المزعجة المرفوضة من المجتمع .
ولكنه يحبها فعلا ..

وعادت سعدية تهمس :
— لن ألقى فى غيابك أحدا ..
وتساءل عبد العزيز وكأنه لا يصدق :
— حقا ؟!

— بالطبع .. إلى لك وحدك .. إلى لا أتصور أن بقربنى غيرك .
— ولن تلقى المعلم على الفك ..
— وسأعيد إليه كل ما لدى .. وأخبره أنى انتهت من هذه المهمة .
وضمها عبد العزيز إليه فى حنان وهمس :
— سأعود إليك ..
— ربنا يحرسك وينجيك .

وعاد عبد العزيز إلى الجبهة .. وفى قلبه حب ..
وعادت سعدية إلى مكانها وراء المشنة والقصعة ، لتكون شيئا آخر ..
وبطريقة باتة وحاسمة .

وتكررت عودة عبد العزيز من الإجازة وتكرر اللقاء .. كان عبد العزيز يقضى ليالى الإجازة .. فى عشة سعدية .. ليذهب آخر الليل إلى أمه ..
وزجرته أمه ذات مرة ، ولكنه صدها عن الزجر . وطلب إليها ألا تتدخل فى أموره .. فلم تحاولها بعد ذلك ..

وسرت الشائعة فى الحى .. وأدرك طلاب المتعة لماذا كفت سعدية عن لقائهم ..
ولماذا أصبحت تتعامل من الناس كالشرفاء .
وفى آخر لقاء ..

علم عبد العزيز .. أنها حبلى .
صدم بالنيأ .. وسألها :

— ١٢٨ —

- وماذا ستفعلين ؟
وببساطة ردت سعدية :
— سأبقيه .
— كيف ؟
— كما يبقى الأولاد في بطون أمهاتهم حتى يولدوا .
— تعنى أنه سيكون لك ولد ؟
— ولم لا ؟
— بغير زواج ؟
— هذا شأنك .
وأحس عبد العزيز — رغم كل الحب الذى يكنه لها — بمطربة تهوى على رأسه ..
أمعقول أن تكون سعدية زوجته !
سعدية .. اللبوة .. بنت اللبوة . زوجته وأم ابنه ؟!
ماذا تقول أمه ؟ .. بل ماذا يقول الحى كله ؟!
ورد عليها فى حزم :
— الزواج غير معقول .
— ليس مهما .
— وليولد الولد بغير أب ؟
— كيف بغير أب ؟ .. إنه ابنك ؟..
— أمام الناس ؟
— لا يهم الناس . المهم أنا وأنت .. إنه ابنك .. ولهذا سأبقيه .. إنه خير ما يمكن أن آخذه منك ..
ونظر إليها فى حنق وقال فى شىء من القسوة :
— اسمعى يا سعدية .. كفى عن هذا الخبل ، لا تحمل الولد مسئوليات أمانيك

— ١٢٩ —

الحمقاء .. لا تدعى الولد ينزل ابن حرام ..

وبإصرار أجابت :

— سينزل ابن حلال .. لأنه ابنك ! ..

ولكننا لن نتزوج !؟

— قلت لك غير مهم ؟.

ونفض عبد العزيز في غضب وقال لها حانقا :

— أنت مغفلة .. أنزلي الولد ولا تجنى عليه ..

— لن أفعل .

— ولن أراك حتى تنزليه ..

وبدا الألم على وجهها وهي تراه يترك العشة غاضبا .. نادته . فلم يعد ،

وانطلق عائدا إلى الجبهة .. تاركا مشكلته في جوف سعدية وهو يريد أن يخلص منها .

.. وهي — فخورة بها — تريد أن تبقىها ..

(العمر لحظة)

(٨)

استعداد للشغل

انتهى عبد العزيز من روايته وأطلق زفرة طويلة واستطرد يقول :
وعدت إلى هنا .. وإلى حيث يخلص الإنسان من كل الشوائب الخاطئة التي
تشوب تفكيره .. لأبين الحقيقة ..

وتساءلت نعمت :

— أية حقيقة ؟ ..

— إلى جبان ..

— لا تظلم نفسك .. أنت لا يمكن أن تكون جباناً ..

— بل أعرف ألى جبان .

— الذين يواجهون الموت في كل لحظة .. بهذا الهدوء والرضا .. لا يمكن أن

يكونوا جبناً .. تلك هي الشجاعة الحقيقية ..

— هذه شجاعة مفروضة .. لا خيار لنا بها .. نحن هنا نحيا حياتنا .. نأكل

ونشرب .. وننام ونضحك .. ولا تقلقنا سوى مشاكلنا الصغيرة .. التي خلفناها

وراءنا ...

ونحن نحياها ككل حياة نحياها في أى مكان .. بملل .. أجمل ، بضيق . أجل

ولكن بخوف، لا ، نحن لا نحتاج إلى شجاعة .. لكى نحيا حياتنا .. نحن لا نرى

الموت في كل لحظة .. نحن لا نتنفسه ، ولا نمضغه .. وإنما نراه فجأة في أشلاء

أحبائنا .. وعند ذاك لا يثير في نفوسنا الخوف .. بقدر ما يثير الحقد والحنق ،

والرغبة في الثأر .. عندما نرى الموت حولنا .. لا نجري منه .. بل نثبت بغير إرادة

لنرده إلى من أوقعه بنا ... والذين يموتون منا .. لا أظنهم احتاجوا إلى شجاعة وهم يواجهون الموت .. هنا لا يمنحنا حتى فرصة الخوف منه . وسط الضجيج والدوى والغبار والدخان .. تفلت شظية أو رصاصة . لتنفذ في أحدنا .. فيسقط .. ثم ينتهى .. لا أظننى احتجت هنا لحظة واحدة .. إلى شجاعتي .. لكى أنفذ أمرا بالتقدم .. لكى أهاجم على موقع .. لكى ألقى قذيفة .. هذه كلها أشياء نفعلها ، هنا ببساطة ، كجزء من عمل أى إنسان .. أفعلها كما كنت فى ورشة الأسطى زينهم .. أفك طلبمة المياه فى عربة وأنظف الكاربراتور .. أشياء لا تشعر الإنسان لحظة وهو يفعلها بأنه يحتاج إلى شجاعة ..

وصمت عبد العزيز لحظة .. يزدرد ريقه .. وسعل سعلة عصبية قصيرة ، ثم استطرده يقول :

— هنا .. لم أحتاج إلى شجاعتي لحظة واحدة .. أمام العدو .. ولكن هناك .. احتجت إليها .. واقتدتها .. وأنا أواجه من أحب .. وصمت مرة ثانية .. وهمت نعمت بالحديث لكنه قاطعها فى صوت أشبه بالنحيب ..

— أنا جبان ..

— لا تقل هذا ..

— أنا هنا لم أهرب لحظة من قدرى فى مواجهة الرصاص والشظايا .. ولكنى هناك هربت من قدرى فى مواجهة كلام الناس .. أنا جبان ..

— لا تظلم نفسك يا عبد العزيز .. أنت فرد فى مجتمع يخشى بعضه .. مجتمع يتشارك السوء فى باطنه .. ويتشارك رداء الزيف فى ظاهره .. مجتمع يفعل الذنب ويستبشع فعل الغير له .. مجتمع يسرق .. ويدين السرقة .. ويزنى ، ويروعه الزنا .. يسترخى فى ارتياح الأبرياء الأطهار وراء ستار الخديعة والزيف والنفاق .. ليشير بأصبع الاستككار إلى الذين أسقطت الظروف عنهم ستر الزيف .. فتعرت الذنوب من ورائها ..

وصمتت نعمت تراقب الوجه الأسمر المشدود أمامها ثم أطلقت زفرة قصيرة وقالت :

— أنت فرد في هذا المجتمع يا عبد العزيز .. ولا تستطيع إلا أن تفعل كما يفعل .. لا تستطيع ببساطة أن تمزق ستار الزيف .. لتواجه الناس بالذنب .. نحن لا تفضح بإرادتنا .. الفضائح تفرض علينا لتعريتنا .. إننا في مجتمع يذنب .. ويطلب الستر من الله .. مجتمع يقاوم كل ما يعرى ذنبه .. فلماذا تستكثر على نفسك أن تفعل .. وأنت فرد فيه ..

وهز عبد العزيز رأسه في يأس وأجاب :

— لا يعفينا من الجرم .. أن يكون كل الناس مجرمين .. ولا يزيل عني وصمة الجبن أن أكون في مجتمع من الجبناء ..

وعادت نبرة النحيب تسرى في صوته وهو يردف قائلاً :

— لقد عاملتها بجبن .. بنذالة .. تركتها بالمشكلة — مشكلتي أنا — في باطنها وهربت إلى هنا ..

— لا تضخم المسألة .. لقد تصرفت كأى رجل ..

— كأى رجل جبان .. هربت من ذنبي .. وكانت هى أشجع منى قالت إنها تريد أن تحتفظ بابنى .. لأنه خير ما يمكن أن تحمله منى .. فقلت لها :

— اخلصى منه لأنه ابن حرام .. قالت إنه ابنك .. وعندما قلت لها إني لن أتزوجها ..

أجابت إنها لا تريد الزواج ..

تحملت هى بشجاعة كل شيء .. وهربت أنا بجبن .. من كل شيء ..

— وإلام انتهيت ؟

— قالت إنها ستبقيه .. وقلت لها لن ترينى حتى تخلصى منه .

— وماذا ستفعل هى ؟

— لست أدرى .. تركت المشكلة برمتها لها .. وعدت إلى هنا بريثا ..

— ١٣٣ —

شريفا .. شريفا .. ليقال عنى بسداجة .. إني رجل شجاع ..

— وماذا تريد الآن ؟

— أريد أن أنزل ..

— لماذا ؟ ..

— لأتزوجها ..

وأخذت نعمت ترقب الوجه المشدود أمامها .. وقالت له في هدوء :

— ستنزل يا عبد العزيز .. أنت رجل شجاع .. شجاع هنا وشجاع هناك .. رغم إنكارك هذا وذلك .. شجاع هنا .. ككبل زملائك لأن الشجاعة لا تستعرض ولا تمارس بقصد .. إنها تصرف تلقائى .. ينبع من باطننا .. وينعكس على أسلوب تصرفنا مع الأمور .. الشجاع لا يدعى الشجاعة ولا يجهد نفسه فى الإقدام عليها . ولكنه يمارسها يسر وسهولة .. كما يمارس أى تصرف طبيعى لا إرادى .. وأنت لم تفقد شجاعتك هناك .. ولكن تصرفت تلقائيا .. كما يفعل مجتمعك .. وجدك .. وعندما عدت إلى هنا . وصفت نفسك من الشوائب .. وأنت تواجه قدرك فى كل لحظة .. وضحت لك — كما قلت — الحقيقة .. وأحسست أن تصرفك الطبيعى ، هو أن تواجه مشكلتك بشجاعة .. أأستحب سعيدة ؟

— أجل ..

— أأستتؤمن بوفائها لك ؟

— لا أشك فى ذلك ..

— هل تشعر .. أنها بجوهرها .. وبحقيقة مشاعرها لك .. أهل لأن تشاركك

الحياة ؟

— أجل . أجل . لقد خشيت مواجهة الناس .. خشيت من أمى ومن أهل الحى أن يقولوا .. تزوج سعيدة .. ولكنى أحس الآن أنها خير منهم جميعا .. لن أتركها وحدها .. لن أدعها تخلص من ابنى .. وإذا كانت تريده منى ، فأنا أريده منها .

وصمت عبد العزيز لحظة يلتقط أنفاسه ثم عاد ليقول في إصرار :

— من أجل هذا أريد أن أنزل

— وسأجعلك تنزل ..

— ولكنهم .. يقولون إنه ليس به شيء .. وسيعيدونني إلى المعسكر .

— لا تقلق .. سأعرف كيف أحصل لك على تصريح النزول ..

وتساءل عبد العزيز في شيء من الشك :

— أحقا تستطيعين هذا ؟

— طبعاً ..

وأطلق تهيدة راحة وأجاب قائلاً :

— الحمد لله .. لقد كنت أنوى الهروب .

— لن تصل المبالة لهذا .. غدا سأعطيك التصريح ..

ونظر عبد العزيز إلى نعمت بعينين تفيضان بالشكر دون أن يقول شيئاً ..

وعندما نهضت قائلة :

— اذهب الآن واسترح .. وغدا ستنزل ..

وأجاب :

— سأخبر سعدية أنك ساعدتني في النزول .. سأخبرها أنك ساعدتني في كل شيء .. وسأحضر وإياها لنزورك .. في أول فرصة .. إذا لم يضايقك هذا ..

— أبدا .. يسعدني أن أراها ..

واقجه عبد العزيز إلى فراشه بعد أن شد على يد نعمت في حرارة كادت تخلع ذراعها .. وعادت هي إلى غرفتها .. تصطبخب في نفسها شتى الانفعالات .

وتردد في ذهنها قول الفتى الأسمر النحيل الوجه :

نحن لا نقلقنا سوى مشاكلنا الصغيرة التي خلفناها وراءنا نحن لا نحتاج إلى شجاعة لكي نحيا حياتنا هنا . نحن نحياها ككل حياة نحياها ..

نحياها في أى مكان .. بلبل أجل .. بضيق أجل .. ولكن بخوف .. لا ..

وبدأ الظلام يسقط .. بهت البياض البادى من خلال زجاج النافذة .. وامحت

— ١٣٥ —

معالم الأشياء المرسومة على رقعته . أطراف شجرة وجانب من جدار .
وانتهى إلى رقعة داكنه يحيط بها برواز النافذة الزجاجية .
واستلقت نعمت في فراشها .. أدارت مفتاح الراديو .. سمعت حوارا بين
مذيع وناقد عبقرى يقول أشياء غير مفهومة .. عن الأدب البرجوازي .. والأدب
البروليتارى .. والارتباط بالمعركة .. وأحست نعمت ، أن العبقرى ، المستعرض
لعبقريته .. هو أبعد خلق الله عن المعركة .. وعن رجال المعركة .
وأغلقت الراديو وفتحت كتابا ..
وأحست بالنوم يثقل جفونها .. ولم تعرف .. متى نامت .. ولا كم نامت ..
فقد فتحت عينها عن صوت ضجيج في الطرقة .. استبانته منه صوتا لا تخطئه بين
مئات الأصوات .

صوت محمود يصيح :
— أين الدكتور النوبتجى ؟
وصوت يرد عليه :
— كان هنا في حجرته .
— ولكن الحجرة خالية ؟
— ربما ذهب ليمر على عنابر المرضى .. سأناديه لسيادتك حالا .
ونفضت نعمت من فراشها . وأخذت الساعة من فوق المنضدة .. كانت
الحادية عشرة مساء ..
ماذا أحضر محمود الآن ؟ ..
وبغير إرادة خلعت قميصها بسرعة وارتدت الجيب والقميص .. ودست
قدمها في الحذاء .

نظرت إلى المرأة . مرت بالفرشاة على شعرها .. لم يعجبها شكلها .. ولكن
لم يكن هناك وقت لكى تفعل أكثر مما فعلت . كانت تتوقع .. مادام قد وصل إلى
هنا .. أن اللقاء لا بد واقع .. فلا يستبعد منه أن يطرق بابها .

— ١٣٦ —

وإن لم يفعل .. ستخرج هي إليه .. لتعرف ما به .
لم تنتظر أن يطرق بابها .. خرجت إلى الممر ..
فوجدته يقف في آخره .. سمع خطواتها .. استدار ليرى القادم ..
هتف في دهشة :
— ماذا أيقظك ؟ .
— سمعت صوتك .
— آسف لأنى أقلقتك ..
ولاحظت نعمت على وجهه علامات إرهاق فتساءلت في قلق :
— ماذا بك ؟ ..
— لا شيء ..
— إذن لماذا أتيت ؟
— شعرت بمغص بسيط .
— مغص كلوى ؟
— أعتقد هذا .. .
وزاد قلق نعمت واقتربت منه قائلة :
— تعال ..
— إلى أين ؟
— لا بد أن ترقد ..
— لا .. لا .. ليس هناك وقت ..
وأحست به نعمت كطفل عنيد وتساءلت في حدة :
— وقت لماذا ؟
— للرقاد ..
وزدت نعمت في شيء من السخرية :
— ما وراءك .. سهرة ؟

وأجاب محمود والألم يشتد به فلا يمنحه قدرة على رد السخرية . والاشتباك
في مزاح :

— أريد مسكنا ..

— ارقد أولا .. ارقد واسترح .

— لا أريد أن أرقد ..

ونظرت إليه نعمت في حلق وزجرته كما تزجر طفلا صغيرا .

— لماذا لا تريد أن ترقد . أنت مرهق ولا بد أن تستريح .

— قلت لك ليس هناك وقت ..

— عجيبة ماذا وراءك ؟

— ورأى عمل ..

— الآن ؟ ..

— ليس بالضبط ..

وقبل أن ترد نعمت أقبل الدكتور رشاد وحيا محمود متسائلا :

— خير يا فندم ؟

— أشعر بمغص .

— اتفضل ..

— إلى أين ؟

— إلى حجرة الكشف...

— ليس هناك داع .. أنا أعرف ما بي . إنه مغص كلوى .. وأريد حقنة

نوفالجين .. أو أى مسكن ..

— حاضر .. اتفضل يا فندم .

وتحرك الثلاثة إلى داخل المستشفى .. وأمام أحد العنابر .. كان عبد العزيز

يقف بالباب محاولا أن يستكشف أسباب الضجيج ..

وأبصره محمود .. فصاح به :

— عبد العزيز ..
ورد عبد العزيز في صوت فرع :
— أفندم ..
— ماذا تفعل هنا ؟
وتلجلج عبد العزيز .. ورد في كلمات متقطعة ..
— أصل .. أصل .. سيادتك .. أصل كنت .
— كنت إليه .. ؟
— كنت مبلغ عيادة ..
— ماذا بك وأنت تقف كالحصان ؟ .
وازداد اضطراب عبد العزيز وعاد يقول :
— أصلى يا فندم ..
وتدخلت نعمت لإنقاذه فقالت ببساطة :
— حالة انهيار ..
ورد محمود في سخرية :
— انهيار .. منذ متى .. ؟
— لقد أمضيت معه جلسة اليوم ..
وعاد محمود يتساءل في حدة ..
— جلسة إليه ؟
وحاولت نعمت أن تهمس له :
— إنه العسكري الذى حدثتك عنه اليوم ..
وهتف محمود صائحا ..
— ما شاء الله .. انهيار وجلسات .. ما هذا الذى يحدث من ورائى .. أنت
ستفسدين العساكر ..
وردت عليه نعمت بهدوء محاولة أن تلم الموقف :

— يا فندم هذا عملنا .. ونحن نعرف ما يجب أن تفعله .
ولم يرد عليها محمود .. تجاهلها تماما .. ووجه القول إلى عبد العزيز في سؤال حاسم :

— عبد العزيز .. أنت مريض ؟ ..

— أنا أصلى ..

— أصلك إيه ؟ .. مريض أم سليم ؟ . إذا كنت مريضا يكشف عليك الدكتور ليعرف ما بك .. ويعطيك الدواء .. أما انهار .. وأعصاب .. وكلام فارغ من هذا .. لا أريد ..

وحاولت نعمت مرة أخرى أن تنقذ الموقف فقالت هامة :

— أرجوك .. يا سيادة المقدم .. أنا مسئولة ..

وقاطعها محمود في حدة :

— أنت لست مسئولة عن شيء . أنا المسئول ..

وحاول رشاد التدخل . وهو يرى معالم الألم على وجه محمود .

— سيادتكم اتفضل .. حتى أعطيك الحقنة .. وسأتصرف أنا معه ..

ورد عليه محمود في حسم :

— أنا الذى سأتصرف معه ..

وعاد يوجه السؤال إلى عبد العزيز في حزم :

— أنت مريض يا عبد العزيز ؟ .

— أنا يا فندم .. أريد النزول .

— إلى أين ؟ ..

— إلى مصر ..

— مصر ؟

وفي نبرات هادئة قال محمود لعبد العزيز .

— بكره عندنا شغل .. فاهم شغل يعنى إيه ؟ ..

وبدا كأن هناك لغة مشتركة بين الاثنين .. القائد والعسكري ..

رد عبد العزيز بسرعة :

— فاهم يا فندم .

وعاد محمود يسأل :

— أنت مريض ؟

— لا يا فندم ..

— تنزل مصر ؟ ..

— لا يا فندم ..

— متى ستعود إلى المعسكر ؟

— حالا يا فندم ..

— إذن ارتد ملائسك .. وستعود معي .

— حاضر يا فندم .

وكانت نعمت ترقب العبارات المتبادلة بين الاثنين في ذهول وأحسّت

بالإشفاق على عبد العزيز .. ومحمود يعامله بمثل هذه القسوة .. ويجبره على العودة

إلى المعسكر ثانية ..

لم تتعرف كيف استطاع محمود التأثير على عبد العزيز بمثل هذه السهولة حتى

انقاد إليه كالطفل .

أهو الخوف ؟ ..

وكرهت أن يخضع الجنود في الجبهة لمثل هذه الشدة ؟

وهي تعرف ماذا في باطن عبد العزيز من مشاكل .. تعرف خبايا صدره أكثر

مما يعرف هذا القائد الشديد الذي سيأخذه من يده إلى المعسكر كما يؤخذ التلميذ

إلى المدرسة .

قال له إن لديهم « شغل » وسأله هل تفهم « شغل » يعني إيه « وبدأت بعد

ذلك تتوالى من شفتى عبد العزيز سلسلة الإجابات العسكرية التقليدية « أيوه يا

فندم « حاضر يا فندم » حالا يا فندم ..
 وهمت نعمت بالتدخل لتنقذ عبد العزيز إنسانيا .. من براثن القائد الشديد .
 قالت تحاول إقناع محمود في صوت خفيض :
 — أنا أعرف حالته جيدا .. إنه يحتاج إلى إجازة .
 ونظر محمود إليها نظرتة إلى طفلة تعبث ، وقال لها في زجر رقيق :
 — وبعدين معاكى ..
 ووجه القول إلى عبد العزيز بلهجة أشد :
 — بعد خمس دقائق .. تكون تحت في العربة ..
 — حاضر يا فندم ..
 كانت تبدو على وجه عبد العزيز .. سكينه واستقرار .. زال التوتر والقلق ..
 لم تعرف نعمت كيف طويت المشكلة في باطنه ، النزول ، والزواج ،
 وسعدية ، وابن الحرام الذى تريد أن تحتفظ به في باطنها .
 وأغلق كل هذا على صدره .. أغلقه محمود .. بتعليماته الصارمة .. بأسئلته
 الحادة القاطعة العنيفة :
 — أنت مريض ؟
 — لا فندم ..
 — تنزل مصر ؟
 — لا يا فندم ..
 وسارت نعمت تتبع الدكتور رشاد ومحمود واختفى رشاد ليعد حقنة
 المسكن .
 وانفردت نعمت بمحمود .
 هتفت في حدة :
 — ما هذا .. أجننت ؟
 — لماذا ؟

— ١٤٢ —

- أولا لأنك مريض .. ولا تريد أن ترقد أو يفحصك الطبيب ..
 — لا داعي للفحص . لأنى أعرف علتى !
 — إذن ابق لتستريح ..
 — عند أخذ المسكن سأستريح ..
 وردت عليه نعمت بصبر نافذ ونبرة حانقة وكأنه طفل صغير ..
 — انفلق .. عد إلى المعسكر لكى تصيبك نوبة أخرى .. ولا تجد من ينقذك ؟
 ولأول مرة ابتسم محمود وقال معاتبا :
 — أتشتمين فى ؟
 ردت عليه فى صوت رقيق :
 — أنا أكره عنادك .. أنت مرهق .. وتحتاج إلى راحة .. ومع ذلك تصر فى
 عناد على العودة ؟
 وهز رأسه متسائلا فى رقة :
 — هل تظنين أنى أكره البقاء هنا .. بجوارك . إن هذا أحب مكان إلى .. مجرد
 الإحساس أن بينى وبينك عمرا .. يملؤنى إحساسا بالراحة ..
 ودت نعمت لو استطاعت أن تضمه إلى صدرها كطفل وتساءلت فى
 دهشة :
 — إذن لماذا لا تبقى ؟
 — لأن لدى عملا !
 — الليلة ؟
 — غدا .
 — إذن الصباح رباح .. استرح الليلة .. وغدا تعود إلى المعسكر ..
 — لا بد أن أكون الليلة بجوار العساكر .
 — لماذا ؟ ..
 — وبعدين يا نعمت .. لماذا تكثرين من الأسئلة ؟

- لأنى لا أفهم ..
- لا داعى لأن تفهمى .. لابد أن أكون الليلة فى المعسكر .. وكفى .
- وصمتت نعمت لحظة ثم عادت تتساءل : ؟
- وهذا العسكرى الغلبان لماذا عاملته بمثل هذه القسوة ؟
- لأنى لا أحب الدلع ..
- ولكنه متعب حقيقة !
- متعب كيف ؟
- متعب نفسيا
- اسمعى يا نعمت أرجوك .. بطلى حكاية الأمراض النفسية .. والعلاج النفسى .. هذه الأشياء .. لا تباع ولا تشتري عندنا .. عندى هنا إما مريض أو سليم !
- محموم . مجروح .. عنده مغص .. إسهال .. يذهب إلى المستشفى .. سليم يبقى فى المعسكر .
- المرض لا ضرورة أن يكون جسمانيا .. لا ضرورة لأن يكون المريض محمومًا أو مجروحًا .. قد يكون فى نفسه ما هو أسوأ من هذا .. مما يجعله لا يصلح للعمل .. وعبد العزيز مصاب نفسيا .. ولابد من إراحته ؟ ..
- أنا أعرف عبد العزيز أكثر منك عبد العزيز عسكرى ممتاز ونحن نحتاج إليه ..
- فى ماذا ؟ ..
- فى الشغل ..
- إذن ينزل مصر .. ويستريح .. ثم يعود لكنى يصبح أكثر قدرة على العمل .
- ليس هناك وقت .. نحن نريده غدا ..
- لماذا غدا ؟
- ونظر إليها فى غيظ وقال كأنه يخاطب طفلا :
- يا نعمت يا حبيبتى .. ماذا أقول لك ، لدينا عمل غدا ، عمل خاص ..

— ١٤٤ —

لابد أن نعد له الليلة .. ومن أجل هذا لابد أن أكون الليلة في المعسكر .. ولابد
أن يذهب عبد العزيز معي .. لأننا نحتاج إليه .. أفهمت ..
وصمتت نعمت برهة .. تزدرد ريقها .. وأجابت في قلق وقد بدا عليها
الفهم ؟

— هل ستعملون الليلة ؟

— يعنى ..

وازدادت علامات القلق على وجهها وشرد ذهنها ..
سألها محمود :

— ماذا بك ؟

— هل لا بد من العمل الليلة ؟

— ليس بالضبط ..

— أعنى ألا يمكن تأجيله ؟

— لماذا ؟

— لأنك مرهق ؛

— عندما آخذ المسكن سأستريح ..

— ولكن قد تعاودك النوبة ؟

— ربنا يستر ..

وصمتت نعمت تفكر لحظة ثم تساءلت :

— اسمع يا محمود ؟

— نعم ..

— هل أستطيع أن أصطحبكم ؟

— إلى أين ؟

— إلى العمل ..

— وضحك محمود قائلاً :

— أنت عبيطة ؟

— لماذا ؟ .

— أولا لأن عملك كما تقولين . حل المشاكل .. ونحن والحمد لله ليس لدينا مشاكل ..

وصمت برهة ثم ضحك قائلاً :

— ولا أظن الوقت سيسمح لك .. بحل مشاكل العدو .

وردت نعمت وهي تحس بالقلق يملا جوارحها ..

— قد أستطيع أن أساعد في شيء .. دعني أذهب معك ؟

— غير معقول يا نعمت ..

— أتمنى أن أفعل أى شيء وأكون بجوارك .

وأجابها محمود في حنان :

— أنت هنا بجوارى .. وأنت تفعلين لنا كل شيء .. بمجرد وجودك ..

وأقبل الدكتور رشاد ينادى :

— اتفضل يا سيادة المقدم ..

واختفى محمود برهة في غرفة الطبيب وخرج بعد لحظة .. سلم على الطبيب شاكرًا وسار بجوار نعمت حتى آخر الممر ..

مد يده مودعا ..

استبقى كفها بين كفيه وضغط عليها برفق وهمس قائلاً :

— ماذا أقول لك ؟

— لا تقل شيئاً .

— وحتى لو أردت فإني لا أعرف أن أقوله ..

— ربنا يراعاك .. وينجيك .. لست أعرف لماذا أخشى عليك .. بت عندي

شيئاً عزيزاً .

— وأنت عندي شيء آخر .. غير هذا العالم بأكمله .

— ١٤٦ —

وتنهدت نعمت .. وتركت يدها تسترخى بين يديه وأردف هو يقول :
 — يكفينى . أن أطلع إلى وجهك .. أن أمسك يدك .. أن أسمعك تتحدثين
 .. أن أرى بسمتك .. أن أسمع عتابك ، حتى غضبتك أحبها ..
 وأحست نعمت بأن شيئاً يذيقها من الداخل .. وعمست :
 — كفى ..

— بل إن مجرد التفكير فيك .. يبعث الأمل فى نفسى .. يجعل الدنيا كلها تورق
 وتخضر ..

وهز رأسه واستطرد يقول :
 — أظننى كبرت على هذا .. ولكنك أيقظت صباى .. عندما كانت الدنيا
 تزهر .. من قلوبنا .. ونغنى فى باطننا ..
 وأحست نعت بوقع خطى مقبلة فهزت يديه قائلة :
 — مع السلامة ..

ثم استدركت قبل أن تترك يده :
 — هل أراك غدا ؟

— يعنى ..
 — سأتى إلى المعسكر فى الصباح ..
 — لماذا ؟

— لأطمئن عليك .
 — أجلبها لبعده غد .
 — بل سأتى غدا ..
 — أمرك .. تصبحى على خير ..
 — وأنت من أهله ..

وودت نعمت لو التصقت بصدرة .. ولكن الخطى أخذت فى الاقتراب
 فشدت على يديه واستدارت إلى غرفتها ..

باتت ليلتها يورقها القلق والخوف .. وأحلام مليئة بالدوى والشظايا وأعمدة الدخان ..

ومحمود يعدو فوق سحابة لاتكاد تمسك به حتى يتلاشى .. وزملاء الصحافة يحيطون بها ويلحون عليها بالشائعات .. أشياء كثيرة زحرت بها أحلامها . كان من بينها داليا ابنة محمود ..

وتسلل ضوء الفجر فتركت الفراش وبدأت تتشاغل بالاغتسال وارتداء الثياب ..

وعندما غادرت غرفتها لم تكن الساعة قد تجاوزت السابعة .
ومرت بعنبر المرضى فوجدت عبد العزيز قد غادر فراشه في المساء وذهب مع قائده .

ذهبت إلى الميس .. شربت الشاي .. ثم خرجت إلى الحديقة ..
أحسّت بلسعة برد حملتها نسمة صباح الخريف . دخلت حجرتها فوضعت الجاكطة . وطلبت من أحد الجنود أن ينادى على السائق ويعد العربى .
كان كل شيء هادئا ..

صباح رائق .. تتسابق نتف السحاب على صفحة سمائه الزرقاء .. وعصافير تترقق .. فى أغصان شجرة عتيقه تساقطت قطع الصمغ من جذعها ..
كل ما حولها يناقض ذلك انقلق المصطخب فى باطنها .. وظلت تسائل نفسها ..

ما هو هذا الشيء الذى سماه محمود « شغل » ! ما طبيعته .. وما حجمه ومداه .. ومتى يقع ؟
أو هوقد وقع فعلا ؟

الذى تعرفه أن مثل هذه الأشياء تقع قبيل الفجر .. لتأخذ الخصم على غرة ..
وعلى هذا فالمفروض أنه قد وقع فعلا .. أو هو يقع الآن ..
واتخذت مكانها فى العربى ..

وانطلق بها السائق ..
 الطريق كما هو .. بمطباته .. وحجارته .. وبكل سمات الدمار المحيط به ..
 اقتربت من البوابة الأولى ..
 لعل العسكرى لا يوقفها ..
 كان يجب أن تطلب من محمود أن يلغى أوامره حتى لا تتعرض مرة أخرى إلى
 السخافة التى تعرضت لها أول مرة ..
 ومرت العربية من البوابة الأولى .. والثانية .. دون أن يعترضها أحد .. حياها
 الحارس وتركها تمر .
 وأخيرا وصلت إلى نهاية الطريق ..

بدت نقطة المراقبة .. بجوارها المصلى .. ومن ورائها الميناء .. والمياه الزرقاء
 تنبسط حتى جبل عتاقة فى اليمين والشاطئ الآخر من القناة فى اليسار .
 وأحسنت نعمت بشيء من الراحة .. وهى ترى كل شيء هادئا ..
 ليس معقولا أن يستغرق الموقع كله فى مثل هذا الاسترخاء والهدوء .. وشيء
 ما حدث !

— لا يعقل أن يكون هناك شيء مما سماه محمود « شغل » .
 بالتأكيد ليس هناك آثار « لشغل سابق » .. ولا يبدو أن هناك استعدادا للشغل
 لاحق ..

وهبطت من العربية متقدمة إلى نقطة المراقبة لعلها تجد صلاح . ولكنها لم تكد
 تسير بضعة خطوات حتى سمعت صوت محمود يهتف بها :

— غير معقول .. ماذا أتى بك فى هذه الساعة ؟

— أودى واجبى ..

— رجوتك أن تؤجل الحضور إلى بعد غد ؟

— ولهذا أتيت ! ..

— أنت عنيدة ..

— ١٤٩ —

- هل تظننى أستطيع أن أسترخى فى المستشفى . بعد كل ما قلته لى ..
— وماذا ستفعلين هنا ؟
— أرى ما تفعلون ..
— لن ترى شيئا ..
— مجرد وجودى معكم .. يدفع فى نفسى إحساسا بالطمأنينة ..
— أنت مخلوقة عجيبة .. إننى أعبدك ..
— وهمست فى فزع :
— غير معقول .. أهذا الكلام يقال هنا ؟
— أقوله هنا .. وفى كل مكان إنه الحقيقة ..
— وبدا الارتباك على وجه نعمت وما لبثت أن استأذنت قائلة :
— سأمر على المواقع ..
— لا تطيل البقاء فى الموقع أرجوك ..
— ماذا تخشى على .. إنى أرى كل شىء هادئا ..
— وتنهد محمود ورفع يده يشير إليها مودعا وهى تتحرك بالعربة .. واتجه هو إلى
نقطة المراقبة ..

(٩)

كنت أعرف أنى سأعود

أمضيت نعمت بضع ساعات الصبح .. وهى تنتقل بين المواقع ..
كل شىء هادىء .. وكل شىء يسير على النمط الذى تعودته طوال الأيام التى
قضيتها بين المواقع .. الجنود فى مواقعهم يتحركون .. يتشاءون .. ينظفون السلاح
.. يتبادلون النكت ..

لا أثر لتغيير ما .. يدل على أن شيئاً وقع أو يوشك أن يقع .. لا أثر مطلقاً ..
لذلك الشىء الذى سماه محمود .. شغل . والذى من أجله جر الفتى الأسمر الحزين
المهموم من عنقه إلى المواقع .. تاركا مشكلته الرابضة فى بطن سعدية .. تحل
نفسها وكأنها شىء لم يعد يخصه ..

الله أكبر .. الله أكبر .. أشهد أن لا إله إلا الله .. أشهد أن لا إله إلا الله ..
وانطلق صوت المؤذن يؤذن لصلاة الظهر من المصلى المفروشة بالحصى بجوار
الميناء ..

حتى على الصلاة .. حتى على الصلاة ..

لم يكن الأداء به نغمة المؤذن المحترف .. ولكنه كان قويا عاليا ..
واصطف الجنود وراء أحدهم يؤم بهم الصلاة .. وانحنى الأجساد .. مست
الجباه الأرض فى سكونة وخشوع .

وفى جانب آخر من الموقع .. وقفت عربة التعيين تفرغ حمولتها .. وصاح أحد
الجنود .. ملقيا إحدى النكات ساخرا من سائق العربة .. وقهقهه بعض الجنود
وصاح السائق هازئا بأنها قديمة ..

ولم تجد نعمت بين كل هذا ما يعث على القلق .. وأحست أن ما سماه
« شغلا » لا بد قد تأجل . فمن غير المعقول أن يقوم بالمجوم في عز الظهيرة ..
ومن غير المعقول أن يكون هناك عمل عسكري أيا كان مظهره .. وسط هذا الجو
من الاسترخاء النسبي الذي تتسم به الحياة الطبيعية في الجبهة ..

واتخذت نعمت مجلسها بجوار السائق وأمرته بالعودة إلى المستشفى ..
وانطلقت العربية بنعمت تتقاذفها مطبات الطريق ويلفها غباره وفي نفس
اللحظة التي انطلقت فيها نعمت إلى المستشفى .. وأتقة من أنه لن يكون هناك
شغل .. كان « الشغل » قد بدأ ..

والتكبير يعلو في المصلى ..

وعربة التعيين تتحرك لتفرغ حمولتها بين المواقع ..

والضحكات تتعالى .. والنكات تتبادل .

كانت هناك أجساد تنساب إلى الماء .. تتوالى في هدوء وصمت .. وفي أماكن
متفرقة من الشاطئ تنزل كما تنزلق التماسيح .. بثقة وقوة .. وبغير صجيج ولا
رشاش .. تشد السلاح والذخيرة إلى ظهورها في غطاء واق من الماء .. وتسبح
تحت الماء في دفعات قوية هادئة نحو الشاطئ الآخر .

ووقف محمود وراء إحدى الدشم يرقب الأجسام تختفي في الماء . عبد العزيز
صلاح . صبحي . زينهم . لبيب .. وتوالى الباقون ينزلقون الواحد بعد الآخر
وكل شيء يجري على الشاطئ في مجراه الطبيعي .. الصلاة والصيحات وحركة
العربات ..

وألقي محمود نظرة على الشاطئ الآخر ..

كل شيء هادئ بكل شيء يبدو في حالته الطبيعية، لا شيء ينم على أنهم يحسون
بشيء ما .. أو يتوقعون شيئا ما ..

ولف محمود حول الدشمة ، وفي ثانية .. كان قد اختفى في الماء .

سرت في جسده رجة الماء البارد ..

غريبة ، لم يكن بظنه بمثل هذه البرودة فالشمس مشرقة ، والجو يبدو دافئا ، وبكل ما يملك من قوة مخزنة ، ضرب الماء بذراعيه ، وضم ساقيه بعنف فاندفع جسده يشق طريقه تحت الماء ، وأمسك أنفاسه ، ثم ضرب الماء بذراعيه ، وعاد يضم ساقيه بكل ما يملك من قوة .

وبعد لحظات ، أحس يرمال الشاطئ الآخر تحت قدميه .
وبحذر شديد رفع رأسه ، وجذب نفسا طويلا ، أنقذه من الاختناق ثم تلفت حوله ، فلم يصبر من أولاده سوى رعوس تكاد تدفن في الرمال ، فبدأ يسحب جسده ببطء أسفل حائط الرمال ، وأخذ الأولاد يتبعونه زاحفين في حذر شديد ، يدورون حول الجرف .

وكادت الأنفاس تحتبس في صدورهم ، وهم يقطعون الخطوات القليلة الباقية بينهم وبين الموقع الإسرائيلي .

وأحس محمود بالخوف .
إنه يكره أن يخونه الحظ .. فيكتشف العدو وجودهم في الخطوة الأخيرة ..
وتنتهى العملية بالفشل .

لم يطف الموت بذنه في هذه اللحظة قط ، ولو طاف ، لا حتقره ، فهو لا يشكل في هذه اللحظات تهديدا بآلم ، وإنما يشكل منعاً لمهمة ، وتعجيزاً عن أداء واجب ، وهو قد خرج ليفعل ما يريد أن يفعل ، لا يقبل أن يحول بينه وبين ما يريد شيء ، حتى الموت ، إنه يرفضه ، كمنعقل لمهمته ، وليس كموقف لحياته .
فقيمة حياته في هذه اللحظات ، هي تأدية هذه المهمة .

إنه لا يرفض الموت ، ولكنه يرفضه الآن ..
ومن أجل هذا أحس بالخوف ، وهو يخطو الخطوات القلائل الحاسمة .
إنه يكره أن يخونه الحظ .. فيكتشف الإسرائيليون وجودهم ، وهم يطلون عليهم فيحصدونهم بيضع دفعات من رشاش في يد جبان .
بضع خطوات أخرى تقودهم إلى المواجهة .

فقط .. هذا هو ما يريد .

أن يقف وأولاده أمامهم ، وسلاح كل في يده .

تلك هي أمنية عمره الدائمة .

ولم يبق دونها غير خطوات .

وبغير إرادة .. قرأ الفاتحة ..

تلاها بسرعة ، خلال الخطوات الباقية ..

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * إياك نعبد وإياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ آمين .
وقادته آمين .. إلى الخطوة الأخيرة .

وكان كلام الله يتردد على ألسنة معظم الأولاد .

قرأ محمود آية الكرسي ، التي تعود أن يقرأها قبل كل امتحان .. وتعود بها أن

يمر بنجاح .

ولم يستطع صلاح أن يمنع الخوف من أن يتسلل إلى نفسه ..

لم يكن خوفا على حياته من أجل حياته .. بل كان خوفا على حياته من أجل

أمه والصغار من أخواته .

علمته سنوات السجن التي نزعته أباه من بينهم .. أن يحمل هو وحده

مسئولية الأم والصغار .

علمته أن يخاف على حياته . من أجلهم وألا يتركهم ويهرب كما فعل أبوه ..

وفكر عبد العزيز في سعدية ، ولكنه لم يلبث أن طرحها ، هي وما في باطنها

جانبا .

لم يكن يشعر بالخوف من الخطوات الأخيرة ، كانت لهفته على المواجهة أقوى

من خوفه من أى شيء ، أقوى حتى من خوفه من رصاصة تقضى عليه قبل

المواجهة .

كان يشعر بثقة شديدة ، ثقة عمياء ، أو بلهاء ، قد تدفعه إلى أن يقفز قفزة يقطع بها الخطوات الباقية ، دون أن يخشى أن تكشفهم القفزة للعدو فيحصدهم برصاصه قبل أن يتمكنوا من مواجهته .

وفي الخطوة الأخيرة ، صمت الألسن ، حتى كلام الله الذى استعانوا به لينحهم العون فى اللحظات الأخيرة ، جمد على شفاههم .

وأصبحت الأنفاس .. لفحات ربح .. ودقات القلوب مطارق .. وأشار محمود بيده محاولاً أن يهدئ الأولاد ، ولعله كان يساعد بحرسته على تهدئة نفسه .

وخطا الخطوة الأخيرة .. لتقودهم أمام الموقع .. كانت المفاجأة كاملة ..

كان جنود العدو فى الموقع يمارسون عملهم اليومي العادى .. واحد يقرأ ، والآخر ينشر قميصه .. وآخران يلعبان الشطرنج ، وآخر يتمطى واثناً فى المراقبة يواجهان الشاطئ بسلاحهما .

ونظر الجنود إلى محمود وجماعته ، وقد شلتهم الدهشة ، وصرخ أحدهم ، والتفت جنديا المراقبة ورفعاً سلاحهما فى مواجهة الجماعة .

وقبل أن يلمس أصبعهما زناد الرشاشين ، كانت بضعة رصاصات قد استقرت فى صدريهما من الرشاشات المصرية ..

واندفع الجنود الإسرائيليون بأسلحتهم من داخل الموقع على صدى الصياح .. والطلقات ..

وبدأت المعركة .

وانقلب الموقع إلى قطعة من الجحيم .

دمرت القطع المدرعة الظاهرة على أرض الموقع .. بمدافعها، ودمر مركز الاتصال بكل ما فيه .

وقضى على كل من بدا خارج الدشم المسلحة من الجنود الإسرائيليين .

— ١٥٥ —

وسقط جنديان مصريان .. ليب .. وزينهم ..
 وبدأ الهجوم داخل الدشم .
 بدأ صراع المواجهة .. وجهها لوجه .. ويبدأ ليد .
 الغل والحقد ، في وجوه المصريين .
 الرغبة الدفينة في الثأر ، لكرامة جيش وكرامة شعب .. الثأر لعشرين ألف
 قتيل .
 والارتياح على وجوه الإسرائيليين .. يقفون بغير أدوات تفوق .. بغير
 تكنولوجيا .. بشرا لبشر .. أو حيوانا لحيوان .
 وهجم عبد العزيز على جندي ممتلىء أحمر الشعر ..
 ولم يخف الجندي السلاح الذي في يد عبد العزيز ، بقدر ما أخافته التعبيرات
 المرتسمة على وجهه .
 هتف الإسرائيلي باللغة العربية :
 — أنا في عرضك يا مصرى ، لا تقتلنى ..
 ونظر إليه عبد العزيز وعظام أصداغه تتلاعب وسأله في دهشة :
 — أتحدث العربية يابن الـ ..
 وانطلق سيل من السباب من شفتى عبد العزيز :
 فصاح الإسرائيلي في خوف :
 — لماذا تشتمنى ؟ ..
 ورفع يديه إلى أعلى قائلاً في ذلة :
 — أنا سلمت ، أنا أسير .
 ودفعه عبد العزيز أمامه خارج الموقع وهو مستمر في السباب :
 — فوت يابن الـ ..
 وأبصر محمود عبد العزيز وأمامه العسكرى الإسرائيلى فهتف به :
 — ما هذا ؟

— أسير .

— ماذا تفعل بالأسرى ، لماذا لم تقتله ؟

ورد عبد العزيز ببساطة :

— لقد رفع يديه وقال أنا في عرضك يا مصرى لا تقتلنى .

وبدت الحيرة على وجه محمود ثم سأل عبد العزيز :

— أخذت سلاحه ؟

والنفث عبد العزيز إلى العسكرى الإسرائيلى :

— أملك سلاح ؟

— لا ..

ومد عبد العزيز يده يتحسس جيوبه وجسده ثم قال له :

— ابقى هنا ، ولا تتحرك ، وإلا أفرغت الدفعة الباقية فى رأسك .

وكان هناك جزء من الموقع لم يزل فيه بضعة جنود إسرائيليين يتبادلون

الطلقات مع الجنود المصريين . واتجه محمود نحو الموقع ..

قال محمود :

— يجب أن نرحل بسرعة ، قبل أن تأتى الإمدادات من الموقع المجاور ..

رد عبد العزيز :

— لحظة واحدة .. ننتهى من هؤلاء الكلاب ثم نعود .

ووثب عبد العزيز تجاه الموقع .

وفى لمح البرق انحنى العسكرى الإسرائيلى الأسير على قتيل إسرائيلى بجواره

وسحب سلاحه ثم صوبه نحو عبد العزيز وأطلقه فى ثانية .

وتعثر عبد العزيز ثم سقط .

والنفث محمود جزعا ووجد الأسير الإسرائيلى يصوب سلاحه نحوه ويهم

بإطلاقه ، فعاجله محمود بطلقة أردته قتيلا .

وقفز محمود نحو عبد العزيز يفحص جرحه وهو يقول :

— قلت لك اقله .

ولم يجب عبد العزيز ، كان الألم يبدو على وجهه وهو يقول :

— لا أريد أن أموت .

ثم استدرك يقول قبل أن يرد محمود :

— لا أخاف الموت ، ولكن لدى شيئا أريد أن أفعله ..

وازدرد ريقه ثم استطرد يقول :

— لم يخطر ببالى أنى سأصاب ، كنت أعرف أنى سأعود كما عدت دائما ..

ولهذا سمعت أمرك .. وعدلت عن النزول .

وهتف محمود :

— ستعود يا عبد العزيز . شد حيلك ، انهض واستند إلى ذراعى هيا ،

بسرعة .

وحاول عبد العزيز أن ينهض .

وأطلق صيحة ألم مكتومة :

— ياه ، أنا تعبان ..

ثم صمت محاولاً أن يكتم صيحة الألم فى صدره ، ثم استطرد يقول :

— تعبان أوى يا فندم .

وأشار محمود إلى الجنود الذين انتهوا من تدمير بقية الموقع .

— هيا ..

وبدأت أصوات جنازير الدبابات تقترب ..

وعاد محمود يهتف :

— صلاح ، يلا بسرعة ، إنهم قادمون ..

واقترب صلاح فأبصر عبد العزيز مكوما على الأرض وهو يكتم صيحته

ويخرج من بين أسنانه صوتا أشبه بالحشرجة :

— ياه ..

وهتف صلاح :

— ماله ؟ ..

— ضربه ابن الكلب في ظهره !

— ابن الكلب من ... ؟

— عسكري رفع يديه ، وقال إنه فأخذ أسيرا .. ثم تناول بندقية أحد القتلى
وضربه في ظهره .

وانجنى صلاح فوق عبد العزيز ووضع يده حول جسده وحاول أن يرفعه
قائلا :

— قم يا عبد العزيز ، هيا .

ورد عبد العزيز وهو يهتف :

— مش قادر يا فندم ، شىء يتمزق في جوفى .

— سأحملك ، فقط ساعدنى .

وبدأ عبد العزيز يتحامل على ذراع صلاح ، واقترب بقية الجنود . وأقبل
صباحى يساعد صلاح فى حمل عبد العزيز

وقال محمود وهو يسمع صوت الدبابات تقترب :

— يللا يا جماعة بسرعة .

واندفع الجنود يهبطون نحو الماء .. وهروا صلاح وصباحى وهما يحملان عبد
العزيز وقد أغرق الدم ثيابه وأخذت قطراته تتساقط على الرمال .

وبين آونة وأخرى يشد عبد العزيز ذراعيه حول عنق صاحبيه وكأنه يقاوم ألما
شديدا ويصيح من بين ضروسه :

— ياه .

ويقول صلاح وهو يتمزق ألما :

— معلش يا عبد العزيز سنصل حالا ، وستذهب إلى المستشفى .

ويرد صباحى :

— ١٥٩ —

- شد حيلك يا عبد العزيز .
- ويهتف عبد العزيز في نبرة إصرار حائق :
- لا أريد أن أموت ..
- لن تموت يا عبد العزيز !
- ويرد صبحي والعبرات تخلق صوته :
- ربنا معاك .. انت راجل !
- ويرد عبد العزيز كأنه ينفي عن نفسه تهمة :
- لا يهمني الموت ، ولكني فقط أريد أن أنزل لأتزوجها .
- وخيل لصلاح أنه يهذى فرد مهدئا وهم يقتربون من صفحة الماء :
- ستنزل يا عبد العزيز وتتزوجها .
- وقال صبحي :
- ربنا ينجيك وتفعل كل ماتريد !
- وقال عبد العزيز في إلحاح بعد أن أطلق آهة ألم :
- لا أريدها أن تجهض .
- ثم استطرد يقول لصلاح في عصبية :
- سامع ؟ ! .
- أجل ..
- واحد منكم يذهب إليها لينعها من الإجهاض !
- من هي ؟
- سعدية .
- سعدية من ؟
- وبدأ الهبوط في الماء .
- وغطست الأجسام المترية المبللة بالعرق في مياه القناة الباردة .
- وصرخ عبد العزيز صيحته المكتومة :

نَـيَاه .

وقال صلاح :

— اصبر يا عبد العزيز ، استند علينا ضع يدا على كتفى واليد الأخرى على كتف صبحى .

وهتف عبد العزيز :

— مش قادر ، تعبان قوى .

وقال صبحى :

— اصبر يا عبد العزيز ، خلاص ، سنصل حالا ..

وأحس محمود بيد عبد العزيز لا تقوى على الاستناد إلى كتفه . فمد ذراعه اليمنى واحتضنه خشية أن ينزلق إلى الماء بذراعه اليسرى ، وأمسك صبحى يساعد عبد العزيز بيده الخالية وهو يضرب الماء بيده الأخرى .
وعاد عبد العزيز يطلق صرخته المكتومة التى تمضغ الألم :

— ياه .. ياه ..

— خلاص يا عبد العزيز !

— أحدكم يذهب إليها .. ليمنعها .

— حاضر !.

— يلحقها قبل أن تنزله .

— حاضر !.

ولم يحاول صلاح أن يفكر فى من هى التى يجب أن يلحقها ولا الذى يجب أن يلحقها قبل أن تنزله ، ولكن « حاضر » كانت على شفثيه ، نوع من المسكن يهدى به الفتى الجريح الذى يتمزق باطنه .

وأحس صلاح بالجسد الجريح يسترخى تحت ذراعه .

كف عن الآهة ، وكف عن الألم ! .

وسرت فى جسده رجفة وهو يضرب الماء .. ويسمع الدوى يتصاعد من

حولهم ..

بدأت المدفعية المصرية تضرب المواقع الإسرائيلية بعد أن أدركت أن القوة المصرية قد أخلتها ..

وبدأ الإسرائيليون يردون على المدافع المصرية ويحاولون ضرب القوة المصرية أثناء عبورها للعودة .

وأسرع صلاح يضرب الماء بسرعة ، وقد سبقه الجنود إلى العبور وانطلقوا على الشاطئ يهتمون في الدشم .

قال لعبد العزيز وهو يجد قواه قد خارت تماما :

— اجهد يا عبد العزيز !

وهتف صبحي :

— خلاص وصلنا !

ولم يجب عبد العزيز ..

ووضع صلاح يده على رمال الشاطئ ثم جذب الجسد الخائر من المياه بمساعدة صبحي .

وأطلق عبد العزيز صيحة ألم فاترة .. مجرد آهة خافتة .. لم تستطع قواه الخائرة أن تلفظ مرارة ألمه .

— آه .. خلاص ؟

وعاد يردد رجاءه :

— واحد منكم يذهب إليها ، أنا سأزوجها ، والله العظيم الست النقية تعرف هذا ، وكانت ستجعلني أنزل ، ولكن سيادة المقدم أمرني بالعودة فعدت .

ثم تتم بصوت خافت :

— لم أكن أعرف أنني سأموت ، لم أمت في المرات السابقة ، كنت أعود

دائما .

(العمر لحظة)

وسحب صلاح عبد العزيز من المياه وحمله حملا مع صبحى ، وهروا به إلى أقرب دشمة ، والدوى يتصاعد ، والانفجارات تتوالى فى كل مكان .
وصعد محمود من المياه ، كان آخر من صعد ، انطلق فى أعقاب صلاح وحمله المسجى على كتفيه .

وصل إلى داخل الدشمة .
الثياب تقطر منها المياه ، وعلى الشفاه ملوحة البحر .. ورجفة برد تسرى فى الأجساد ، وصوت الدوى يتلاحق فى الخارج ، فرقعة وصوت دك ، وانفجارات تندرج كالرعد .

والإنسان يتحرك بغير إرادة ، وبغير تفكير ، وبغير شعور ، كل ما يدخل فى باب الإرادة قد تحجر ، والمشاعر قد جمدت
يفرح لماذا ، أو يحزن لماذا ، ليس يدري .

ووسط الدشمة المظلمة التى لا يضيئها إلا بصيص من شعاع النافذة المستطيلة الضيقة ، وقف محمود ليلتقط أنفاسه .

هزته رجفة برد ، والثياب المبتلة تلتصق بجسده .
التقط أنفاسه ، وجد صلاح يجلس على صندوق خشبى من صناديق الذخيرة وقد دفن رأسه فى كتفيه .

صبحى جذب مشمع فرش . ووضع على جسد عبد العزيز الممدد على الأرض .

لم يرفع صلاح رأسه من كتفيه ، ولم يقف لتحية القائد .
لم يكن يشعر بأنه قادر على أى شئ .

وقف محمود وسط الدشمة .. جسده الطويل انحنى .. ورأسه سقط نحو صدره .. ازدد ريقه .. لم يعرف ماذا يقول ؟

كان صبحى أول من تحدث ، قال باختصار :
— مات ! ..

ورفع محمود كفه بمسح جبينه وعينيه .. كره أن تمسك مشاعر الضعف بتلابيبه ..

لم يكن أول عسكري يموت منه في معركة .
لماذا يشعر إذن بهذا الانكسار والانقباض في صدره .
يود أن يصرخ ، أن ييكي .
ولكن يجب عليه ألا يترك نفسه لمثل هذه الانفعالات السخيفة . يجب أن ينطلق إلى الخارج بعيدا عن الجسد الميت .
يجب أن يواصل عمله ، يصدر أوامره .. ويلم شعثه ، ويحصي خسائره ، ويعطى تقريراً للقيادة بنتيجة العملية .

بلاغات عسكرية مفروضة أن تعلن .. بما حدث .
يجب أن يخرج من هذه الدثمة المظلمة وأن يستحم ويغير ملابسه ..
ولكنه يشعر أنه مشدود إلى هذا الجسد .
مشدود بحزن وألم ومرارة ..
إنه لا يعنى أكثر من رقم في تقرير .. « خسائر ٢ قتلى ، وثلاثة جرحى » ،
أحد خمسة ، لا يأخذون أكثر من رقم في تقرير وانتهى الأمر ، ولكنه ، لا يشعر أبداً ، أنه يستطيع أن يحوله كذلك .

كان مخلوقاً مميزاً عنده، بصفائه وأخلاصه وشجاعته .
ولقد جره من العيادة .

جذبه من فراشه في المستشفى .

دون أن يعرف ما به ! ..

قال له — عندنا شغل — ثم سأله :

— أنت مريض ؟

قال : لا ..

سأله :

— أتريد أن تنزل إلى مصر ؟

— قال : — لا ..

قال له انتظرني في العربة سنعود معا إلى المعسكر .

وأجاب ببساطة :

— حاضر يا فندم .

وفي المعركة ، صدق العسكرى الإسرائيلي ..

وقال له لا تقتلني يا مصرى فلم يقتله ، وقتله هو ..

أترأه أذنب في حقه ؟؟

— أجل .. أذنب مرتين .

لم يحاول أن يعرف ما به .

قالت له نعمت إنه نصاب بانهيبار فسخر منها ، ومن كل علاجها النفسى ..

قال لعبد العزيز ببساطة : «عندنا شغل »

نسى الفتى كل شيء وسار معه .

هذه مرة .

والمرة الثانية ، إنه لم يقتل الأسير ، إنه أكثر خبرة منه ، فلماذا تركه لحسن نيته

وطيبة خلقه ؟ .

كان يجب أن يأمره بقتله ، أو يقتله هو بنفسه ، وبزيادة قتيل ..

لقد قتلوا كل من في الموقع ، وكانت العملية كلها عملية تدمير ، لا تحمل

الأسر .

ولكنه أقنعه بحسن نيته ، قال له إن الرجل رفع يديه وسلم وإنه اعتبره أسيرا ،

ونجس هو أن يقول له اقتله .

ومرة أخرى سرت رجة البرد في جسده .. يجب أن يرحل ..

يصدر أوامره بالتعليمات الواجبة ثم ينصرف ..

ولكنه بغير وعى انحنى على الجسد رفع المشمع عن وجهه .

أحس بحنين شديد بدفعه إلى أن يقبله .. انحنى عليه ومس جبينه بشفتيه .
وضغط بأسنانه على شفتيه ..
هذه الدموع المخجلة تأبى إلا أن تتساقط ..
وتركها تتساقط في صمت لتبلل الوجه الأسمر .. ثم استدار وهو يزدد ريقه
مع ما استطاع أن يمتصه من الدموع ..
ووقف منتصب القامة . قال لصلاح :
— ينقل إلى القاعدة .
ثم التقط نفسه واستطرد يقول :
— أريد أن أتم على العساكر .
ووقف صلاح ينفض عن نفسه أحمال الأسى والحزن :
— حاضر يا فندم .
— يجب أن أعود إلى المكتب لإبلاغ القيادة بما حدث ..
— ألن تغير ملابسك ؟
— أجل .. عندما ينتهى هذا الجحيم الذى حولنا ..
وبعد برهة خف الدوى ..
سقط قرص الشمس وزحفت الظلمة ..
وغادر محمود الدشمة .. متجها إلى مقر قيادته حتى يغير ملابسه وكان أول ما
لقيه بباب الدشمة .. عربية تقف وتنزل منها نعمت .. وإذا بكل منهما يجد نفسه
فجأة أمام الآخر ..
لم يجسر أحد منهما على أن يفعل ما يشعر أنه فى حاجة إلى أن يفعله .
لم تثب لتضمه إليها ولم يأخذها فى لفة بين ذراعيه نظرت إليه فى صمت . كل
ما استطاعت أن تقوله هو كلمات خائفة تمت بها :
— أنت بخير ؟ ..
وأطلق هو زفرة قصيرة ثم سألها :

- ماذا أحضرك ؟
- سمعت الدوى .. فقلت إن الشيء الذى كنت أتوقعه قد بدأ وأسرعت لأطمئن عليك ؟
- وعاد يزفر قائلاً فى كلمات مقتضبة :
- الحمد لله ..
- وتساءلت نعمت فى قلق :
- لا تبدو على ما يرام ؟
- أبداً ..
- ماذا حدث ؟
- عبرنا القناة ..
- وماذا فعلتم ؟
- دمرنا الموقع ..
- كانت العملية ناجحة ؟
- جداً ..
- إذن لماذا أنت حزين ؟ ..
- مرهق فقط ..
- إذن لماذا لا تسرع فى إبدال ملابسك ؟
- سأذهب الآن ..
- وخرج صلاح من الدشمة وقد بدا مطأطئ الرأس . فهتفت به :
- صلاح .. كيف حالك !
- الحمد لله ..
- وأحست نعمت أن جواً من الحزن يخيم على الجميع فتساءلت :
- ماذا بكم ؟
- وببساطة رد عليها صلاح :

— عبد العزيز مات ..

وأحست نعمت كأن مطرقة هوت على رأسها وعادت تتسائل غير مصدقة :

— مات ؟ .. عبد العزيز ؟

وضاق محمود بموقف الانفعال الذى يوشك أن يحدث ، فقال فى عجلة وبغير شعور : نفذ التعليمات التى أصدرتها إليك وسأذهب لتغيير ملابسى .

التفت إلى نعمت قائلاً :

— أظن من الخير أن تعودى إلى المستشفى . الدنيا ليلت ... والطريق مزعج

بالليل ..

ولكن نعمت لم تسمع حديثه . كانت مأخوذة بخبر موت عبد العزيز ..

وعادت تسأله غير مصدقة :

— عبد العزيز .. مات ؟

وقال محمود فى شىء من القسوة :

— البعض منا لا بد أن يموت .. لقد عبرنا القناة .. وقتلنا اليهود .. هذه أنباء

طيبة ..

ولكن نعمت استمرت تقول وكأنها تحدث نفسها :

— كان يريد أن ينزل .. كان يريد أن ينصف نفسه .. وألا يكون جباناً فى أى

مكان ..

ثم التفتت إلى محمود متسائلة فى حزن :

— لماذا لم تدعه ينزل ؟ ..

ورد عليها محمود فى حزم :

— نعمت .. أرجوك .. عودى إلى المستشفى ..

واستطردت تقول :

— لماذا أصررت على أن تأخذه معك .. لقد كان يريد النزول .. لكى يكفر

عن ذنب جناه .. فلماذا لم تتركه يفعل ؟

— ١٦٨ —

وزفر محمود زفرة ضيق ثم أمسك بذراع نعمت يجرها نحو العربة قائلا :
 — نعمت .. من فضلك .. ليس هذا وقته .. نحن نفعل ما يجب أن تفعله ..
 نحن لا نعرف من سيموت منا ومتى ؟ .. وأين ؟ . حتى نكف عن إصدار أوامرنا
 للناس كي لا يموتوا ..
 وبصوت يلفه الأسى والحزن ..
 — أرجوك يا نعمت .. إن بي ما يكفيني .
 وردت نعمت قائلة وهى تشد على ذراعه :
 — أنا آسفة .. آسفة جدا .. سأعود إلى المستشفى .. وأرجو أن أراك في
 أقرب وقت . وقبل أن أعود إلى القاهرة ..
 وأمسك محمود بذراعها وقال في حزم :
 — لن تعودى إلى القاهرة .. قبل أن أراك ..
 — حاضر ..
 واتجهت نعمت إلى العربة .. واتجه محمود إلى مقر قيادته واتجه صلاح إلى
 الدشمة .. لينقل الجسد المسجى إلى القاعدة .

(١٠)

قبيل الرحيل

لم تستطع نعمت أن تفعل شيئا سوى أن تعود إلى المستشفى . تثقل نفسها
انفعالات صاخبة تكاد تفجرها .

وبين كل هذه الانفعالات التي تحيش بها نفسها .. ومن خلال أصدقاء الدوى
.. وفرقة الانفجارات .. كان ثمة صوت يلح عليها بنبراته الحادة ولهجته الملحة في
إصرار :

— أريد النزول ..

كانت تستطيع أن تقاوم محمود .. وأن تصر على التصريح لعبد العزيز
بالنزول .

ولكنها لم تكن تدري أن ما حدث يمكن أن يحدث ..
نحن لا نعرف ما سيحدث غدا حتى نستطيع أن نحدد حركاتنا في إطاره ..
بحيث نقدم على هذا الأمر .. أو نخذر من ذاك .
« لا أظنني احتجت هنا إلى شجاعتني لكي أنفذ أمرا بالتقدم .. لكي أهجم
على موقع .. لكي ألقى قذيفة .. هذه كلها أشياء نفعلها ببساطة كجزء من عمل
أى إنسان .. »

ولقد تصرف عبد العزيز فعلا كما قال ..
أنبأه محمود أن لديهم شغلا .. وطلب منه أن يرتدى ملبسه .. ويذهب إلى
المعسكر .. فلم يزد على أن رد قائلا : « حاضر يا فندم » ..
ثم ذهب .. ولم يعد ..

مات .. ببساطة .. كما قال : الذين يموتون منا .. لا أظنهم احتاجوا إلى شجاعة
وهم يواجهون الموت .. إن الموت هنا لا يمنحنا حتى فرصة الخوف منه .. وسط
الضجيج والدوى والغبار والدخان .. تفلت شظية أو رصاصة .. لتنفذ في أحدنا
فيسقط ..

وسقط الفتى الأسمر .. بشظية .. أو رصاصة ..
مات ..

وكما قال أيضا : .. نحن لا نرى الموت إلا في أشلاء أجسادنا .. وعند ذلك لا
يثير في نفوسنا الخوف بقدر ما يثير الحنق والحقد . والرغبة في الثأر ..
ولكنه بالنسبة لها .. قد أثار الخوف .. والحزن والأسى ..
ربما لأنها لا تملك القدرة على الثأر ..

ربما لأن موته .. أكد لها أن الموت هنا ممكن ببساطة .. وأنها لا تملك إلا أن
نفاجأ به .. في أشلاء أحبابنا ..

واستلقت على فراشها بملابسها .. مشدودة مجعدة .. لو أنها استطاعت أن
تبقى بجوار محمود .. لكان ذلك أبعث على راحتها .. فإنها تستطيع أن تفعل شيئا
.. تدرك أنه خطرا .. حتى لا تفاجأ بالموت في أشلاء الأحياء .. أتى وذهب .. ليترك
آثاره .. ويضع بصماته . ونحن نرقب في استسلام وعجز .
وطرق باب الحجره ..

ونفضت من فراشها في عصبية قائلة :

— ادخل ..

وفتح الباب . وسمعت صوتا يستأذن في الدخول قائلا :

— أنا رشاد ..

— اتفضل ..

ودخل الدخيل رشاد ونظر إليها في دهشة متسائلا :

— ماذا بك ؟ ..

— ١٧١ —

— لا شيء ..

— تبدين مرهقة .

— لقد عدت الآن من المواقع ..

وتساءل رشاد في دهشة ١٩

— الآن .. الآن ؟

.. ثم استطرد يقول قبل أن يجيب :

— لقد قاموا بعملية عبور ناجحة جدا . لقد دمروا الموقع الإسرائيلي بأكمله

وكانت خسائرنا ٢ قتلى و ٣ جرحى ..

قالها رشاد بطريقة تقريرية .. لا يشكل فيها القتلى والجرحى .. سوى مجرد

أرقام في .. إحصاء الخسائر والأرواح

وقبل أن ترد نعمت استطرد يقول :

— سنعود غدا إلى القاهرة !

وتساءلت نعمت في دهشة ؟ .

— لماذا ؟ ..

— انتهت مدة المهمة ..

— ألا نستطيع أن نبقي فترة أخرى .

— بالنسبة لى لا بد أن أعود لأن لدى ما أريد إنجازه في القاهرة .. وصمت برهة

ثم استطرد متسائلا :

— وبالنسبة لك .. لأدري لماذا تريد البقاء — المفروض أن يكون لديك

ما تقومين به في القاهرة لهؤلاء الذين جئت لبحث حالتهم ..

وشرد ذهن نعمت لحظة ..

هذا هو المفروض ..

بل لقد كان عليها أن تعود قبل الآن إلى القاهرة .. ولكن شيئا في أعماقها كان

يشدها إلى هنا ..

شيئا خفيا على الغير .. ولكن ليس خفيا على نفسها ..
ولكن عندما تفكر الآن .. تحس أن عليها أن تعود ..
إن من حق هؤلاء .. الذين وعدت بأن تبذل جهدها لحل مشكلاتهم أن تعود
فعلا لتقوم بهذا الجهد ..
من حقهم أن تذهب إلى بيت صلاح .. لترى أخواته وأمه وتحاول أن تحصل
على الترخيص الذى يريده أبوه من أجل إعالة أسرته ..
من حقهم أن تفعل شيئا لعبد العزيز ..
أن تذهب للقاء سعدية .. وتخبرها أن الفتى لم يكن جباناً .. وأنه كان مصمماً
على العودة إليها لكى يتزوجها ويصبح أباً لابنها ..
ومن حقه عليها أن تقدم لها كل ما تستطيع من مساعدة .. من أجل الخلاص
من الجنين .. إذا كان ما يزال باقياً . وبقاؤها هنا — رغم رغبتها فيه — لن يكون
له ما يريره .. بل سيبدو مفتعلاً .. وسيثير الأقاويل والشائعات .. وهى تكره أن
تجعل منها ومن محمود قصة تلو كها الألسن وتتناقلها الشفاه ..
ثم هى لا تريد منه شيئا .. ولا تملك له شيئا ..
والمشاعر التى تشدها إليه .. لا تحتاج إلى مظاهر ملموسة لكى تمارسها من
تحلالها .. فهو كائن فى أعماقها .. كائن .. عزيز .. عزيز ..
ولم تجد هناك بدا من الرحيل ..
ولكنها تمتنت لو استطاعت أن تلقاه قبل الرحيل ..
أن تقول له شيئا .. وتسمع منه شيئا ..
ونظرت إلى رشاد .. وتساءلت :
— متى سنعود ؟
— فى الصباح .
— ألا يمكن تأجيل الرحيل إلى ما بعد الظهر ؟
— الصباح أفضل . ولكن إذا شئت أن نؤجله إلى ما بعد الغداء .. كما

تشائين ..

— أفضل هذا .. حتى تكون لدى فرصة مرور أخيرة على بعض المواقع .

— أمرك ..

وغادر رشاد الغرفة .. وعادت نعمت مرة أخرى إلى وحدتها .

أبدلت ثيابها واغتسلت .. .

تناولت قرصاً مهدئاً .. وحاولت أن تنام ..

ولم يسهل عليها اصطلياد النوم إلى جفניה ..

انطلق ذهنها .. يقلب الصفحات ..

ما كل هذا الخضم الذى زجت بنفسها فيه ..

وما آخره ..

كانت تضيق بشائعات تطلق .. وزوج يلهو ..

وباستثناء هذا كانت الحياة تسير .. رتيبة هادئة . ولكنها ضاقت بها واثارت

لكرامتها .. وأثارت زويرة لأن زوجها عبد القادر كان على علاقة بزينات شكرى

المثلة .

وانطلقت هى هاربة من تلك الحياة ..

لتجد نفسها غارقة فى الحب إلى أذنيها .

يمكنها أن تنكر هذا أمام الناس .. وتستطيع أن تثبت بكل دليل أنه ليس هناك

أى شيء .. ولكن أمام نفسها .. أتستطيع أن تنكر ؟ .

وزجت بنفسها فى غمار حياة الآخرين .. حياة صاحبة مضطربة . لتخفف

من هموم الناس وتحمل مآسهم ..

رفاقها القدامى .. كانوا أقل هموماً .. وأتفه مشاكل .. كانت متاعبهم : علاوة

منعت .. أو اسما على مقال حجب .. أو وضع بنط أقل من البنط الذى وضع به

اسم محرر آخر .. أو عنوان مقال لم يتضمنه الإعلان عن العدد .. بعد وضع عنوان

مقال لمحرر آخر .. فى الإعلان ..

وهربت من هذه المشاكل التي كان الزملاء يرونها مآسى ..
لتجد المآسى الحققة .. ترقد ببساطة تحت مشمع فى دشمة .. لتجد الموت ..
يقع — خلسة — من شظية تنحرف بمنة — كما يقولون — أو رصاصة تنحرف
يسرة ..

على أية حال ستغادر هذا كله غدا .
لن يبقى منه إلا التزامها بمساعدة هؤلاء الأبطال .. فى حل مشاكلهم
الخلفية ..
ولن يبقى منه .. سوى حب فى الأعماق .. سيضم مع الزمن .. ويدوى مع
الأيام ..

فقط .. تريد كلمة وداع ..
لا تريدها وداعا .. وداعا ..
ولكنها .. تريدها .. مجرد كلمة .. أو نظرة .. غدا تذهب إلى الموقع ..
ستدعى أنها تريد أن تسمع من هذا كلمة .. أو تقول لذلك كلمة ..
ثم تراه ..
لا تظن لقاءه بالشئ الصعب .. فهو بضجيجه وصخبه .. غرض واضح ..
يمكن أن يكتشف وجوده ..

ثم .. إنه من حقه عليها أن تذهب إليه لتشكره .. وتقول له كلمة وداع ..
أجل .. أجل ..
ستفعل هذا غدا ..

وأغفت .. لتصحو على طرقات ..
ظنته رشاد مرة أخرى .. جاء ليقول شيئا عن رحيل الغد ..
— من ؟

أجاب الطارق :

— أنا ..

— ١٧٥ —

وكان هو .. بصوته الأجش .. العريض كمنكيه .
وقفزت من فراشها لتضع على جسدها معظفا .. وتخلع ذلك المنديل الذى
عصبت به رأسها .. وأجرت المشط بسرعة على شعرها وهى تقول :
— دقيقة واحدة ..

وفتحت ..
كان محمود يقف بالباب ..
استحم .. ومشط رأسه .. وأبدل ثيابه .. وأزال عنه بهدلة المعركة .. ولكن
الإرهاق والهم .. كانا ما زالا مستقرين على وجهه وفى أعماقه ..
قال معتذرا :

— أقلقتك ؟

— أبدا .

— آسف .. كان يجب أن أنتظر حتى الصباح .. ولكنى لم أستطع .. ولم أكد
أنهى الواجبات المحتم عملها .. حتى أتيت إليك ..
— لا داعى للاعتذار .. فالوقت ما زال مبكرا ..
— ولكن تبدين أنك قد استغرقت فى النوم ؟
— لم يكن لدى ما أفعله .. وكنت مرهقة .. فغفوت ..
— أتودين أن أتركك لتستريحى ؟
— أبدا .. سأرتدى ملابسى وآتى إليك حالا ..
— سأنتظرك فى الميس ..

وعبر محمود الممر واجتاز الحديقة إلى مبنى الميس .. واستقر فى حجرة الجلوس
الصغيرة يتشاغل بإدارة مفتاح الراديو .
وأقبل العسكري يحيه ويسأله عما يريد ..
سأله محمود :
— عندك ساندوتش ؟

— ١٧٦ —

— لا ..

— اعمل فنجان شاي ..

— لا يوجد شاي ..

— اعمل قهوة ..

— لا يوجد بن ..

— عندك كوكاكولا ؟

— أحضرها لحضرتك من ميس العساكر ؟

ونظر إليه محمود في غيظ قائلاً :

— لماذا إذن تسألني عما أريد ؟ .. إذا لم يكن لديك شيء ؟

ثم صرخ فيه :

— غور .. عسكري غبي !؟

وتتم العسكري معتذراً :

— سيادتكم .. إذا كنت تريد ..؟

— انتبهنا .. لا أريد شيئاً ..

وأقبلت نعمت على صوت صياحه .. فتساءلت في دهشة :

— ماذا حدث ؟؟

— هذا الغبي .. أتى إليّ يسألني عما أريد .. وطلبت أي شيء .. فلم أجد عنده

شيئاً .. حتى فنجان القهوة ! ..

وسألت نعمت في استنكار :

— ألا يوجد عندكم بن ؟

— خلص الآن ! ..

وهمت نعمت بالاتجاه إلى غرفتها قائلة :

— سأحضر له البن .. وعندى شيكولاته وبسكويت ..

وهتف محمود :

— نعمت .. لا أريد أن أضيع الليلة على فنجان قهوة .. أريد أن أتحدث إليك
اجلسى ..

ثم نظر إلى العسكرى الذى وقف يرقب منتظرا الأوامر .. وصاح به :
— غور .. أى ميس هذا الذى لا يوجد به فنجان قهوة ؟ ..
وانصرف العسكرى ..

وجلست نعمت فى مقعد مقابل لمقعد محمود .. ولكنه انتقل إلى المقعد المجاور
لها ومد كفه ووضعها على كفها .. وكأنها حركة غير مقصودة ..
وسحبت نعمت يدها من تحت كفه .. فى صمت ..
وسألها محمود عاتبا :

— لماذا سحبت يدك ؟

— نحن فى الميس ..

— إذن نذهب إلى الحجرة ..

وهزت نعمت رأسها قائلة :

— هكذا .. مرة واحدة ؟؟

— وماذا فى ذلك ؟ ..

— فضيحة بجلاجل .. تضع كل أمجادك التى أحرزتها اليوم ..

— لا تهمنى ..

— إذا كان لا يهمنى أنت .. فهمنى أنا .. هل يرضيك أن يقال لى أدخلت

رجلا إلى غرفتى ..

وأطلق محمود زفرة ضيق ثم قال :

— طبعاً لا .. ومن أجل هذا .. حضرت إلى هنا ..

— إذن فلتستمر فى التصرف كرجل عاقل ..

— بل كفى أنت عن هذا التزمى السخيف .. ماذا يحدث إذا وضعت يدي

على يدك ؟

(العمر لحظة)

— ١٧٨ —

— قد يرانا ..

— ولكنه لا يوجد أحد ؟

— قد يدخل فجأة ؟

ومد محمود يده فأمسك بيدها وقال وهو يضغط عليها بخنان :

— عندما يأتى هذا الأحد .. سأتركها .

وتركت نعمت يدها فى يده .. تسترخى فى رفق .. وكأنها وسيلتها للتعبير عن

استرخائها المطلق .. فى ذاته .. واستقرارها الكامل بغير قيود فى أعماقه ..

وتحسست أصابعه ظاهر يدها فى شبه تعبد .. وقال وهو ينظر فى عينيها وكأنه

يرسو على مرفأ أهدابها :

— ما كان يجب أن تأتى اليوم ..

— لم أستطع البقاء .. وقد علمت ببداية العملية بعد أن تعالى الدوى وتوالت

الانفجارات .

— أروحك شيء ؟ ..

— العملية كلها مروعة .. إنها لست بهذه البساطة التى توضع بها على الورق

.. أو توصف بها فى البلاغات .

— كيف ؟

— يعنى ٢ قتلى و ٣ جرحى .. لا يمكن أن تكون إنسانيا بمثل هذه البساطة

التقريرية التى تقدم بها إلى الأسماع ..

ورد محمود وهو ينفخ من أنفه نفخة سخرية :

— ٢ قتلى .. أهذا مروع .. ماذا تقولين إذن فى ١٥ ألف قتيل ؟ ..

— أين ؟ ..

— فى المعركة المشعومة التى سمينها بالنكسة ..

— أحضرتها ؟

— طبعا ! .

— ماذا شاهدت فيها ؟

— أسوأ ما بها .. لم أشعر خلالها أنى جندى يحارب . بل شريد يهيم على وجهه .. لقد عدت .. ماشيا .. حافيا .. عاريا .. وكنت أسعد حظا من غيرى .. لأنى عدت ..

— أما زلت تشعر بالمرارة ؟ .

و برغمه انطلقت منه صيحة ألم « ياه » ثم تمالك وأردف يقول فى صوت أهذا :

— لا داعى لنكأ الجرح .. حتى الآن لا أعرف لماذا حدث ما حدث .. ومن المسئول عنه .. ولكن الذى أعرفه أننا ذهبنا إلى المعركة كآلة كاملة وعدنا كقطع خردة .. فكنت صواميل الجيش فجأة .. ولم يعد أحد يملك السيطرة على أحد .. ولم يعد أحد يعرف .. ماذا يقول .. ولمن يقول ، كل شىء فى المعركة يمكن مواجهته ما دامت صواميل الجيش مربوطة .. أعنى أن هناك سيطرة على حركة الوحدات .. كالعربة المربوطة الصواميل يمكن للإنسان أن يحركها فى الاتجاه الذى يريد يمئة ويسرة .. يتقدم أو يعود القهقرى ، يذهب بها إلى المشوار الذى يريد ، أو يضعها فى الجراج .. أو يذهب بها إلى الورشة .. ولكن عندما تجد العربة قد فككت صواميلها وأصبحت مجرد قطع خردة ماذا يمكن أن يفعل بها .. غير أن يتركها فى الطريق ويمضى .. هذا ما حدث لنا .. أصبح جيشنا .. مجرد قطع خردة . لا يملك أحد السيطرة عليها وسقطنا فى الصحراء فريسة لعدو يتحرك كآلة .. بسيطرة .. وإرادة .. فعل بنا ما شاء ، حطم ما حطم وأخذ ما أخذ وترك ما ترك ..

وصمت محمود لحظة يزدد ريقه ثم استطرد يقول :

— صنايعى .

— هذا ما حدث لنا .. فنيا .. أى من وجهة نظر ..

— ولكن لماذا حدث ؟

— الأسباب كثيرة .. تختلف عمقا .. وبعدا .. وقد أستطيع تصورها ..
ولكنى لا أستطيع حصرها بدقة العالم الخبير ..
وشردت نعمت لحظة ثم تساءلت :
— وهل يمكن أن يحدث ما حدث ثانية ؟
وصمت محمود ثم هز رأسه وهو يقول :

— لا .. لا أظن .. ليس هناك بالطبع من يستطيع أن يضمن نتيجة عمله مائة
في المائة .. وكل عمل معرض للنجاح أو الفشل .. للكسب أو الخسارة .. ولكن
الفشل شيء والضياح شيء آخر .. والفشل يجب أن يكون داخلا في الحسبان ..
ومحسوب ضمن النتائج المتوقعة .. ومردود عليه .. بحسابات الخطة الأشمل .. وإذا
لم تفعل هذا .. فخير لنا أن لا نتحرك .. وعندما أفكر .. كصناعي .. أشعر أننا
قادرون على فرض إرادتنا على العدو .. بما يسمونه بالطرق المتواصلة على
الصلب .. إن ما قمنا به اليوم يؤكد لنا .. أننا قادرون على مواجهة العدو دائما ..
قادرون على ضربه وتلقى ضرباته .. والصبر عليها .. مهما طالت .. وهو يكره
هذا ويضيق به .. ويحاول دائما أن يأخذنا بعمليات شاملة .. بكل التكنيك
المتفرق .. تنزل بنا ضربة قاضية تقضم وسطنا .. وتشلنا وتتركنا في حالة فزع ..
أو تحولنا إلى حالة ضياح .. ولذلك يجب أن نتجنب هذا .. يجب أن نلم كل جرح
يوقعه بنا .. بغير ارتياح .. ونرد عليه .. ثم نصمد لضرباتنا .. نحن في حلقة ملاكمة
لا نستطيع أن تغلب العدو إلا بالنقط .. وهو يريد أن يصطادنا في ضربة قاضية ..
ومن أجل هذا .. يجب أن نحذر الضربة القاضية .. يجب أن نحول المعركة إلى
معركة نفس طويل .. ولكن ليس إلى معركة صمت .. يثبت فيها أقدامه بارتياح
.. وبغير قلق ..

وصمت نعمت .. ولم يبد على وجهها الاقتناع .. ثم تساءلت في حيرة :

— وهل يحتمل شعبنا هذا ؟

— شعبنا يحتمل كل ما هو حتمي .. ولكنه يسخر من كل ما لا مبرر له .. شعبنا

يحتمل معركة طويلة .. بل لقد احتملها فعلا خلال حرب لم يكن له فيها ناقة ولا جمل .. تعود صفير الإنذار .. وتعود المخاض .. ودوى القنابل .. والحياة بالبطاقة .. مرت به واعتادها كشيء طبيعي لا بد منه .. لأنه فعلا .. لم يكن منه بد .. وكان حديث محمود مقنعا .. بمنطق سليم ، لرجل — كما يسمى نفسه — صنايعيا .. ولكن كإنسان عزيز .. لم يكن منطقهم مقنعا .. ووجدت نفسها تسأله بلا تفكير :

— معنى هذا .. ستواصل ما فعلته اليوم ؟

وهز رأسه مؤكدا :

— بالضبط .. قد نخسر كما حدث اليوم عسكريا أو عسكريين .. أو على أسوأ الفروض .. قد نخسر الداورية كلها .. ولكنه لا تتصورين الإزعاج الذى سنسببه لهم ..

وأحست نعمت بشيء يلتوى فى باطنها وهو يقول « قد نخسر الداورية كلها » .. ووجدت نفسها تهمس بشعور المصرية وتعبيرها « بعد الشر » .. واستطرد محمود يقول :

— وبالطبع سيردون علينا .. سيردون بفضاظة وفضاعة .. سيدكون مواقعنا .. ولكننا يجب أن نتحصن جيدا .. كما نفعل الآن . وقد يحاولون أن يضربونا .. فى مواجهتنا .. فى الداخل .. ويجب أن نكون على استعداد لذلك .. وأن ندافع وأن نحتمل ..

وتساءلت نعمت فى يأس :

— إلى متى يا محمود ؟

وبحزم رد محمود :

— إلى ما لانهاية ؟ .. نحن فى حرب يا نعمت .. إنهم يحتلون أرضنا .. ولا بد ألا نتركهم يستريحون لحظة .. بل يجب ألا نستريح عنهم لحظة .. يجب أن تعود .. زمارات الإنذار وضرب القنابل فى داخل البلد كل يوم .. وإذا أردنا ألا ندعهم

يستريحون في أماكنهم .. فيجب أولا .. ألا نسترخى نحن .. ومن غير تشنج أو توتر .. وإذا كنا لا نملك السلاح الأقوى .. فنحن نملك النفس الأطول .. ومن أجل هذا يجب أن نواصل إزعاجهم وهم شعب يريد أن يهدأ ويستقر .. في الوقت الذي يجب أن نختل ضرباتهم مهما اشتدت .. ونحن شعب صبور صمود تعود على مضايقات الزمن في كل العصور تعود مضايقات المستعمر المستغل .. والحاكم المستبد .. وأبرز صفاتنا .. هي التحمل وطول النفس والصبر على الأذى .

وساد الصمت برهة .. وأخذت كف محمود تتحسس كفها في رفق ..

ومناجاة صامتة ..

وعاد الأسى يتسرب إلى نفس نعمت وهي تسترجع كلماته .. « قد يموت منا عسكري .. أو عسكريان .. أو قد تضيع الداورية بأكملها » ..

وتساءلت في صوت خافت :

— أليس هناك أحد غيرك يقوم بهذه العمليات ؟

— هناك كثيرون بالطبع ! ..

— إذن عدني ألا تخرج حتى أعود .

— تعودين ؟ .. هل تنوين الرحيل ؟

— أجل ..

— متى ؟

— غدا ..

وبدا الحزن على وجهه ورد معاتبا :

— وكنت تنوين الرحيل .. دون أن تخبريني ؟

— كنت سأق إليك ..

— ولماذا هذه العجلة ؟

— لقد بقيت أكثر مما يجب ..

— وستأتين ثانية ؟

- طبعاً .. ولكن عدنى ألا تخرج إلى عملية إلا بعد أن أعود ! ..
- وهز محمود رأسه فى شىء من الدهشة وقال :
- كيف أضمن .. هذه أشياء قد تحدث فجأة ..
- وصمت لحظة ثم أردف ضاحكاً :
- لا أظننى بمستطيع أن أقول للقيادة أن تنتظر حتى .. أرسل فى طلبك ؟
- أتسخر منى .. لأننى لا أتصور أن تخرج وحدك مرة أخرى ؟
- وحدى ! .. أتتوین الخروج معى ؟
- ليتنى أستطيع ؟
- وأطلق محمود زفرة قصيرة وردد بصوت هامس :
- لا تخشى على .. ليست هى المرة الأولى التى أخرج فيها .. وأعود سليماً ..
- وكما يقولون عمر الشقى بقی ..
- وصمت محمود ثم عاد يشد على يدها وهمس قائلاً :
- أشعر بالسعادة .. وأنا أراك تخافين على .. وددت لو تبقيين معى .. إن مجرد وجودك هنا .. يجعل الجبهة كلها فى نظرى شيئاً آخر .. ما أحسست قط بزرقة الماء فى القناة .. إلا منذ أن أتيت إلى هنا .. بت كالشعراء .. أرقب من موقعى شروق الشمس من الأفق الأزرق .
- وصمت لحظة ثم قال فى صوته الهامس :
- لقد خرجت إلى العملية وكأننى أذهب إلى نزهة .. ورحت أتعجل إنهاءها .. لكى أعود لأراك .. هل تصدقين هذا ؟ ..
- وضغطت نعمت على يده ثم ردت هامسة :
- كفى ..
- لماذا ؟ ..
- لا تعقد الأمور على ! ..
- ماذا تعنين ؟

— ١٨٤ —

- أعنى أننا يجب أن ننسى ..
— ننسى ماذا ؟ ..
— ننسى كل هذا الذى نشعر به .
— كيف ؟ ..
— لأنه عديم الجدوى !
— لماذا عديم الجدوى ؟
— لأنه لا يمكن أن ينتهى إلى شىء مثمر !
— لماذا ؟
— لأن كلا منا قد شق طريقه .. وانتهى .. ليس من السهل عندما يستهويننا شىء فى الحياة .. أن نغير طريقنا لأخذه ! ..
— يستهويننا ؟ .. أهو مجرد استهواء ؟ .
— سمه ما شئت .. ولكن ليس من السهل على الإنسان بعد أن اختار طريقه أن يتردد فى منتصف الطريق لينحرف عنه ويتجه إلى إنسان آخر قد شق طريقه الخاص .. ليتشاركا طريقا جديدا ..
— ولم لا ؟
— ونترك رفاق الطريق وحدهم ..
— نتركهم بعد أن ربطوا حياتهم بحياتنا ؟
— ما تشاركنا الطريق قط .. لقد كنا مجرد سائرين فى طريق ! .
— لا تقل هذا .. لا نتحدث كالأزواج !!
— بل أقول الحق !
— وابنتك داليا ؟
— ما لها ! ..
— تتخلى عنها ؟
— لماذا نتحدثين عن التخلي .. إنها ستبقى كما هى ! ..

— إنك ستقتلها .. أنت لا تعرف شعور الابنة عندما تجد أباهما قد خطفته امرأة أخرى من البيت ..

— لماذا تستعملين كلمة خطف ؟

— لأنها في نظر الناس كذلك ! ..

— ولكنها ليست كذلك بالنسبة لنا ..

— نحن لا نملك فرض وجهة نظرنا الخاصة على الآخرين .

وصمت محمود وخيم عليه اليأس وهو يتساءل :

— أهذه هي وجهة نظرك ؟

— ذلك هو الواقع .. الذى لا يمكن تجاهله ؟

— ألا أشكل في نظرك أكثر من مجرد .. عملية خطف ؟

— أنت تشكل في نظرى .. خير ما في الحياة ! ..

— وتركين خير ما في الحياة يتسرب من يدك ؟

— بل أتركه يبقى كما هو .. دائما .. خير ما في الحياة ..

— وتتوقعين منى أن أقبل منك هذا .. وأن أتركك تفلتين من يدى .. وأنت

خير ما في حياتى ! ..

— نحن لا نستطيع دائما أن نملك كل الأشياء المشرقة في حياتنا .. لا نستطيع

أن نعدو إلى الأفق لنحتضن الشروق .. وخير ما تفعله لكى ننعم بالزهور .. هو

أن نبقيها على أغصانها

وتملئ محمود فى مقعده وهو يقول :

— أكره هذه الفلسفة .. أكره فلسفة العجز .. أكره أن نصوغ سليتنا

واستسلامنا .. فى صيغة الحكمة والترفع .

وصمتت نعمت . وبدأت كأنها تقاوم أشياء تصخب فى باطنها .. وغلبت على

عينها دموع .. علقت فى جفניה .. وهمست له فى صوت مختنق :

— أكره .. إن أفسد ما بيننا .. أكره أن أهوى بنا إلى قتامة الواقع .. أنت لا

تدرى .. النقيض بين ما يحس به أحدهما للآخر .. وبين ما يمكن أن يرانا الناس

عليه .. أكره أن تمرغ في تراب التهم الحقيرة .. أنت في نظري مخلوق رائع .. وأود أن أبقىك هكذا دائما .. لا أريد أن أزج بك في مناهات الواقع البغيض .. لا أريد أن يقال إنني عشيقتك .. أو أني اختطفتك من زوجتك .. لا أريد لابتك أن تكرهك .. أحب أن أبقى وإياك فوق كل هذا .. ألا تصدقني ؟

وجذب يدها فوضعها على شفثيه .

وهمس بها وعيناه تدمعان :

— كيف لا أصدقك .. إن شدا ما يوجعني .. هو أني أصدقك .. ولا أملك إلا أن أطيعك !

ونفضت نعمت قائلة :

— هيا بنا !

— هكذا سريعا ؟؟ ..

— تأخر بنا الوقت ..

— لا أصدق أن الوداع قد حان ! ..

وبدا التردد على وجه نعمت وهي تقول :

— كان المفروض أن آتي الموقع غدا ..

— وماذا حدث ؟

— لم أكن أظن أنك ستأتي .. فاخترعت هذه الحجة لكي أراك ..

— إذن تأتين إلي غدا ! ..

— أتريد ذلك ؟

— طبعاً ..

— إذن نرجى عوداعنا إلى غد ..

— لن أستطيع غدا وداعك كما يجب .

وأمسك بكفها بين يديه ورفعها إلى فمه .. وألصق شفثيه بها .. وأخذ يتحسسها في خشوع وأناة ..

— ١٨٧ —

ونظرت حولها في قلق وسحبت يدها من يده .. ثم ضمته إليها في حنان
ووضعت رأسها على صدره .. وهمست :
— خد بالك من نفسك ..
وضمها إليه برفق ..
ودون أن تنظر إليه تركته واندفعت إلى خارج الحجرة وهي تتمم :
— تصبح على خير ..
— وأنت من أهله .. سأنتظرك غدا ! ..
واختفت في الحديقة متجهة إلى حجرتها ..
وتحرك هو إلى عربته في الخارج متجها إلى المعسكر .. -

(١١)

مهمة .. فى عرب يسار

كان لقاء نعمت بمحمود فى الموقع لقاء خاطفا .. فلقد أصر الدكتور رشاد على الرحيل فى الصباح حتى يصلوا إلى القاهرة قبل انتهاء وقت العمل .. ودعته بمصافحة سريعة باليد .. حاولت جهدى وسط جمهرة الموجودين من الضباط والجنود أن تضعها فى الإطار الرسمى .. شكرته على ما وجدته من تعاون وما لقيته من رعاية وتمنيات بالتوفيق والنصر .. و .. مع السلامة .. وصافحت الضباط وصلاح وبقية الجند ووعدت بأن تبذل كل جهدى لكى تحقق رجاءهم .. انطلقت بها العربى فى طريق السويس .. وشرذ الذهن طول الطريق .. يقلب فيما فات .. ويدبر فيما هو آت .. وكأن أكثر ما يشغلها .. هو ما تنوى أن تستقر عليه .

لقد اقتلعت نفسها فى ساعة انفعال من حياتها المستقرة .. وتركت البيت إلى المستشفى لترحل إلى الجبهة .. ولقد استطاعت الجبهة بكل ما حوته من صخب وضجيج وانفعالات أن تسيطر على كل أحاسيسها وتستحوذ على تفكيرها فلم تفكر لحظة فيما تنوى أن تفعله بعد عودتها .

وظلت الجبهة بما فيها ومن فيها تشغل كل أحاسيسها وتفكيرها .. والعربى تنهب أرض الطريق وتطوى تلاله على الجانبين لم تحاول أن تستفسر عن هذا المبنى أو ذاك البرج .. حتى بدأت معالم القاهرة تلوح بمبانى هليوبوليس منبسطة فى الأفق .. وأفافت أمام القاهرة الممتدة أمام الصحراء .. واندفع إلى ذهنها خاطر مفاجئ .. لم تعرف من أين أتى ..

أهذه هي القاهرة ؟ أهكذا ممكن أن تبدو للغزاة القادمين من الشرق ؟
وأحست بشيء يلتوى في أعماقها ..

لماذا يبدو الطريق منبسطا هكذا .. لماذا لا توضع فيه العراقيل والحوائل .. لا
يمكن أن تترك القاهرة هكذا مكشوفة الصدر مفتوحة الذراعين ..
ولكن لماذا تظن أنها كذلك .. إنها لا تعرف شيئا في أصول الحرب .. لا تعرف
كيف يمكن أن يدافعوا عن القاهرة .. ولكنها أحست أنها عزيزة عزيزة .. وأنها تود
لو أحاطتها بكل السياجات والسدود والقلاع والحصون .. ولكن وسائل الحرب
لم تعد كما كانت من قبل .. لم تعد رماحا ترمى وسهاما تصوب حتى نقيها
بالأسوار والقلاع ..

ورغم ذلك لم تستطع أن تمنع نفسها من الخوف على مدينتها العزيزة مجرد أن
أبصرتها كما يمكن للعدو أن يصرها .. تمنّت لو استطاعت أن تضمها إلى صدرها .
وعبرت البرج والثكنات وبدت المباني الجديدة في مشارف المأظنه
وهليوبوايس وسألها السائق مستفسرا :

— إلى أين يا فندم ؟

وبدا كأن العسكري يتوقع أن تذهب بها إلى مكان غير المستشفى .. يذهب
بها إلى البيت مثلا ..

وأجابته بغير تفكير :

— إلى المستشفى ..

ثم بدأت تسائل هي نفسها :

— وبعد المستشفى ؟!

هل ممكن أن تتخذ المستشفى مقرا دائما لها ؟

إن المفروض أن تبني في المستشفى في أيام النوبتجية .. وفي بقية الأيام .. تعود

إلى البيت .. أى بيت ؟

لقد قالت لعبد القادر في انفعال .. إنها هي التي سترك البيت عندما قال لها إنه

سبييت في أحد الفنادق حتى تهدأ أعصابها ..

أخذت حقيبتها وانطلقت إلى الجبهة ..

وأمضت الأيام التي أمضتها في الجبهة .. ثم عادت ..

وكان المفروض أن تعود .. إذ لم تكن الجبهة مقرا طبيعيا لها . حتى تترك البيت

إليها . بل حتى هؤلاء الذين تعتبر الجبهة مقرهم الطبيعي .. لهم بيوت يعودون إليها

.. أما هي فقد أخذت حقيبتها وتركت البيت في غضبها وانفعالها .. إلى غير

عودة ..

وبات عليها الآن أن تفكر في بيت ما .. تعود إليه ..

على أية حال ستذهب إلى المستشفى وتفكر على مهل .. إنها لن تعود إلى عبد

القادر قطعا .. ولكن عليها أن تنهى أمرها معه بطريقة عاقلة .. يجب أن يجربا عملية

الانفصال .. ويسويا أمرهما في هدوء ..

وهي لابد أن تعود إلى البيت لتجمع حاجياتها .. فهي لم تأخذ سوى ما

احتاجت إليه في رحلتها على عجل .. ولعل أحدا لم يعبث بأشائها .. لعله تصرف

بشيء من الخلق ولم يدع أحدا يفتح البيت في غيبتها ..

وصلت إلى المستشفى ولقيها موظف الاستقبال في ترحاب وبشاشة وسألته

وهي تتجه إلى المصعد :

— ألم يسأل عني أحد ؟

— سأل عنك كثيرون .. ولكن الأستاذ عبد القادر لم يكف عن السؤال يوما ..

.. يبدو أنه لم يتعود غياب سيادتك .. لقد أغلق التليفون منذ لحظة بعد أن سأل

عن مكان وجودك في الجبهة وكيفية الاتصال بك .

وقبل أن تفتح باب المصعد سألها الموظف :

— أطلبه لسيادتك ؟

وأجابت نعمت قبل أن تغلق باب المصعد ..

— سأطلبه أنا من فوق ..

و لم يثر فيها سؤال عبد القادر أى شعور ..
 لم يههما إذا كان قد سأل .. أو لم يسأل ..
 لم تشعر أنها فى لفظة على أن ترد عليه ..
 بل لم تشعر أنها تود أن تتخذ معه إجراء مضادا حاسما .. فلم يكن وسط كل
 الانفعالات التى شحنتها فى أيام الجبهة . يشكل شيئا هاما يحتاج إلى الحسم .
 كل ما كان يشغلها تجاهه .. هو أن تستقر معه على أمر .. تحدد على أساسه معالم
 حياتها المقبلة ..

ولقد تصورت أن خير ما يمكن أن تفعله هو أن تحضر أمها من الإسكندرية
 لتستقر وإياها فى مسكن معقول ، وكانت تعتقد أن هذا هو ما يمكن أن يساعدها
 عليه عبد القادر ..

لم يكن من المعقول أن تعيش فى شقة وحدها . ولم يكن من الممكن أيضا أن
 تذهب للحياة مع أمها فى الإسكندرية .. إذا كانت تنوى الاستمرار فى عملها
 الحالى . وهى لا تجد ما يمكن أن يمنعها من ذلك ..

ولم تكذبصل إلى الدور العلوى .. حتى تلقاها أحد الجنود بقوله :
 — التليفون عايز سيادتك .. حمد الله على السلامة ..
 — الله يسلمك ..

وذهبت إلى أقرب غرفة تليفون ورفعت السماعة قائلة :
 — أنا النقيب نعمت هانى ..
 وأجاب عامل التليفون :

— حمد الله على السلامة يا فندم الخط مع سيادتك ..
 وسمعت صوت عبد القادر يهتف :
 — نعمت ؟ غير معقول ! .. ما كل هذه الغيبة ؟
 — كنت فى مهمة ..

وقال مازحا :

— ١٩٢ —

— بدت آثارك في ضرباتنا للعدو ..
 ولم يجد مزاحه صدى في نفسها وردت بطريقة صارمة :
 — حاولت أن أؤدى واجبى هناك ..
 — وتركت واجبك هنا ؟
 وتجاهلت ما يحاول الإشارة إليه وقالت :
 — لدى مهام كثيرة لأبد أن أؤديها للجنود .
 — ومتى تعودين إلى البيت ؟
 ولم ترد أن تدخل في مناقشة خاصة . عن طريق « السويتش » وهى تعلم
 هواية عامل السويتش — وكل سويتش — فى التصنت على المكالمات . فقالت
 باختصار شديد :

— بعدين ..
 — سأمر لآخذك ..
 — لا داعى لأن تتعب نفسك ..
 — ليس هناك تعب . العربة جاهزة ..
 — لا تضيع وقتك فلدى عربة .
 — ليس عندى ما أعمل .. سأمر عليك فورا ..
 — أرجوك .. إن لدى عملا .
 — أنتظرك حتى تنتهى ..
 — قد يطول .
 — سأنتظر معك .. لقد أوحشتنى بعد طول الغيبة ..
 — ولكنى ..
 — ولكنك ماذا ؟
 — قد أغادر المستشفى فى أى وقت ..
 — سأتى لك فورا ..

— ١٩٣ —

وضع عبد القادر السماعرة قبل أن يمنحها فرصة الرد ..
 وضعت نعمت السماعرة في استنكار .
 وكان عليها أن تسلم ..
 — على أية حال .. لقد كانت تنوى الذهاب لتسوية الأمر .. فلتذهب الآن
 وخير البر عاجله ..
 ولم تكذب تزيل عن نفسها غبار الطريق .. وتلم حاجياتها في الحقيرة الأخرى ..
 حتى أقبل جندي يخبرها أن الأستاذ عبد القادر يطلبها . وبعد لحظة أقبل عليها عبد
 القادر وقد علت شفثيه ابتسامة مرحبة وبسط يده وهو يهتف مازحا وكأنه ليس
 بينهما خصام :
 — أهلا بسعادة القائد ..
 ومدت نعمت يدها وأجابت ترد التحية :
 — أهلا وسهلا ..
 واستطرد يقول في مزاحه :
 — رحلة أخرى ونزيل آثار العدوان ..
 ولم يبد على سماتها أى قبول لمزاحه . فاستطرد يقول :
 — ولكن قبل هذا .. لابد من إزالة آثار العدوان على .
 وتساءلت في دهشة :
 — عليك أنت ؟
 — طبعاً .. عدوان على حقى كزوج ..
 وازدادت دهشتها مما بدا محاولة متبجحة لقلب الأوضاع وتساءلت :
 — أنا الذى عدوت عليك ؟
 — أليس عدوانا أن تهجرينى هكذا وتركى البيت ؟
 وهزت رأسها فى أسف وقالت فى كلمات مقتضبة وهى تحاول إنهاء المناقشة :
 — أظننا انتهينا من هذا الموضوع ..
 (العمر لحظة)

— أى موضوع ؟
— الموضوع الذى تركت البيت من أجله ..
— إنك لم تعطينى حتى فرصة المناقشة ! ..
— لم يكن هناك ما يدعو للمناقشة ..
— كان يجب أن تسمعى وجهة نظرى .. إننى ..
والتفتت نعمت حولها فوجدت المكان يحفل بالرائح والغادى .. وبدأ كأن
بعض المرضات يرففن السمع لالتقاط الحوار فردت نعمت مقاطعة فى شىء من
الحدة :

— لا أظن هذا وقته ..
— إذن متى نتحدث ؟؟
— كان المفروض أن نلتقى لنهى الموضوع ..
— دعينا أولاً نناقشه ..
— لم يعد بيننا ما يناقش .. سأراك لتتفق على إنهاء الأمر ..
— أمرك .. المهم أن نجلس معا لتتحدث فى هدوء ..
— إنى كما ترى هادئة ..
— إذن دعينا نذهب إلى البيت لتتحدث ..
— سأتى ..
— متى ؟ ..
— بعدين ..
— وماذا وراءك الآن ؟؟
— المفروض أن ألتقى بالقائد وأقدم إليه تقريراً بالمهمة ! ..
— الآن ؟ ..

ونظرت نعمت فى الساعة وتمتت :
— الساعة الآن الواحدة !

— ١٩٥ —

— الدنيا لم تطر .. لماذا لا تربنه غدا ؟
وبدا التردد على وجه نعمت ثم قالت :
— لا بد أن أنهى بعض الأمور .. على الأقل أثبت حضوري ..
— سأنتظرك إذن .. حتى تنتهى .. سأزور الأستاذ عبد الرحمن على فقد
علمت أنه دخل المستشفى منذ بضعة أيام .. ثم أعود إليك ..
وتهدت نعمت مسلمة بالأمر .
ليس هناك ما يدعو إلى الإصرار على موقف عدائى .. وما دامت ستلقى به
فلم لا يكون الآن ؟
وهو على أية حال — لم يسي معاملتها قط .. وكان معها رقيقا دائما وهي لا
تشعر تجاهه بأى إحساس بالخصومة .. ولكنها فقط تحس أن هناك عجزا من
مواصلة الحياة معه ..
أحست بهذا عندما تركت له البيت آخر مرة ... وازداد هذا الإحساس بعد
العودة من الجبهة ..
منذ رحيلها أحست أن كرامتها تأبى عليها قبول سلوكه الذى يعرضها فى
المجتمع للهوان .. وبعد العودة أحست أن شيئا فى باطنها يجعلها ترفض مواصلة
الحياة معه لأنها تفضل أن تعيش وحدها .
أحست أن شيئا أبعدا عنه .. وعن الارتباط به ... أو بأى إنسان آخر ..
أحست أن شيئا فى باطنها .. يجعلها تشعر بالذنب .. لو واصلت البقاء معه ..
إحساس لا يمنحها أملا فى شيء . ولكنه فقط يحجب إليها الحرية .. ويجعلها
تأنس لوحدها ..
وهى لا تريد أن تجعل هذا الإحساس سببا للفراق .. فلقد وجد فعلا بعد أن
قررت الفراق .. ولكنه فقط بات يؤكد ويحتمه ..
وبعد دقائق كانت تجلس فى العربة بجوار عبد القادر وانطلقت العربة على طريق
الكورنيش وهو يسألها قائلا :

— نتغدى فى النادى .. أم فى البيت ؟

وترددت نعمت .. لم تكن تفكر فى الغداء معه .. لم تكن تريد أية محاولة للاستقرار .. كانت تريد أن تنهى الأمر معه وتنطلق لتدير أمرها .. ولكنها أحست أن رفض الغداء أمر غير طبيعى .. وردت بعد لحظة تفكير ..

— نذهب إلى البيت ..

واستمرت العربى فى طريقها إلى كورنيش النيل حتى كوبرى قصر النيل ثم دار من النفق إلى الجزيرة .. إلى الزمالك .. وبعد لحظات كانت تقف بباب العمارة .. أقبل عليها البواب مرحبا فى شوق .. وتلقت ابتسامات الترحيب ، من هنا وهناك ... يملؤها إحساس بأنس العودة إلى البيت .

وزاد الإحساس وهى تعبر باب الشقة وتسمع ألفاظ الترحيب الحارة من الخدم والطباخ .. وترى المكان بكل ما يحمله من ألفة ..

ولم تستطع أن تمنع من نفسها الإحساس بالقلق .. وهى توشك أن تتركه بعد ذاك إلى غير عودة .. إلى مكان لا تعرف مجرد شكله .. بل لا تعرف إذا كانت تستطيع أن تجده أم لا ..

ودخلت حجرتها ..

كل شيء .. كما تركته .. نظيفا مرتبا .. لم تمسه يد إلا لتزيل غنه الغبار .. ومرة أخرى عاودها الحنين إلى المكان .. ولكنها طردته فى حزم ..

فتحت الدولاب ومدت يدها تجذب الملابس من فوق الشماعات . لتضعها على الفراش حتى تجمعها فى الحقائق .

وأقبل عبد القادر وراءها يسأل فى دهشة :

— ماذا تفعلين ؟

— أجمع ملابسى ..

واقترب منها وأمسك ذراعها فى رفق .

— لماذا ؟!

— ١٩٧ —

- لأنى سأترك البيت ..
- لماذا تتركين البيت ؟
- لأنى قررت أن نفترق .
- لمجرد شائعات ؟
- أنت تعرف أنها ليست شائعات ! ..
- ماذا تعنين ؟ ..
- أنت تعرف ما أعنى .. تعرف ما قيل فى السفارة عن السيدة زوجتك .
- هل تعنين أنى تزوجتها .. أجننت ؟
- أنا التى جنت .. أنا التى قلت لهم يقدمونها .. كحرم عبد القادر بك .
- وما ذنبى أنا .. أنهم فعلوا ؟
- لأنك أقدمت على ما جعلهم يفعلون ذلك .
- أنا لم أفعل شيئا غير عادى ..
- غير عادى فى نظرك .. لأن ذنوبك باتت من فرط تكرارها .. أشياء عادية ..
- على أية حال .. أنا آسف على ما حدث .. هذا السفير الغبى ..
- غبى أو غير غبى . أنت مسئول عما حدث ..
- قلت لك آسف لن تحدث مرة أخرى ..
- تحدث أولا تحدث .. إنها لن تعنى بعد ذلك شيئا بالنسبة لى ..
- وعادت نعمت تجمع الملابس .. وأمسك عبد القادر يدها ، يجبرها خارج الغرفة وهو يقول :
- اهدنى يا نعمت .. واعقلى ..
- أنا هادئة تماما ... وعاقلة تماما ..
- ولكن لماذا تتركين أنت البيت .. إذا كنت تريدين أن نفترق فترة ..
- وقاطعته نعمت قائلة فى إصرار :

- بل أريد أن نفرق نهائيا ..
- أرجوك يا نعمت .. لا مبرر أبدا لكل هذا .. إذا كنت ما زلت منفعة فساترك لك البيت لفترة ..
- أنا لست منفعة .. لقد اتخذت قرارى وانتهى الأمر ..
- أمرك .. ابقى فى البيت .. سأرحل أنا لفترة .. حتى تفكرى فى هدوء .
- لست فى حاجة إلى مزيد من التفكير .. سأرحل أنا الآن نهائيا ..
- إلى أين ؟
- إلى المستشفى .. حتى أجد بيتا ..
- وتعيشين وحدك ؟
- سأحضر أُمى من الإسكندرية ..
- وهل وجدت بيتا ؟
- سأبحث ..
- تبحين عن بيت ؟! .. يا نعمت اعقلي .. هذا بيتك ..
- وجذبها إلى حجرة الطعام .. وجلس الاثنان إلى المائدة واستطرد عبد القادر يقول :
- لدى فكرة أرجو أن تريحك .. إني سأذهب فى رحلة صحفية طويلة ..
- ستبدأ بطرابلس وتونس والجزائر ثم الرباط لتغطية مؤتمر القمة .. ثم أذهب فى جولة إلى أوروبا .. وبعد ذلك أهبط إلى السودان . لتغطية زيارة الرئيس .. إني سأبدأ الرحلة قريبا .. وساترك لك البيت طوال هذه المدة .. ابقى فيه على راحتك حتى تهدئ .. ثم نتفق عندما أعود على كل ما تريدين ..
- قلت لك ..
- حسن .. أعرف أنك هادئة .. على الأقل ابقى وحدك الآن .. سأرحل أنا وأترك البيت .. وإذا أصررت بعد عودتى من السفر على الفراق سأحاول أنا أن أدبر لى مسكنا .. إني أستطيع أن أعيش فى بيت أختى ..

— لا أريد أن أسبب لك متاعب ..
 — لقد كنت أعيش معها دائما .. وسيسعدنا أن أعود إليها ..
 ثم استطرده ضاحكا :
 — ما دمت مصرة على طردى ..
 — أنا لن أطردك .. سأبحث لى عن شقة صغيرة ..
 — أنا أمزح يا نعمت .. ابقى هنا فى البيت وسأفعل كل ما يستقر عليه رأيك ..
 وتناولوا الغداء .. ودار الحديث بينهما عن السياسة والحرب والصحافة ..
 قال عبد القادر :
 — لقد ضقت بالمجلة بالعمل فيها .. ولقد أحسست، بفرط حاجتى إلى التنفس بعيدا عنها .. ولعل فى هذه الرحلة ما يريح الأعصاب بعيدا عن جو القلق الذى نعيش فيه .
 وذهب عبد القادر ..
 واستقرت نعمت وحدها فى البيت ..
 كان هذا هو أفضل الأوضاع بالنسبة لها ..
 كانت تنعم بوحدها .. فى مكانها المألوف المأمون .. لم تعد تقلقها فكرة البحث على مكان تستقر فيه .. على الأقل لفترة من الوقت ..
 وكان أول ما فكرت فيه بعد الاستقرار .. هو البدء فى مهمتها من أجل أولئك الذين تركتهم فى الجبهة .
 كان مشوارها الأول .. على طريق صلاح سالم .. إلى عرب يسر .. الحى لم تخطئه عينها .. على سفح التل أسفل سور القلعة .. بيوت العتيقة والشارع المنحدر على ناصيته الجامع المخطط ، وفى الجانب الآخر تبدو الحديقة المحاطة بالأسلاك .. وعبرت شريط الترام .. ثم شريط السكة الحديدية ، أوقفت نعمت العربة وتركها على ناصية الطريق العريض واتجهت إلى الحى يغمرها إحساس بالقلق .. كانت

ترتدى ثوبا داكنا بسيطا متعمدة ألا ترتدى الثوب العسكرى حتى لا تلفت النظر إليها ..

لم يكن المكان غريبا على ناظرها .. كانت كلمات عبد العزيز ما زالت ترن في أذنيها يصف الحى أيام طفولته .. السجن مكان الحديقة .. والمقابر ممتدة على الجانب الآخر .. والملاعب أمام المقهى .. والمآذن الطائرة الرعوس .. كأنها المجاذيب بلا طراوير .. أو أولياء الله بغير عمائم ..

لم تشعر نعمت أن المكان غريب عليها .. ولكنها أحست أن الأعين ترقبها في حذر .. إنها غريبة عن المكان .. وكان أهله يعرفون كل طارق لأبوابه ويسألون الغريب بأعينهم عما يريد .

عبرت قفصا رصت عليه قطع من الحلوى .. والتف حوله بضعة أطفال .. ثم عربية يد بيضاء ملونة مزر كشة توسطتها صينية كشرى .. وفي ركن منها أطباق وملاعق وقصعة ماء .. دكان بقال وعلاف .. ولبشة قصب تستند على جدار بيت .. وقفص رصت عليه أعواد قصب مقطوعة ..

وكلما خاضت في الطريق المنحدر .. ازداد تطلع الناس إليها .. وازداد اضطرابها .. وبدأت هى تتطلع باحثة عن سعدية .. وراء كل قفص .. وبجوار كل قصعة .. واسعة العينين .. باسمه الثغر .. هاتفة النظرات .. أو كما وصفها أم عبد العزيز .. لبؤة بنت لبؤة ..

وفجأة .. وجدت .. وجها كالوجه الذى وصفه لها عبد العزيز .. لم يكن هو الشيء الذى وصفه .. ولكنه شيء مثله ..

كان أكثر ما يميزه .. عينين واسعتين .. بغير نظرات منادية مستدعية .. وبغير سمات مرحة .. وبغير بسمة تستعرض الأسنان الذهبية بين الشفتين ..

كان وجها ساكنا شارد النظرات .. حزين السمات .. مغرقا في الشروود حتى تكاد نظراته لا تستقر على شيء منظور .. بل تغوص في أعماق المراثيات .. وكأنها تعبرها إلى شيء .. بعيد .. بعيد ..

— ٢٠١ —

أهذه هي سعدية .. الجذابة المغربية ؟ .. وهدأت نعمت خطاها أمامها لحظة .. وكادت تعبرها منكراً إياها .. لولا الليمون على القفص .. والفول في القصعة .. والفجل في المشنة .

وتوقفت نعمت ..

كان المفروض أن تقول سعدية شيئاً .. كلمة ترحيب أو سؤال عما تريد .. أو حتى كلمة استنكار عن وقفة لا مبرر لها من مخلوقة تتطلع إليها نظرات أهل الحى فى استنكار بمجرد عبورها إلى داخل الحى .. وبدأت نعمت بالتحية فى لهجة مترددة :

— صباح الخير ..

ولم ترد سعدية .. وكأنها لم تسمع التحية .. كانت تجلس متربعة .. وقد ثنت ساقها أسفلها .. وانحدر الثوب الأسود الفضفاض على جسدها وافترش الأرض حولها .. وتساءلت نعمت فى صوت خافت وجل :

— سعدية ؟

وتركزت عينا سعدية على نعمت فى شئ من الدهشة المخطوطة بالشك .. وردت فى لهجة عدائية متحدية :

— نعم ..

ولم تعرف نعمت كيف تبدؤها الحديث .. وكيف تطمننها إليها . وقد ملأت نظراتها الريبة والخوف .. عادت نعمت تقول فى لهجة رقيقة :

— صباح الخير ..

وفى غير حماس .. وبحذر شديد أجابت سعدية :

— صباح الخير ..

وأحست نعمت أن أعين المارة تحاول أن تتطلع إليها .. مستفسرة عما تبغى

هذه الزائرة الغريبة .

وحاولت نعمت أن تخلص من الأعين المتطلعة .. فمدت يدها إلى قفص الليمون وأخذت بضع ليمونات وتساءلت وكأن وقتها لمجرد الشراء ..
— بكم ؟

— بثلاثة أبيض ..

ومدت نعمت يدها إلى حقيبتها فأخرجت ورقة بخمسة قروش وتناولتها سعدية في صمت ومدت يدها إلى طبق صغير وضعت فيه القروش . وأخذت تعد الباقي وتسلمه إلى نعمت .

وانتهزت نعمت فرصة الحركة الطبيعية التي بدأت تجرى بينهما وانصراف الأعين المتطلعة عنهما وقالت في صوت رقيق :
— كيف حالك يا سعدية ؟

وتطلعت إليها سعدية في دهشة وهي تعد النقود .. مستغربة من إصرار السيدة الغريبة على مناداتها باسمها ولكنها لم تملك إلا أن أطلقت زفرة وأجابت باقتضاب تحاول أن تنهى به الحديث ..
— نحمده ..

— كنت أريد أن أتحدث إليك ..

وازداد الشك في نظرات سعدية .. وبدأ الحذر .. يشدها .. ويخرجها من حالة الاسترخاء والشروود وقالت في لهجة متحدية :
— نعم ..

و لم تجد نعمت بدا من النفاذ مباشرة إلى ما تريد .. حتى لاتزداد شكوك سعدية فردت في لهجتها الرقيقة :
— أنا كنت في الجبهة ..

وردت سعدية متسائلة وقد زادت بها الدهشة :
— الجبهة ..

— ٢٠٣ —

— أجل ..

— أنت ! ..

وردت نعمت مفسرة :

— أجل .. إني أعمل في المستشفى العسكرى ..

وتغيرت نظرة الشك في عيني سعدية .. وتحول التحدى .. إلى تطلع ..

وتساءلت في لهفة :

— أنت ذهبت إلى هناك ؟ ..

— أجل ..

— هل .. هل يذهب الناس إلى هناك ، وهل يمكن .. ؟

وتحفظت سعدية للنهوض .. وخشيت نعمت من أى رد فعل ممكن أن تقوم به

يلفت الأنظار ويلم الناس عليهما .. فقالت مقاطعة تحاول تهدئتها :

— إني أريد أن أتحدث معك .. ولا أريد أن ألم الناس علينا ..

وعادت سعدية تتساءل في شك وتحذ :

— ماذا تريد منى ؟ ..

— عندي كلام يريدك .

واستمرت نعمت في حذرهما المتشكك وتساءلت في تحدى :

— أى كلام ..

— كلام .. قاله لى عبد العزيز ..

ووثبت سعدية من مكانها فجأة .. ذهب عنها كل التشكك والتحدى ..

وأمسكت بذراع نعمت تقول في لهفة مستجدية :

— هل رأيته ؟

— أجل ..

— هل سيعود ؟

وأحست نعمت بمهمتها تتعقد .. وهى تجد سعدية توشك أن تفقد وعيها

والناس قد بدأوا يتزاحمون حولها ..
وأقبل كهل في حانوت بقال مجاور .. وقد شهد تطور الموقف .. ونهر الأولاد
الذين أخذوا في التجمع حول سعدية ونعمت :
— يا لله يا ولد منك له ..
ثم تقدم إلى نعمت قائلاً في لهجة هادئة :
— صباح الخير يا ست .. أى خدمة ؟
وأجابت نعمت وقد أنست إلى الرجل :
— إني أعمل في مستشفى القوات المسلحة .. وكنت في الجبهة عندما وقع
الحادث لعبد العزيز ..
وتنهذ الرجل في حزن ثم قاطعها قائلاً :
— الله يرحمه ويحسن إليه ..
وفي عصبية تحولت سعدية إلى الرجل وجذبت ذراعه قائلة في صوت يشبه
النحيب :
— ولكنه سيعود .. قالوا لي إنه سيعود ..
وأمسك الرجل بكثف سعدية يهزها في شيء من العنف ..
— اهدئي يا سعدية .. اهدئي وقولي إنا لله وإنا إليه راجعون ..
وقالت نعمت للرجل :
— لقد رأيته قبل أن يقع الحادث .. وكنت أرغب أن أحدث سعدية ..
وأجاب الرجل وهو يشير إلى باب بجوار حانوته ..
— تفضلي يا ست .. تفضلي في البيت .. حتى لا يتزاحم الناس حولكما ..
ثم عاد ينهر الصبية الذين أخذوا في التجمع ثانية ..
— امشي يا وله .. شوف لك شغلة منك له ..
وجذب سعدية من ذراعها متجهاً بها إلى الباب الصغير المنخفض قائلاً :
— تعالى يا سعدية .. ادخلي مع السيدة .. وسأخذ بالي من البضاعة .. إنها

— ٢٠٥ —

تريد التحدث إليك .. ولا يصح أن نتركها على قارعة الطريق .. هيا .. ادخلي ..

ثم التفت إلى نعمت قائلاً :

— اتفضل يا ست .. البيت ليس قدر المقام . ولكنه خير من البقاء هنا وسط

هذا الزحام ..

وأحست نعمت أن تصرف الرجل خير منقلد لها .. واتجهت إلى باب البيت وهي

تتمتع قائلة :

— متشكرة يا حاج .. إلى آسفة إذا كنت سأثقل عليك ..

— أستغفر الله .. أنتم في عيوننا جميعا ليساعدكم الله ويرعاكم تفضل ..

واقترب من الباب ثم صاح بينه من في الداخل إلى الضيفة القادمة ..

— يا أم محمود .. يا أم محمود ..

وتعالى صوت من الداخل في صير نافذ ..

— مالك يا إبراهيم .. فيه إيه ؟

— ضيفة قادمة ..

وأقبلت من الداخل امرأة قصيرة يغطي رأسها الأشيب طرحة سوداء

وتساءلت في دهشة :

— ضيفة ؟!

وعندما أبصرت نعمت قالت في ترحيب تشوبه الدهشة :

— أهلا وسهلا ..

وزادت دهشتها وهي تبصر سعدية تتبع الزائرة الغريبة وهتفت متسائلة :

— خير .. ماذا حدث ؟؟

وحاول إبراهيم أن يشرح الموضوع لزوجته فقال باختصار :

— السيدة تعمل حكيمة في الجبهة .. وقد رأيت عبد العزيز قبل أن يكرمه الله

.. وهي تريد أن تتحدث إلى سعدية .

ولم تعترض نعمت على وصف الرجل إياها بالحكيمة لقد وجدت فيه خير

— ٢٠٦ —

وصف لها يمكن أن يجعلها مقبولة لدى القوم .. وجلست على أريكة في حجرة ضيقة وأم محمود تتقدمها قائلة في ترحيب :
— اتفضل يا بنتى .. خطوة عزيزة ..
وقالت لسعدية في كلمة قلقة مترددة .. وكأنها مصطرة إلى أن تسلم بما ليس منه يد ..

— ادخلي يا سعدية .. ادخلي يا بنتى ..
وعادت تسائل نعمت تدعوها لفنجان قهوة ..
— تشربها إيه يا بنتى ؟
— متشكرة جدا لا داعى للتعب ..
وانصرفت أم محمود تعمل القهوة وعاد إبراهيم مستأذنا إلى حانوته وجلست سعدية مشدودة على الأريكة بجوار نعمت وهى تنظر إليها متطلعة في لطفة وهمست في استجداء :

— هل سيعود ؟
وردت نعمت في لهجة قاطعة جتى تنهى هذا الوهم التى تتعلق به سعدية ..
— لا يا سعدية — لقد أكرمه الله بالاستشهاد ..
وسقط رأس سعدية على صدرها ..
ورفعت كفها تغطي وجهها . وندت عنها آه مكتومة يائسة .
ومدت نعمت يدها تربت ظهر سعدية وهمست تدعو الله أن يصبرها ويريحها واستطردت تقول :

— لقد حدثنى عنك طويلا .. قال لى كل شىء ..
ورفعت سعدية رأسها وبدت عيناها محمومتين والدموع تنحدر فى صمت على خديها ثم همست فى ألفاظ يقطعها انفعال الحزن ..
— لقد تركته ينصرف غاضبا .. ليتنى ما فعلت ..
وردت نعمت فى إنكار ..

— غاضبا من قال هذا ؟

— قلت له إني حامل .. بدوت كأني أريد أن أشده إلى بحملى .. أن أستغله .. وأقسم أنى لم أقصد هذا .. كل ما كنت أريد .. هو أن أحفظ شيئا منه وقد قال لى إن الزواج غير ممكن . قلت له إني لا أريد الزواج .. إن ابنه هو كل ما أريد .. وعادت نعمت تربت ظهر سعدية . وتحيطها بذراعها فى ضمة رقيقة حنون ..

— اسمعى يا سعدية .. لقد أتيت إلى هنا .. لأنقل لك ما قاله لى .. لقد وجدت أن من حقلك أن تعرفيه .. فهو خير عزاء لك عن رحيله .. ولم يبد على سعدية أنها تحاول أن تعرف شيئا مما قال .. كانت مغرقة فى الحزن واليأس ..

واستطردت نعمت تحاول أن تجذبها من هوة الأسى ..
— لقد حضر إلى المستشفى لأنه كان يريد أن ينزل إلى القاهرة .. كان مصرا على الحضور إليك ..

وبدا التوتر على وجه سعدية .. شدها الكلام من هوة اليأس الغارقة فيها واستطردت نعمت قائلة :

— ولم يكن نزوله إلى القاهرة بالسهل .. ولكنه أصر على النزول .. وهدد بالهروب .. وعندما استفسرت منه عن سبب إصراره .. قال لى إنه يريد أن ينزل لكى يتزوجك ..

وصرخت سعدية فى لطفة مرتاعة غير مصدقة :

— يتزوجنى .. يتزوجنى أنا ؟؟؟

— أجل .. قال لى إنه يشعر أنه كان جباناً عندما رفض الزواج .
— ولكنى لم أسأله إياه .. كل ما كنت أريده هو أن أحفظ بما أحمل ..
— قال لى هذا .. ولكنه أحس أنك أهل لشركة العمر .. وأصر على العودة لكى يتزوجك .. ولكى يجعلك تحتفظين بملكك .. ابنا له ..

ومرة أخرى سقط رأس سعدية على صدرها .. وانحدرت الدموع من عينيها
في صمت أليم ..

وعادت نعمت تربت ظهرها في حنان :
— وبعدين .. إلى لم آت لأؤملك .. لقد أتيت لأحمل لك العزاء .. ولأنصفه
عندك ..

وهزت سعدية رأسها والدموع تتأرجح في مقلتيها .
— ومن قال إنه يحتاج إلى إنصاف .. إنه خير الناس .. ما ساءنى أبدا .. إنه
ضاق بحملى .. لقد كان على حق .. ولكنى كنت أطمع منه فى شيء .. لقد كانت
لى نشأتى .. التى لم تحفل قط بقيود المجتمع .. علمتنى أمى أن العلاقات مع الرجال
.. لا تحتاج لأى تعقيدات .. كنت أحيانا أمنح نفسى لرجل لمجرد الجمالة .. لأنى
أحجل أن أقول لا .. لم أحس قط ، طوال حياتى مع أمى أن لهذه العلاقة قيمة أكثر
من السلعة أو المنحة — حتى لقيته .. فعرفت أنها شيء أكبر كثيرا من هذا ..
أحسست أنها شيء قيم وثمين وممتع فاستقررت معه .. ولم أطلب شيئا أكثر من
هذا ، وعندما شعرت بالحمل فى باطنى .. أحسست بسعادة لا توصف ..
وكأنى أحمله هو نفسه فى ذاتى .. وأنا أجدى قد أخذت فى باطنى جزءا منه .. ولم
أحاول أن أفكر فى وضعه فى المجتمع ؟ أو فى شرعيته .. لأنى لم أعرف لهذه الأشياء
قيمة .. خلال حياتى كلها .. وظلمته معى .. لأنه يعرف قيمة هذه الأشياء .. كما
يعرفها الناس جميعا .. أنا وحدى كنت شاذة عن المجتمع .. حاولت أن أنشئ لى
مجتمعا خاصا بى .. وظلمته معى .. عندما حاولت أن أشركه فيه ..

وصمتت سعدية برهة .. تزدرد ريقها وتبتلع دموعها واستطردت تقول :
— ولكنى أقسم أنى لم أصر على شيء .. لقد كان هو أهم من أى شيء ..
وكنت أنوى الخلاص من حملى .. ما دام هذا يريحه ..
وتنهدت نعمت .. ياللمقاييس العجيبة فى مجتمعنا !

أين يمكن أن نضع هذه المخلوقة فى مجتمعنا .. بهذا المنطق .. وبهذا التفكير ..

— ٢٠٩ —

في أسفل الدرك ؟ ! .

هل هي قديسة .. هل هي بطلة .. أم هي مجرد .. ما أطلقت عليها أم عبد العزيز .. لبوة بنت لبوة ..

ولم تعرف نعمت كيف تجيب .
كان المهم أن تحدد .. ماذا يمكن أن تفعله لها ..
ولم تكن تعرف ماذا يمكن أن تقدم لها .. وهي لا تعرف كيف تصرف بحملها ..
هل خلصت منه .. هل ما زالت تبقى .
وكان عليها أن تسأل سعدية :

— وماذا فعلت به ؟

وهزت سعدية رأسها وأجابت :

— لا شيء ..

وصمتت نعمت برهة ثم قالت في صوت خافت :

— إني على استعداد لمساعدتك ..

وتنهدت سعدية ثم أجابت في كلمات مقتضبة :

— كتر خيرك ..

— سأعطيك عنواني .. في البيت وفي المستشفى .. وسأعطيك غمرة التليفون

.. وتستطيعين أن تتصلي بي في أى وقت .. وأنا تحت أمرك في أى شيء !

وعادت سعدية تقول كلمتها المقتضبة :

— كتر خيرك ..

ومدت نعمت يدها إلى حقيبتها فأخرجت ورقة بعشرة جنيهات وقدمتها في

تردد قائلة :

— هل يمكن أن تأخذى هذه ! ..

وتساءلت سعدية :

— لماذا ؟؟

(العمر لحظة)

— ٢١٠ —

وردت نعمت في لهجة مترددة ..

— لأنك .. لأنى .. أعتقد أنه ليس لك وضع شرعى يجعل لك الحق في مكافأة

.. ولعلك تكونين في حاجة ..

ومدت سعدية يدها ترد يد نعمت بما فيها وقالت في يأس :

— لست أحتاج لشيء .. لم أكن أحتاج إلا إليه .. ولقد ذهب ! ..

— أرجوك ..

— لا .. لا أريد شيئا ..

وصمتت نعمت برهة .. ترقب تمثال اليأس الرابض أمامها ثم قالت :

— هل أستطيع أن أرى أمه ..

وهزت سعدية رأسها بالنفى قائلة :

— لقد ماتت ..

وتنهدت سعدية وهي تستطرد قائلة :

— ماتت بعد أن عرفت .. لم تبق سوى بضع ساعات .. ولفها الصمت برهة

ثم قالت :

— لقد غسلتها بيدي .. أحسست بمعزتها الشديدة .. وأنا أمسك بها .. أمسك

بما حمله هو كما حملت حملى منه وأوسدتها الثرى بيدي ..

ونفضت نعمت وهي تجاهد في وقف دمعها ..

ومدت يدها ببطاقة كتب عليها العنوان والتليفون .. وقالت مودعة :

— سأنتظر أن تكلمينى .. إني على استعداد لأن أقوم لك بأى شيء ..

(١٢)

رسالة قصيرة

أنهت نعمت مهمتها الأولى في عرب يسار .. وفارقت سعدية وهي لا تعرف
 ماذا تستطيع أن تفعل من أجلها .. بل لم تعرف ماذا تنوى المرأة العجيبة أن تفعل
 بنفسها وبحملها .. بعد أن فقدت صاحب الحمل الذي كانت تتوق لأن تحتفظ
 لنفسها بشيء منه .. وبعد أن عرفت أنه عزم قبل رحيله على أن يعود للزواج منها
 ويسألها الاحتفاظ بما تحمله كابن شرعى له ..

وكان عليها في الأيام التالية أن تذهب إلى يلغا لترى أسرة صلاح .. وأباه
 الغريب في بيته الذي يملؤه الإحساس بالذنب بمجرد خروجه من السجن وحرمان
 أسرته من ابنه صلاح .. عائلها الوحيد بإرساله إلى الجبهة ..

ولكن كان عليها أولاً أن تحصل على ترخيص الكشك المطلوب للرجل .. حتى
 يكون هناك معنى لزيارتها .. وحتى تحمله معها بالإضافة إلى طمأنينتهم على صلاح ..
 ولم تكن تعرف السبيل إلى الحصول على الترخيص .

المفروض أن المحافظة هي الجهة المسئولة عن منح هذه التراخيص .. ولو أن
 المسألة سهلة لاستطاع الرجل الحصول عليه دون حاجة إلى مساعدتها .. ولكنه
 كما قال صلاح .. حاول حتى يئس .. ومن أجل هذا تحتاج المسألة إلى جهد للسعي
 في سبيل الحصول عليه ..

وهي تعرف أن عبد القادر صديق للمحافظ .. وهو قادر على رجائه من أجل
 الحصول على التصريح ، وهي تستطيع أن تجده في المجلة .. فإن موعد مؤتمر الرباط
 الذى قال إنه سيسافر من أجله لم يحن بعد ..

وكانت الساعة قد بلغت الثامنة صباحا .. وهى تعرف أن عبد القادر لا يذهب إلى مكتبه قبل الثانية عشرة فى الأيام العادية .. فما بالك فى رمضان .. وقد تعود أن يسهر حتى الفجر مع شلة من الأدباء وأهل الفن فى الفيشاوى أو فى أى ملتقى آخر لأهل الفن ..

واتجهت بالعربة إلى المستشفى .. كان الوقت ما زال مبكرا وشابورة خفيفة تعلو صفحة مياه النيل وتلف الأبنية والطرق لتنبئ بיום شتاء دافئ .. وعربات النقل تنطلق بسرعة تحمل بعضها أسياخ حديد التسليح والأخرى شكايات الأبنيت .. وبعضها الآخر تحمل مجموعات عمال أو جنود ..

وبدت جزيرة الذهب .. يلفها الضباب على الجانب الآخر من صحيفة الماء .. ومن ورائها تصاعدت أطراف المداخل من الشاطئ الغربى البعيد ..

وعبرت العربة الكوبرى الذى يعلو مدخل ميناء أثر النبى .. وبدت المراكب تزحف إلى رصيف الميناء محملة بالشوالات .. أو الصفائح ..

وواصل ذهن نعمت يخطط لمشاوير اليوم ..

لديها الكثير مما تفعل .. المرور على المرضى فى المستشفى وحضور اجتماع المدير .. ثم الذهاب إلى وزارة التربية والتعليم وإدارة المعاشات ثم محاولة استخراج الترخيص إما بالذهاب إلى المحافظة مباشرة أو بالذهاب إلى عبد القادر لرجاء المحافظ نفسه وليوفر عليها مشقة التنقل بين المكاتب وهوان الرجاء .. وعليها بعد ذلك زيارة أسرة صلاح .. ثم المرور على السمسار الذى وعد بأن يريها عدة شقق خالية فى الزمالك وجاردن سيتى ..

أشياء كثيرة عليها أن تفعلها طوال اليوم .. ولكن النهار طويل .. لا تقطعه فترة الغداء .. فقد تعودت كما يفعل كل الناس فى رمضان .. الصائمون منهم وغير الصائمين ألا يعودوا إلى البيت إلا قبيل موعد الإفطار والطرق قد خلت من المارة والعربات تعدو فى سباق كأن الناس كلهم على وشك الموت جوعا إن لم يلحقوا مدفع الإفطار ..

ووصلت إلى المستشفى .. ووضعت العربية الصغيرة أسفل المظلة .. وسارت إلى الداخل ..

كان الهدوء يسود مدخل المستشفى .. وجندى يتشاءب أمام باب المصعد .. وآخر يتمطى وراء مكتب الاستعلامات .. وعمال النظافة يسحبون أدواتهم .. كان قدومها مبكرا .. ولكنها كانت تود أن تنهى عملها في المستشفى حتى تفرغ لكل هذه المشاغل التي كان عليها أن تقوم بها خارجه ..

وقبل أن تتقدم إلى المصعد سمعت صوت سرينة إحدى عربات الإسعاف .. وتوقفت لحظة .. وتوالت أصوات العربات تقبل على باب المستشفى .. وتدور إلى مكان الاستقبال ..

وتساءلت نعمت :

— ما هذا ؟

ورد العسكري في غير مبالاة :

— دفعة جرحى ..

ودخلت نعمت المصعد .. ضغط الجندى زرار الدور .. وكان ذهن نعمت يدور كالنحلة وراء قول الجندى بلهجته اللامبالية « دفعة جرحى » ثم يقفز إلى قول آخر يهتف بلا مبالاة أشد .. « قد يقتل عسكري .. ويجرح آخر .. أو تضيع الداورية بأكملها » ..

ولم تستطع أن تأخذ دفعة الجرحى القادمة .. بنفس اللامبالاة .. وهى تعرف أن مثل هذه الداوريات التى خرج فيها محمود لعبور القناة .. ستكرر .. وأنه فى كل مرة .. كما قال ببساطة « قد يقتل عسكري .. أو يجرح آخر .. أو قد تضيع الداورية بأكملها » ..

احتمال خروج محمود إلى داورية العبور قائم ..

واحتمال جرحه .. قائم ..

واحتمال .. وجوده ضمن دفعة الجرحى قائم .

وهزت رأسها محاولة أن تطرد عنها الوسوس القائمة .. ونهرت نفسها عن التفكير السيء . ، قائلة لنفسها في لهجة زاجرة ..

— غير معقول أن أفزع كلما قدمت دفعة جرحى .. إنه مستشفى عسكري .. والجهة ساخنة .. كل يوم عبور .. وكل ساعة ضرب .. وفي كل أونة تقذف الجهة إلينا بدفعة جرحى .. والمفروض هنا أن نحترف استقبال الجرحى .. لا أن نروع من استقبالهم .

ومع ذلك لم تستطع أن تقاوم الرغبة الملحة في الذهاب إلى الاستقبال .. ليس المفروض أن تجلس هكذا صامتة أو تتسكع بين غرف المرضى .. والمستشفى يستقبل هؤلاء الأبطال العائدين بجروحهم .. وذهبت إلى هناك .. تقدم يد المساعدة .. ألقت نظرة على القوائم ..

لم يلفت نظرها اسم ما .. أو اسم بالذات .. وأخذت تمر بها وجوه .. فوق النقالات تختلف قدر إصاباتهم .. البعض لا يبدو وجهه من الأربطة .. والبعض فاقد الوعي .. والبعض الآخر يرقد في استسلام مرهق .. ولكنه يعى ويسمع ويتحدث .. وسمعت صوتا يهتف باسمها :
— نعمت ..

وتلفتت فوجدت أحدهم يتسهم لها في إرهاق واستطاعت أن تميز في وجهه المرهق الملازم نبيل أخذ ضباط محمود وردت في ترحيب :

— أهلا وسهلا .. سلامتك ؟؟

— بسيطة .. شظية في الفخذ ..

— ربنا ينجيك ..

— كانت عملية مرهقة .. ولكننا أهلكناهم .

وصمت لحظة ثم استطرد يقول .. والجندي يدفع النقالة به ونعمت تسير

بجواره :

— كان سيادة المقدم معنا ..

ثم استدرك يقول ضاحكا :

— أو على الأصح كنا معه ..

وحاولت نعمت جهدها أن تكتم انفعالها وتساءلت في تودة :

— وكيف حاله ؟؟

' ورد نبيل في أسف :

— يعنى ! ..

ولم تستطع نعمت أن تخفى حدة سؤالها :

— يعنى ماذا ؟؟

— ليس على ما يرام ! ..

— كيف ؟ ..

— تعارك مع القائد ..

وأطلقت نعمت تنهيدة راحة .. لا يهم أن يتعارك مع إنسان ما .. المهم أنه بخير

.. وتساءلت نعمت لتؤكد ذلك :

— أليس بخير ..

— أجل .. ولكنه متضايق .. ولا يريد أن يواصل العمل مع القائد ..

ودخلت العربة إلى غرفة الفحص ..

قام الطبيب النوبتجي بالكشف .. وقال وهو يربت على كتف نبيل :

— بسيطة .. تمزق في عضل الفخذ ..

وأدخل نبيل إلى غرفة العمليات .. ولم يطل بقائه فيها ..

وبعد بضع ساعات عادت نعمت إلى غرفته لتطمئن عليه .. كان يحاول أن يغالب

الإرهاق الذى يثقل جسده بابتسامة يرسمها على شفثيه .. وتتم بصوت خافت :

— الحمد لله ..

— ٢١٦ —

— حمد الله على سلامتك ..

وصمت برهة محاولاً أن يتالك ثم استطرد يقول :

— لم يكن المهجوم سهلاً .. كان يمكن أن نضيع في شربة ماء .

— كيف ؟

— اكتشفوا عملية العبور في آخر لحظة .. وأطلقوا المشاعل .. جعلوا الليل

ظهراً .

— هل عبرتم بالليل ؟ .

— أجل .. لم نعرف إلا قبلها بساعات .. عرفنا بعد الظهر أننا سنعبر ليلاً ..

عرف كل منا موقعه في جماعته .. وعرف موقع باقي الجماعات .. وعلمنا كل شيء

عن المعونات التي ستقدم إلينا ..

— أية معونات ؟؟

— المدفعية .. عزلت المنطقة التي كنا سنهجم عليها عن بقية المناطق .. عطلت

تقدم أية دبابات لمعاونتها .. واستفردنا نحن بها .. دمرنا دباباتها بمدافعنا الصغيرة

المضادة للدبابات .. واصطدت أنا إحداها بشحنة مفرقات وضعتها فيها ..

ففجرتها بمن فيها ..

— استرح الآن .. لا ترهق نفسك بالحديث .

— بل دعيني أتحدث .. فإن في الحديث إليك راحة أكثر ..

وأخذت نعمت تنصت إلى الفتى بحاسة الصحف .. تستوعب كل ما يقول !.

وواصل نبيل حديثه في صوت خافت ..

— سأحدثك من الأول .. بدأنا العبور في الظلام .. ركبنا القوارب ببساطة

كأننا في عملية تدريب .. كل شيء كان يبدو كأنه مجرد طابور تدريب .. ولم

أحاول أن أقنع نفسي بغير ذلك حتى لا أعقد لنفسي الأمور .. لم أحاول أن أفكر

في أشياء أكثر من أني أقوم بتدريب للعبور والمهجوم .. لم أدخل في روعى أني أقوم

بعمل خطير .. لم أفكر في أمي .. أو إخواني .. لم أفكر في أني قد أذهب لكيلا أعود

أو لكي أعود جريماً بشظية في فخدى .. كنت أجلس في الزورق — هل أقول متبلداً — لم أكن أفكر في أكثر من أنى أريد أن أصل للشاطئ الآخر .. أن أضع قدمي على الأرض .. وأمسك بسلاحى في وجه العدو .. ولم يكن على إلا أن أجلس وأصمت .. وأدعو الله في قلبى .. لكي يسترنا .. وسترنا الله .. وصلنا جميعاً نزحفاً على سطح الماء تحت ملاءة الظلام السوداء .. صامتين .. لا نسمع حتى دقات قلوبنا أو فحيح أنفاسنا ..

— ولكنك قلت إن العدو كشفكم وأطلق مشاعله !

— ليس قبل أن يصعد الرجال من آخر القوارب .. ولكن رجال القوارب الأولى — وكنت أنا والمقدم محمود من بينهم — كنا قد ركبنا مواقعه .. فتحنا الثغرات في دفاعاته .. وشققنا طريقنا إلى باطن مواقعه بمدافعنا موجهة إليه .. وعندما بدأ يطلق النار على آخر قواربنا .. كنا كما قلت لك قد ركبناه .

— ركبته كيف ؟؟

— أعنى ركبنا مواقعه .. بتنا فوق دفاعاته .. بمدافعنا موجهة إليه .. ونيراننا مركزة عليه .. وسفكنا دمه .. وأسكناهم وحمينا رجال القوارب من نيرانه .. وصمت نبيل لحظة يتألك أنفاسه ثم استطرد يقول :

— كان سيادة المقدم محمود قاسياً ! ..

— كيف ؟؟

— كان المفروض أن نأخذ أسرى .. ولكن رفض ..

— رفض أن يأخذ أسرى ؟؟

— أجل .. قال في عنف .. وهم يرفعون أيديهم .. اضرب .. وحاولت أن أذكره .. بأن التعليمات بأن نأخذ أسرى قدر ما نستطيع .. لأن العدو ينكر خسائره .. ينكر قتلاه وجرحاه .. ويكذبنا في كل مرة .. ومن أجل هذا طلبت القيادة أن نحضر أكبر قدر من الأسرى ..

— وماذا حدث ؟؟

— رفض سيادة المقدم التسليم .. رفض الأسرى .. كانت تملكه قسوة الثأر .. ضرب بعنف .. وأمرنا أن نضرب بعنف .. أسقطنا ما بين سبعين وثمانين قتيلًا .. ودمرنا دباباتهم .. لقد أبدنا الموقع .. حتى لقد بدأت مدفعية العدو تضرب الموقع بمن فيه وما فيه .. ضربتنا وضربت ما تبقى من جنود العدو معنا .. هل تصدقون أن بعضهم مات بتران بعضهم الآخر .. ومنعت مدفعيتنا أى محاولة للعون من التقدم .. ضربت دبابات النجدة .. وضربت كل الإمدادات التي حاولت أن تقترب من الموقع .. وواصلنا نحن ضرب الإبادة .. ونحن ننشد في نشوة الثأر « الله أكبر » ومن الجانب الآخر في القناة يعلو صوت قواتنا لترد علينا في صوت يدوى كالرعد « الله أكبر » .

وصمت نبيل .. وسألت نعمت :

— وكيف عذتم ؟؟

— عدنا .. وطائرات العدو تلقى بصواريخها وتلقى بقذائف الإضاءة .. وكنا قد وصلنا إلى الشاطئ .. إلى أحضان قواتنا وتلقونا باللهفة والدفع .. ليضعونا في المواقع الحصينة التي تتفجر حولها الصواريخ في ظلمة الليل التي حولتها القذائف المضيفة إلى نهار ..

وصمت نبيل .. وانتظرت نعمت أن يقول شيئًا عن محمود ولكنه استغرق في صمته .. وسألت نعمت في شيء من التردد .

— وسيادة المقدم .. ماذا فعل ؟

— ذهب إلى القيادة .. ليقدم تقريره عن المعركة .. وعاد ثائرا ! ..

— لماذا ؟! ..

— قال إنهم غاضبون لأنه لم يحضر أسرى ..

وتتمت نعمت قائلة :

— وهل كان يستطيع أن يحضر أسرى ؟

— في معركة حامية .. كالتى خضناها .. لا تكون هناك وسيلة للتفاهم غير

— ٢١٩ —

النيران .. من العسير أن يتوقف وسط المعركة ليأخذ أسرى ..

— ولماذا كانوا يصرون على الأسرى ؟

— لأن العدو كما قلت يكذب في أرقام قتلاه .. ولا شيء يكشفه كالأسرى
ولهذا غضبت القيادة .. لأنه لم يحضر أسرى .

— وماذا قال محمود ؟ ..

— قال لهم .. لم تكن هناك وسيلة للتفاهم سوى القتل .. هل تريدون أن
أحضر لكم قتلى .. في المرة القادمة سأحمل قتلاهم على ظهري .. وأحضرهم
لنستعرض جثثهم أمام العالم .. حتى لا ينكر العدو خسائره .. ثم ترك القيادة وعاد
ثائرا .. لقد كان متعب الأعصاب ..

وتنهدت نعمت قائلة :

— معذور .. كان الله في عونته ! ..

ثم تساءلت فجأة :

— لماذا لا يأخذ إجازة ؟ ..

— عرضوا عليه هذا .. ولكنه رفض قائلا إنه ليس متعبا حتى يأخذ إجازة . ثم
طلب نقله إلى أحد المواقع البعيدة المنعزلة .. حتى يهدأ ..

— وهل وافقوا ؟ ..

— أعتقد أنه سيذهب إلى جزيرة شدوان ! ..

— شدوان ؟ ..

— أجل ..

— أين هي ؟ ..

— في البحر الأحمر على مدخل خليج السويس ..

وتنهدت نعمت في أسى وضيق وتمتمت قائلة :

— لماذا لا يحضر إلى هنا ليرتاح بعض الوقت .. لماذا يصبر على العناد .. إنه في

حاجة فعلا إلى الراحة ! ..

— ٢٢٠ —

ثم تساءلت :

— وهل سيذهب إلى هذه الجزيرة فعلا ؟؟ .

— سمعته يقول هذا .. ولكن لعله يعدل عندما تهدأ أعصابه !! ..

ونظرت نعمت إلى الساعة .. كانت قاربت الحادية عشرة .. وكان عليها أن تنهض لتبدأ مشاويرها ..

ومدت يدها تشد على يد نبيل وهي تقول :

— حمد الله على سلامتك .. سأضطر إلى تركك لأن لدى بعض المشاغل ..

هل يمكن أن أفعل لك شيئا .. أى شيء ؟

— كنت أريد أن أطمئن أُمى .. ولكنى أخشى أن يصدمها مجرد نبأ وجودي هنا في المستشفى !! ..

— إذن لماذا لا تحدثها بنفسك ؟ .. فأفضل ما يطمئنها هو سماع صوتك ..

عندما تستريح قليلا .. سأطلب من عامل التليفون أن يطلب لك الرقم .. وقل لها أنك حضرت من أجل سبب بسيط .. مغص .. أو أى شيء !! ..

— سأفعل هذا ..

— هل تريد منى أن أقوم أنا بشيء .

— أبدا ..

— ألا تريد أى نوع من الطعام ؟؟ ..

— لا تقلقى نفسك بشيء .. سأكل كل ما يقدم إلى ..

— سأحضر لك راديو صغيرا من مكتبي وسأحاول أن أمر عليك قبل أن أعود

إلى البيت .. إن لدى بعض المشاكل الخاصة بالجنود .. وسأحاول أن أسعى لحلها

لهم .. كيف حال صلاح ؟؟

— بخير .. اشترك معنا في المعركة الأخيرة .. لقد قمنا بها بالاشتراك مع إحدى

سرايا الجبهة .. حقيقة لقد كانت من خير ما قمنا به من عمليات .. إن العدو قد

أنكر في بلاغاته ما أنزلنا به من خسائر .. ولكنى أؤكد لك أننا حصدناهم ..

— ليقبل ما يقول .. المهم ما فعلناه .. لقد آن لنا .. أن نركز على ما يجب أن
تفعل .. فإن ما يفعل .. أهم مائة مرة مما يقال ..
وهز نبيل رأسه قائلا :

— أجل .. المهم أن نفعل .. ما زلت أذكر كلمات عبد الناصر « ليس يضيرنا
أن تكون كلماتنا أقل من قدراتنا فذلك أكثر أمانا من أن يقع العكس .. فليس
عدونا بعيدا .. وليس عدونا جاهلا .. ولن يكون لكلماتنا وزن إذا لم نتحقق من
قدرتنا على تدعيمها » ..

وتركت نعمت الغرفة وهبطت إلى أسفل .. وفي دقائق كانت تنطلق بالعربة
إلى المجلة ..

وفي زحام الطريق كان ذهنها يزدحم بما قال الفتى الجريح .. بالمعركة التي
وصفها .. بمحمود يضرب بعنف .. لا يريد أن يأخذ أسرى .. ولا يجد سوى
النيران وسيلة وحيدة للتفاهم ..

وهي تعرف لم فعل ذلك .. كان يرى في يد كل أسير بندقية تصوب إلى ظهره
.. طلب من عبد العزيز من قبل أن يقتل الأسير .. ولكن الأسير غدر به .. تناول
بندقية قتيل وصوبها إلى ظهره ... وكان على محمود في هذه المرة أن يتركهم كلهم
قتلى ..

كان محمود يذكر دائما الخمسة عشر ألف قتيل .. كان يذكر عودته .. عاريا
حافيا كان الثأر يملك عليه نفسه الثأر لنفسه .. والثأر لجيشه .. والثأر لبلده ..
والثأر لعروبه ..
وعلمته الهزيمة القسوة ..

وحجبت كل ما في باطنه من حنان ورقة .. كان يعرف أن الحرب .. حرب
.. وأنه لا يجب أن يرحم العدو .. لأن العدو لم يرحمه .

وأحست نعمت بمرارة .. وهي تجد نفسها .. تسلم بالحرب .. وبالقسوة ..
وماذا يستطيع أن يفعل الإنسان .. أمام القسوة .. والحرب .. إلا أن يكون

— ٢٢٢ —

- قاسيا ، ومحاربا ، على الأقل لكي يطل القسوة .. وينهى الحرب ..
ووصلت أمام باب المجلة ..
واندفع إليها المنادى الأعرج محيا في لهفة :
— أهلا ست نعمت .. يا مرحبا ..
وعندما هبطت بحلتها العسكرية هتف معجبا :
— يا ما شاء الله يا ما شاء الله .
وأحسست نعمت بشيء من الخجل من هذه الضجة التي أحدثها الرجل ..
ودلفت بسرعة إلى داخل المجلة ..
وكان أول من لقيها زميلتها فاطمة ..
ولم يكن تهليلها أقل من تهليل المنادى .. هتفت بها :
— وشك ولا وش القمر. ما هذه الغيبة ؟!
— كنت في الجبهة ..
— هكذا مرة واحدة ..
— لقد مكثت هناك فترة طويلة ولم أحضر إلا من بضعة أيام .
— وكيف الحال هناك .. يبدو أن الضرب على أشده ..
— ربنا يحميم .. يستحقون كل تقدير ..
— تعالى ..
وجذبتها إلى حجرتها قائلة :
— ماذا تشربين ؟
— لا شيء .. لقد أتيت للقاء عبد القادر ..
— وكيف حالكما .. لقد سمعنا إشاعات ..
— إشاعات عن ماذا ؟؟
— يعني !!
— يعني ماذا ؟!

— ٢٢٣ —

— يقولون أن هناك سوء تفاهم بينكما ..

— حقيقي ..

— وإلى أى حد وصل !!

— إلى آخر حد ..

— ماذا تعنين ؟

— أعنى أنى طلبت الانفصال ..

— إذن ليس الأمر إشاعة ؟

— لا .. لا .. إنه حقيقة .. وقد تركت له البيت منذ مدة .. وذهبت إلى

المستشفى ثم إلى الجبهة .. وأنا أقيم الآن وحدى فى البيت حتى تتفق على حل ..

— أنت مجنونة !!

— لماذا ؟؟ ..

— ماذا يدفعلك إلى هذا !! ..

— لا داعى لنيش الماضى .. لقد حزمت أمرى وانتهيت ..

— ولكن لماذا .. قولى .. لى ..

— لأنه .. لأنه ..

وقاطعتها فاطمة فى تساؤل ساخر :

— لأنه يخونك !!؟

— أجل ..

وانطلقت فاطمة تقهقه ثم قالت :

— يا حبيبتى .. ثلاثة أرباع الرجال خائنون — بالمفهوم الجنسى للخيانة —

والربع الآخر .. لا يعرف كيف يخون ..

ثم نظرت إليها فى غيظ :

— فاهمة !!؟؟

— ولكن ..

— ولكن ماذا .. لا يمكن أن تضعي لزوج مثل الأستاذ عبد القادر مقاييس تقليدية للزوج الصالح .. إن حياته .. كالمدينة المفتوحة .. أو بلغة المال كالاقتصاد الحر .. إنه يعامل جميع أنواع البشر .. وله علاقات بكل أنواع النساء .. أرتيست .. ومانيكان .. وسيدات مجتمع .. فهل يمكن أن تضعي حظرا على تشابكاته معهن . ؟

— لم أقصد هذا .. ولكن أقصد أن يحترم كرامتي كزوجة .
— وماذا فعل حتى جعلك تشعرين بمثل هذا ؟
— في أحد الاستقبالات في السفارة الفرنسية .. قدم أحد الدبلوماسيين الممثلة زينات شكرى على أنها مدام عبد القادر ..
وانفجرت فاطمة مقهقهة وهي تقول :
— حيوان .. ما ذنب عبد القادر في هذا ؟ ..
— لأنه منحها ما جعل الناس يفرضون لها هذا الوضع ..
— يا ستي .. وماذا حدث .. شبكت .. أنا مستعدة يقول عنها إنها مدام ..
زوجي وحلال عليها ..

ثم صمتت للحظة وأردفت تقول :
— ألم بمنحك .. كل ما تريدن .. ألم يوفر لك الحياة المريحة .. الهائلة .. ألم يحسن معاملتك .. أنت لم تعرفي قرف الحياة .. وقسوتها .. لم تعرفي مرض الأولاد وافتقارك إلى فيزيطة الطبيب إذا مرضوا آخر الشهر .. لم تعرفي كيف تستيقظين ذات يوم فلا تجدن معك طعام اليوم .. اعقلي يا نعمت وربنا يهديكي ..

وتنهدت نعمت وتمتمت بصوت خافت :

— قلت لك لقد انتهى الأمر ..

— ستندمين ..

ثم صمتت برهة وأردفت :

— إلا إذا كنت قد رأيت لك طريقا آخر ؟

— ماذا تقصدين؟؟

— أقصد أن هناك رجلا آخر !!

وصمتت نعمت برهة تفكر ..

هل هناك رجل آخر ١١؟؟

وقد يكون هناك هذا الرجل الآخر .. ولكنه بالطبع لم يكن سببا لطلب الانفصال .. فقد طلبته قبل وجوده .. وعندما يحدث الانفصال لن يكون له أية علاقة به ..

وهزت نعمت رأسها ..

واستطردت فاطمة تقول :

— وحتى لو كان هناك هذا الشخص الآخر .. فأنت مجنونة .. أولا .. لأنه ما من شخص يستحق أن تضحي من أجله بحياة هائلة مستقرة .. وثانيا .. لأن أى شخص آخر .. يمكن أن يفعل ما فعل الشخص الأول ..

وأقبل الأستاذ سعيد سكرتير التحرير .. فحيا نعمت فى حرارة .. قائلا :

— أهلا وسهلا .. خطوة عزيزة .. ما هذه الغيبة الطويلة .. هل استغنيت عنا ! .

— وهل أستطيع ؟ ..

— إذن لماذا كل هذه الغيبة !؟

— يعنى .. ذهبت إلى الجهة فترة ثم انشغلت بعد ذلك بمشاكل الجنود ..

— كان الله فى العون .. لقد أتيت الآن من عند الأستاذ عبد القادر .. كنت أعرض عليه الماكيت .

والتفت إلى فاطمة وهو يقول فى عجلة :

— سنأخذ فى الصفحات الأولى موضوع الهجوم الأخير على موقع العدو فى

القناة .. وصلت إلينا صورة ممتازة .. وسيختصر موضوع الإعصار الذى اجتاح

شرق الباكستان إلى صفحتين بدل أربع صفحات .. وفى صفحة الفن سنأخذ

(العمر لحظة)

— ٢٢٦ —

خبر طلاق الأمير خالد من زوجته الممثلة شمس البارودي .. و ..
وقاطعته نعمت قائلة عن إذنيكما سأصعد أنا إلى الأستاذ عبد القادر ..
والتفتت إلى فاطمة :
— سأمر عليك بعد أن ألقاه ..

وصعدت نعمت إلى الدور العلوى .. ودخلت من الباب الرئيسى مباشرة ..
دون المرور على السكرتيرة .. وفوجئ عبد القادر بها .. فنهض مرحبا وقد بدت
عليه الفرحة :

— أهلا وسهلا .. ما هذه المفاجأة ١١٩٩

— أتيت في رجاء ..

— خير ١١٩٩ ..

— أريد ترخيصا لكشك سجائر ..

وتساءل عبد القادر وهو يضحك في دهشة :

— لماذا .. كفى الله الشر .. هل خدمة الجيش أصبحت غير مريحة إلى هذا

الحد ؟

ولم تملك نعمت إلا أن تضحك وردت قائلة :

— لم أقصد ترخيصا لى ..

— لمن إذن ؟ ..

— لوالد أحد الجنود في الجبهة ..

— ولماذا لم يتقدم بطلب الترخيص ؟

— لقد تقدم .. ولم يعطوه إياه .

— وماذا تريد منى ؟

— أن ترجو المحافظ ..

— أهو مهم إلى هذا الحد ؟

— مهم لأنه العائل الوحيد لأسرته ..

— ٢٢٧ —

— وماذا كان يعمل ؟

— كان سجيناً ..

— هكذا !! .. ومن كان يعولهم قبل أن يخرج من السجن ؟

— الابن ..

— وماذا حدث ؟ ..

— بمجرد خروج الأب .. جند الابن .. فقدت الأسرة عائلها الابن .. دون

أن يملك الأب إعالتها .. بسبب السابقة الأولى ..

— مفهوم .. والمطلوب الحصول له على ترخيص لكشك السجائر ..

— أجل ..

— وهل معه نقود ؟

— أعتقد هذا .. على أية حال المهم الحصول على الترخيص وتدير النقود بعد

هذا أمر سهل ..

وصمت عبد القادر لحظة ثم قال :

— حاضر .. عيني الاثنين .

ثم رفع السماعة وقال للسكرتيرة :

— أعطني المحافظ ..

ثم التفت إلى نعمت متسائلاً :

— ما هو الاسم ؟؟

وأخرجت نعمت من حقيبتها ورقة صغيرة كتب عليها الاسم ورقم الطلب

وتاريخه ..

وضع عبد القادر الورقة أمامه ..

وبعد لحظة دق الجرس وقالت السكرتيرة :

— سيادة المحافظ .. معاك يا فندم ..

وعلا صوت عبد القادر يقول في ترحيب :

— أهلا وسهلا سيادة المحافظ .. يا فندم كنت منور امبارح في الاجتماع ..
تحت النظر يا فندم .. حاضر يا سيادة المحافظ .. والله لنا رجاء .. بخصوص رخصة
كشك سجائر .. لأحد خريجي السجون ..
واستطرد عبد القادر .. يشرح الموضوع ثم أملى الاسم ورقم الرخصة وختم
حديثه قائلا :

— يا فندم ألف شكر .. سأرسل الرجل لمدير مكتبك .. غدا الساعة العاشرة
.. أهلا وسهلا .. مع السلامة .

ووضع عبد القادر السماعة وهو يقول لنعمت :

— خلاص يا ستى .. الموضوع انتهى .. أرسل الرجل غدا الساعة العاشرة ..
صباحا لمدير مكتب المحافظ .. وسيجرى له اللازم ..
ونظرت إليه نعمت نظرة ملؤها الشكر وتساءلت :

— حقيقة سيأخذ الترخيص؟؟

— طبعا !!.

— متشكرة جدا ..

وضحك عبد القادر :

— متشكرة لماذا !؟

— لأنك فعلت لي هذا الجميل ؟

— المفروض أنى أفعله ..

— إننا سنرفع الهم عن أسرة .. وسنجعل جنديا في الجبهة يحارب وهو قرير

العين . !

— أنت إنسانة طيبة .. وأرجو أن يهديك الله ..

وأجابت في هدوء :

— متشكرة .. ربنا يهدينا جميعا ..

ونظر إليها وهي تمد يدها محيية :

— ٢٢٩ —

- هكذا بسرعة ؟!
- لا بد أن أذهب لهذه الأسرة ..
- كنت أود أن آخذ بعض أشياء من مكتبي .. هل يمكنني أن أحضر ؟
- بالطبع يمكنك .. إنه بيتك ..
- أخشى أن أضايقتك !!
- إني في المستشفى في معظم الأوقات .
- وإذا كنت موجودة .. هل يضايقتك حضوري ؟!
- من حقت أن تحضر وقتما تشاء .. وعندى اليوم موعد مع السمسار ..
- لأشاهد بعض الشقق في الزمالك وفي جاردن سيتي ..
- وهز عبد القادر رأسه .. وقال في دهشة :
- عجيبة .. لماذا تصرين على كل هذا ؟!
- هكذا أفضل ..
- إذن .. ابقى في البيت .. لقد قلت لك إني على استعداد لتكره لك ..
- ولكنني لست على استعداد لمضايقتك ..
- إني لن أتضايق .. إنني أعيش الآن مع أختي .. وعندما أتضايق .. أحجز في شبرد .. المسألة ليست مشكلة بالمرة .
- وقالت نعمت في حزم :
- هذا ليس حلا .. لا بد أن أجد لي أنا بيتا .. وسأرسل في طلب أمي لتعيش معي ..

وشدت على يده ثم غادرت الحجرة ..

وانطلقت بالعربة إلى شبرا ..

قال لها صلاح إن البيت أقرب من ناحية الترعة البولاقية ..

ولكنها كانت تعرف أن شارع « يلغا » أسهل عن طريق شبرا ..

وانطلقت في الشارع المزدهم حتى عبرت شارع مسرة ثم مدرسة التوفيقية ..

— ٢٣٠ —

وشارع شيكولاني .. ثم وصلت إلى يلغا .. وعبرت يمينا في الشارع الضيق
المزدحم .. وبدأت تقرأ أرقام البيوت وقرب آخر الشارع وصلت إلى ٣ ..
وصعدت الدرج .. إلى الدور الثالث .. ودقت الجرس .

وانتظرت فترة ثم طرقت الباب ..

وخرجت لها فتاة صغيرة .. سألتها :

— الست موجودة ؟ ..

— نقول لها مين ؟

وترددت نعمت برهة ثم قالت :

— واحدة من طرف صلاح ! .

ومن وراء الفتاة الصغيرة برزت سيدة وخط الشيب رأسها وبدت التجاعيد في
وجهها .. وبدت الدهشة على وجه السيدة وهي تتساءل :

— أيوه ١١٩٩!

— أنا نعمت .. كنت في الجبهة وقابلت صلاح !

وأفسحت السيدة الطريق قائلة لنعمت :

— اتفضلي يا ستي .. اتفضلي .. إزاي صلاح ؟ ..

ولم يكن في لهجة السيدة من الحماس والترحيب والفرحة ما توقعته نعمت ..
كانت رنة الحزن أغلب على صوتها .. ولاحظت نعمت أنها تتشع بالسواد ..
ومع ذلك لم تؤخذ نعمت بمنظر السيدة ولا بلهجتها .. كانت في مجموعها
أقرب إلى ما توقعته ..

كان كل شيء في البيت كما وصفه صلاح .. وأطلت وجوه الصبية والبنات من
وراء الباب ثم اختفت .. ولم يبد أثر للأب .. ربما كان نائما في غرفته !!

أطرقت السيدة في وشاحها الأسود وملاحظها الخزينة ثم تهتدت متسائلة :

— إزاي صلاح ؟؟ ..

— بخير .. يهديكم تحياته وأشواقه .. ويسأل على الأولاد ..

— ٢٣١ —

وساد الصمت .. انتظرت السيدة أن تتم نعمت حديثها .. وحاولت نعمت أن تجد أقصر طريق إلى ما تريد دون أن تضايق السيدة ..
قالت نعمت :

— حدثني صلاح عن الرخصة !! ..
ولم يبد على السيدة أنها أدركت شيئاً .. ولم تعلق بشيء ؟؟
واستطردت نعمت تقول :

— وقد استطعت أن أحصل على موافقة المحافظ على منح الرخصة ..
والمطلوب أن يذهب الوالد في الساعة العاشرة للقاء مدير مكتب المحافظ .. من أجل أن يجري له اللازم ..
وبدا الشرود في عيني السيدة .. ثم أطلقت تنهيدة طويلة وقالت وكأنما تحدث نفسها :

— الوالد .. مات ..
وللحظة .. لم تفهم نعمت ما تقصد السيدة وتساءلت :
— أفندم !!؟؟ ..
وقالت السيدة بلهجة جامدة :
— الوالد .. مات ..
وهتفت نعمت مذهولة :
— مات .. كيف .. لقد فص على صلاح كل شيء .. وكان عنده أمل ..
وتمتعت السيدة في نبرة خافتة :
— انتحر ..

وصمتت لحظة ثم استطردت تقول :
— خلص من هم الدنيا !! ..
وتملك نعمت إحساس بالأسى والحزن. بلغت مأساة الرجل نهايتها .. لم يعد في حاجة إلى رخصة .. وإلى كشك .. وإلى مال لإعالة الأسرة .. خرج من الحياة

وأغنى الناس عنه:

ووجدت نعمت نفسها تتساءل في لوعة :

— ولكن .. لماذا .. وكيف ؟؟

وردت السيدة باختصار :

— ألقى بنفسه في النيل .. وترك لنا هذه الورقة .. لم يعثروا على جثته بعد ..
لم نقم عزاء ولم نشيع جنازة .. ولم ينشر النعي .. ولا قلنا لصلاح شيئا .. لم
يعرف أحد سوى الأقارب .. ولم يحس أحد بذهابه .. كما لم يكن يحس بوجوده
أحد ..

وصمتت المرأة لحظة مغرقة في الشroud :

— لقد خرج من السجن .. ثم ذهب وكأنه ما عاد ..

ومدت السيدة يدها تحت حشية الأريكة وأخرجت ظرفا سلمته إلى نعمت

قائلة :

— هذا كل ما ترك .

وأخرجت نعمت رسالة الرجل المنتحر ومرت بعينها عليها تقرأ بسرعة :
« حاولت عمرى أن أقدم لكم ما يسعدكم .. حاولت أن أغنيكم وأريحكم
ولكنى أخطأت السبيل .. وجنيت عليكم بالسجن .. وأوقعت بكم الذل بدل
أن أوفر لكم السعادة والعزة .. وخرجت إليكم .. فإذا بحريتي شر من سجنى ..
وإذا بى أقضى عليكم مرة أخرى .. بأن أكون طليقا بينكم .. بعد أن قضيت
عليكم من قبل بدخولى السجن بعيدا عنكم .. ويشت من أن أكون لكم شيئا
.. ووجدت أن خير ما يمكن أن أهديه لكم لأكفر عن كل سيئاتى هو أن أرحل
عنكم .. وإذا كانت حياتى وبالا عليكم .. فلم يعد لى ما أستطيع أن أهديه لكم
سوى موتى .. فليعنى الله على الوصول إليه .. وليغفر لى ما تقدم من ذنبى وما
تأخر » ..

وطوت نعمت الرسالة ثم أعادتها في سكون إلى السيدة .

— ٢٣٣ —

— إني آسفة .. هل أستطيع أن أفعل لكم شيئا ؟

وردت السيدة قائلة .. وهي تودعها للباب :

— كتر خيرك .. إني أشعر أني في دوامة .. ولا أدري ما أفعل .. ولكننا سنرسل

في طلب صلاح .. وأرجو أن يعيننا الله ويهيئ لنا من أمرنا رشدا ..

(١٣)

حنين مع الريح

رحل محمود إلى جزيرة شدوان ..
 كان يحتاج إلى فترة سكونية أو ما سماه « أنترأكت » يخلو خلالها إلى نفسه ..
 بعد مجاركة المتواصلة مع العدو .. والتي انتهت بمعركة مع القيادة ..
 لقد رفض النزول إلى القاهرة .. رغم الحنين إلى شيء ما بها .. يحس أنه ملك
 عليه نفسه .. بل لعل هذا الشيء ذاته هو الذى قذف به بعيدا إلى الجزيرة النائية
 كهروب من أمنية طائشة .. وأمل سرايى لا يحمل بريقه سوى اليأس والحرمان ..
 وشد رحاله إلى الجزيرة .. بحقيقته وسلاحه وفراشه السفرى .. وبضع
 روايات بوليسية .. وسنارة صيد .. وكان أشد اهتماما بالروايات والسنارة .. إنه
 لم يشعر قط أنه ذاهب ليخوض معركة .. كانت الجزيرة لا تضم أكثر من مائة
 عسكري لحراسة الفنار والرادار لإرساء السفن فى البحر الأحمر .. وحمايتها من
 الصخور والشعب المرجانية ..

كان محمود يحس أن وجوده فى الجزيرة الصخرية المنعزلة .. ليس أكثر من
 عملية استجمام لا بد أن يعود بعدها إلى ممارسة القتال الفعلى فى القنال ..
 وكانت أقرب نقطة عمار إلى الجزيرة (غير القواعد البحرية) هى الغردقة
 التى لا تتجاوز الثلاثين كيلو مترا وأقرب نقطة للعدو هى شرم الشيخ التى لا
 تتجاوز الخمسين كيلو مترا إلى الشمال الشرقى للجزيرة ..

واستقر محمود فى كوخ حجرى صغير على الشاطئ الجنوبى .. نصب له خليل
 المراسلة فراشه السفرى ووضع الحقيبة على أحد المقاعد الخشبية ..

— ٢٣٥ —

- ووقف الملازم شريف ينتظر أوامر محمود ..
- وقال محمود متسائلا .. يقول أى شىء لمجرد الكلام :
- ها .. كيف حالكم ؟
- الحمد لله يا فندم ..
- كله تمام ؟؟
- تمام يا فندم .. أى أوامر ؟؟
- وهز محمود رأسه وقال :
- كل شىء يستمر كما هو .. ليس لدى تعليمات خاصة بأى شىء .. إذا
- احتجت أنت إلى شىء — وأرجو ألا تحتاج — فتنال إلى ..
- ثم أشار إلى بضعة جنود من مركز رئاسته .. قدموا معه :
- دبر لهم ما يلزم للإعاشة وضمهم إلى قوتك .. اترك لى خليل فقط ..
- ثم صمت لحظة وتساءل :
- كيف تتصلون بالدنيا .. أعنى التعيينات والصحف .. كيف تدبر لكم ؟؟
- المركب تأتى مرتين فى الأسبوع .. تحضر التعيينات والمياه وأحيانا
- الصحف .. ولدينا مطبخ للجنود .. وطباخ للضباط .. وعندنا فى المخزن من
- التعيين الجاف والعلب المحفوظة ما يكفيننا لأكثر من أسبوع .. والأهالى هنا من
- الصيادين يهيمون لنا السمك بوفرة .. كلهم أناس طيبون .. وعلاقتنا بهم وثيقة ..
- ودرويش أفندى موظف الفنار .. رجل طيب وكثيرا ما يستضيفنا .. وقد دعانا
- اليوم إلى الإفطار عنده فى الفنار .. احتفالا بوصولك ..
- وضحك محمود وقال ساخرا :
- بوصولى أنا .. لم يخطر ببالى أن وصولى إلى الجزيرة .. شىء يستحق
- الاحتفال .. لقد أتيت لأسترخى وأهدأ ..
- وقال شريف :
- نعتذر له .. يا فندم ؟ ..

— ٢٣٦ —

— لا .. لا .. سأستريح الآن ومر على قبل موعد الإفطار لنذهب سويا ..
ودخل محمود إلى الكوخ الصغير . خلع الحذاء وتمدد بالفانلة الصوف
والبنطلون .. وكان متعباً فأغفى .. واستيقظ على ريح باردة تهب من خلال الباب
.. وجلس على فراشه يتمطى ..

ثم قفز من الفراش ..

ووقف بباب الكوخ يرقب الشمس تنحدر نحو الأفق الغربى .. واشتدت
هبات الريح .. وعلا الموج يلطم صخور الشاطئ المرجانية .. وبدت مرتفعات
الجزيرة تنكسر على قممها أشعة الغروب الحمراء لتلقى بالظلال السوداء على
الجانب الآخر ..

ودس محمود قدمه في الحذاء .. وسار على الأرض الصخرية تجاه الشاطئ ..
وأخذ شهيقاً طويلاً ملاً صدره بريح البحر .. وأطلقه في زفرة بطيئة كأنه يغسل
بها كل ما في جوفه من هموم ..

لماذا أتى إلى هنا ؟ ..

ليستريح !!؟ .. إنه يكره الراحة ..

لهرب ؟ ..

يهرب ممن ؟ .. ومن ماذا ؟

هل ضاق بقتال العدو ؟ ..

مطلقاً !! لقد بات يفعله كأنه طابور تدريب ..

لماذا إذن تشابهك مع القيادة ؟ ..

لماذا فقد أعصابه !!؟ ..

أهو ذلك الإحساس الذى يملؤه بالحنين .. إلى شيء ضائع .. شيء مفقود ..
شيء ميثوس منه ؟ ..

ولكن لماذا يشعر أنه كذلك !!؟ ..

لأنها هى أصرت على أن تجعله كذلك .. لأنها تنصرف بإزائه بحزم جائر قاتل

وبالمقاييس المثالية .. لماذا لا تتصرف معه كبشر .. وهما الاثنان من جنس البشر ..
.. إنهما ليسا من فصيلة أخرى .. تسمو على البشر .

أم لعلها كذلك ..

ومن أجل هذا تحاول أن تجعله كذلك ..

وعاد يستنشق ريح البحر ويزفرها ..

ثم كر عائدا تجاه الفنار ..

وفي الطريق لمح شريف مع بقية الضباط يهتف به :

— ذهبنا لسيادتك فلم نجدك ! ..

— خرجت للتمشى ..

— الجو يبرد في الليل .. ألا ترتدى سيادتك المعطف ؟ ..

— لا داعي .. إن الفائلة ثقيلة ..

ساروا تجاه الفنار ..

وفجأة التفت محمود متسائلا :

— ولكن لماذا نثقل على الرجل ونكلفه ؟

— إننا نساهم بما لدينا من أطعمة .. وطباخنا هو الذى يطبخ ..

وضحك محمود قائلًا :

— قل لى هذا !! ..

ودار محمود حول مبنى الفنار وصعد بضع درجات تؤدي إلى شرفة خشبية

ليجد درويش أفندي ومعه بقية موظفى الفنار وجهاز الرادار .. وقد ارتدى عباءة

فوق القميص والبنطلون وبدأ بجسده الأعجف ووجهه الأسمر ورأسه الأجرد إلا

من شعيرات قصيرة بيضاء كأنها قطعة من أرض الجزيرة .. وهتف به الرجل

مرحبا :

— أهلا وسهلا .. أهلا وسهلا ..

وأشار بيده إلى الباب :

— تفضلوا .. فالجو قد بدأ يبرد ..
ودخل محمود إلى حجرة فسيحة أحيطت بالأرائك .. ووضعت في جانب
منها منضدة رصت عليها الصحاف والأطعمة ..
وجلس الجميع على الأرائك .. ينصتون إلى القرآن يعلو من راديو وضع في
ركن من أركان الحجرة .. وكانت الحجرة تطل على فناء يتوسطه الفنار وفي
الجانب الآخر من الفنار يبدو مبنى آخر مكون من بضع حجرات .. ينحدر منه
درج يؤدي إلى الشاطئ الصخري ..
واختتم المقرء قراءته .. وارتفع صوت المذيع يقول نحن الآن في انتظار مدفع
الإفطار .. ثم دوى المدفع ..
وبدأ الجميع في شرب أكواب قمر الدين المعبأة في العلب .. ثم انتقلوا إلى
المائدة والتفوا حولها .. خليط من شتى الأعمار والمهن .. يشدهم حيط دقيق وثيق
هو العرق المصري ليدفع في أعماقهم شعورا بالحنين والحب .. والقلق على شيء
غير محدد المعالم ولكنه راسب في الأعماق .. اسمه .. مصر ..
مضوا يعضون اللقمة في صمت .. كلمة من هنا .. وكلمة من هناك .. حتى
انتهى الإفطار .. ودارت عليهم أكواب الشاي ..
صلى البعض .. وأنصت البعض الآخر إلى المسلسلة الإذاعية .. وجرى الزهر
وتحرك قشاط الطاولة في أيدي البعض الآخر ..
ثم بدأت نشرة الأخبار ..
وعلا صوت المذيع بالنشرة ..
انتهت المحادثات التي يجريها نائب رئيس الجمهورية السيد أنور السادات في
موسكو مع السيد ليونيد بريجنيف سكرتير أول اللجنة المركزية للحزب الشيوعي
السوفييتي وقد أذيع نص البيان ..
وعلق محمود على البيان يقول :
— المهم هو السلاح .. إن أمريكا تدعم عدونا بالسلاح يوما بعد يوم .. وهو

يكره مواجهتنا .. ويحاول دائما أن يدمرنا قبل المواجهة ..

واسترسل المذيع في إذاعته :

استطاع جنودنا البواسل إبقاء العلم المصرى مرفوعا فى عملية رأس الجسر التى قاموا بها قرب البلاح أكثر من ٢٤ ساعة .. حاول العدو نزع العلم ثلاث مرات .. انسحب فى المحاولة الأولى بعد تحطيم دباباته .. وفشلت المحاولة الثانية بعد تدمير عرباته النصف مجنزرة .. ثم تقدم فى محاولة ثالثة تحت مظلة من ١٢ طائرة سكاي هوك فأسقطت وسائل دفاعنا إحداها على الضفة الأخرى للقناة .. وعاد محمود يعلق على النبأ قائلا :

— فى كل مرة لقيناه وجهها لوجه .. ضربناه بعنف .. لقد كنا نثير فيه الذعر .. شاهدت الكثير من لقاءات المواجهة ..

ومد أحدهم يده إلى مفتاح الراديو يخفض صوته .. وأرهدف الجمع إلى حديث محمود الذى استطرد يقول :

— إن العدو يمر بأيام مرهقة فى هذه المرحلة .. لقد فقد أكثر من مائة قتيل فى اشتباكات مباشرة .. وضرب بالمدفعية وعمليات قناصة وانفجارات ألغام .. لقد استطعنا أن ندقه جيدا .. فى كل لقاء ..

وتتم درويش أفندى بصوت خافت وكأنه يتحدث نفسه :

— إذا كنا كذلك فلماذا جرى لنا ما جرى ..

وتطلعت الوجوه إلى محمود .. وضعت فناجين الشاي على المائدة .. واستقر زهر الطاولة فى الأكف .. ومد صياد عجوز عنقه فى لهفة على الرد .

ومد محمود ساقيه وعقد ذراعيه فوق صدره وأفرغ من صدره زفرة طويلة .. طال صمته بعدها حتى بدا كأنه لن يقول شيئا .. وبدا الشك فى الأبصار وهم الزهر بالحركة .. وهمت الأيدي تتناول فناجين الشاي ..

وقطعت الحركة — الوشيكة — ضحكة قصيرة ساخرة أطلقها محمود من أنفه .. ثم قال :

— كلنا نريد أن نعرف لماذا جرى .. ما جرى .. نطلق السؤال في حيرة ..
وكأننا لا نعرف .. ثم نجيب عليه في ثوان .. في حزم .. وكأننا نعرف معرفة اليقين
.. تنصيد الذنوب والخطايا للذين نكره .. ونطلقها في شماتة نلول بها كأننا
الضحايا .. وهم الجناة ..

لم تبد على الوجوه علامات الفهم .. أو الاقتناع ..
وتساءل درويش أفندى في شيء من الإلحاح :

— ولكن لماذا هزمنا ؟ ..
وأحس محمود كأنه قد وضع في قفص الاتهام ولم يملك إلا أن يتسم قائلاً :
— أشعر كأني مسئول عن الهزيمة !! ..
وقال أحد الموظفين :

— العفو يا فندم .. نحن نريد أن نعرف .. ما دمت تقول إننا لا نخشى ملاقاته
العدو ..

— ليس فقط لا نخشاه .. بل أقول إننا عندما نلتقى .. وجها لوجه .. فهو
الذى يخشانا .. هذا شيء أقوله ليس بالنقل والرواية .. ولكن بالتجربة ..
ومن جديد عاد يرتفع السؤال الملح من تلك المجموعة العجيبة التي ضمها
الفنار في الجزيرة النائية ..
وبدأ محمود الحديث :

— لست أظنني أعرف ما أستطيع أن أدعي أنى قادر به على الرد على السؤال
المحير .. ولكنى كأى مواطن لى وجهة نظر .. وقد لا تكون وجهة نظرى هي
المثلئ .. ولكنها وجهة نظر عسكري عاش ظروف المعركة .. ومقابل المعركة ..
وتساءل درويش أفندى في نبرات واضحة محددة :
— هل فشلنا في السياسة .. أم فشلنا في القتال ؟؟
ورد واحد من الجمع :
— كانت سياستنا خطأ .. لأننا ..

وقاطعه آخر :

— بل كان فشلنا عسكريا ..

وقال محمود ضاحكا في سخرية :

— ولأم المخطئ الهبل ..

وتساءل الصياد العجوز :

— يعنى إيه !!!؟

ورد محمود :

— يعنى أننا لانبحث عن عيوبنا إلا بعد الفشل .. فإذا كان النجاح حليفنا ..

فكل ما بنا حسن ..

وقال درويش معقبا :

— وما دمنا فشلنا .. فلنبحث معا عن عيوبنا ..

وأجاب محمود :

— لا يمكن أن يكون هناك سبب بعينه لما حدث لنا .. بل لا يمكن أن نعفى

حتى سوء الحظ .. من أن يكون أحد هذه الأسباب .. ولو حالقنا الحظ في المغامرة

.. لكنا الآن نعدد أسباب انتصارنا بدلا من البحث عن أسباب هزيمتنا ! ..

وتساءل شريف :

— ولكن هل هى مغامرة ؟ ..

— كل حركة فيها نوع من المغامرة .. وتختلف نسبة نجاح المغامرة .. بقدر ما

يوضع لها من حسابات ..

— وهل وضعت حسابات مغامراتنا جيدا ؟! ..

— بغير شك ! ..

— وهل فشلنا لمجرد سوء الحظ .. الذى قلت إننا لا نستطيع أن نغفیه من أن

يكون أحد أسباب الفشل !!!؟ ..

— نبحث كل الأسباب .. ونرى أين يقف فيها سوء الحظ ؟

وتساءل أحد الموظفين :

— هل كان جيشنا معدا للمعركة ؟؟ ..

— أفضل أن نبحث المسألة بالتسلسل بدل أن نبحثها بالأسئلة المتناثرة !! ..

وتساءل درويش أفندى :

— هل كنا كأمة قادرين على القتال .. معدين له .. أم أن الذنب يقع على عاتق

الجيش ؟! ..

ورد أحدهم :

— أليس هذا الجيش من تلك الأمة ؟!

وقال محمود :

— هل تحول السؤال ليكون : هل هزمت الأمة .. أم هزم الجيش ؟! ..

ورد الصياد العجوز :

— أجل !! ..

وقال محمود :

— بالقطع لم تهزم الأمة .. وإن كان ذلك لا يمنع من أن تكون هي بتخلفها ..

أحد أسباب الهزيمة ..

وتساءل درويش :

— كيف ؟! ..

— في نظري أن الأمة كالأفراد .. قد يكون هناك فرد .. يعانى بعض العلل

وبعض الضعف .. وهو يحاول أن يتقدم .. وقد يخطئ .. ويتعثر .. ولكنه .. يواصل

العيش .. يتقدم بقدر ما يبذل من جهد ويتعثر بقدر ما يرتكب من أخطاء ..

ولكنه عندما يقدم فجأة على معركة تودى به .. أو تصرعه .. لا يمكن أن ننسب

مصرعه للعلل الطبيعية التى اعتادها .. رغم ما يمكن أن يربط بين العلل المعتادة

التي أضعفته وبين انهياره فى المعركة المفاجئة التى أقدم عليها .

ومرة أخرى بدا عدم الفهم على الوجوه .. ولم يجد محمود بدا من أن يعيد

الشرح .. قائلا :

— أقصد .. أننا كشعب . لنا عللنا كمجتمع عانى مما يسمونه التخلف .. وأن مجتمعنا ملء بالمساوىء .. ولكننا نتقدم .. بما نملكه من مزايا وقدرات تعادل المساوىء .. وكان يمكن أن نواصل تقدمنا بكل ما نملكه من حسنات ومساوىء .. ولكن عندما ندخل معركة .. تصيينا بضربة قاضية .. لا يمكن أن نرجع إصابتنا لمجرد علل مجتمعنا الطبيعية .. رغم ما يمكن أن يكون من أثر لهذه العلل على قدرتنا في خوض معركة .. ولكن يجب أن نحدد الخطأ المباشر الذى كان سببا لهزيمتنا في المعركة ..

وتطلع أحد الموجودين إلى محمود .

— إننا نحاول أن نتساءل ؟!

— إذا وضعنا جانباً .. خطايا مجتمعنا الطبيعية .. التى نحاول مقاومتها .. مسلمين بأنها لابد من أن يكون لها أثر عام على قدرتنا فى أى اتجاه .. بما فيه الاتجاه العسكرى .. وحاولنا أن نبحث عن أسباب الهزيمة فى محيطها الخاص كان علينا أن نبدأ بالسؤال .. هل كنا معدين عسكرياً للمعركة التى خضناها ؟ ..

وصمت محمود برهة .. حتى بدا كأنه يوجه السؤال إلى الجمع ..

وقبل أن يحرك درويش شفتيه بالإجابة رد محمود :

— لكى نكون منصفين .. لا نستطيع أن نجيب بلا أو نعم .. قاطعة ..

ورد الصياد العجوز فى نوع من التبرم :

— بماذا نجيب إذن ؟؟

— لقد كنا نعد لمعركة خلاص .. ولكن كما قال عبد الناصر .. لأحد الوفود الفلسطينية .. ليس لدى حل جاهز لاستعادة فلسطين .. ولكنى أبنى من أجل الإعداد لمعركة الخلاص .. ولكن المعركة التى خضناها .. فرضت فى وقت لم نعد له .. وبأسلوب .. لم نرده !!

— كيف ؟؟ ..

— المشكلة التي عانينا منها .. وما زلنا نعانى منها حتى الآن .. هي المعادلة الصعبة .. هل نصفى المشاكل العربية ونحقق الجبهة العربية الموحدة أولا .. ثم نواجه إسرائيل بأمة عربية واحدة تتكون من مائة مليون عربي قادر .. أم نواجه إسرائيل بما نحن عليه .. بما هو في الإمكان .. وهو بغير شك .. ليس أفضل ما كان وما يمكن أن يكون ..

وقال أحد الضباط :

— لقد حاولنا جهدنا .. أن نحقق وحدة الحرية والاشتراكية والتقدم ..

ورد محمود :

— حاولنا إلى حد القتال .. وذهب جيشنا إلى اليمن ليساند ثورتها من أجل هذه

الوحدة ..

ورد درويش أفندى :

— وتركنا إسرائيل ؟؟ ..

— لم نتركها .. ولكننا كنا نعد لها بطريق أطول .. وأسلوب أبعد ..

ورد أحد الموظفين :

— ولكنها لم تتركنا نمضى في طريقنا .

وعقب درويش على كلامه :

— تلاحقت الأحداث بسرعة .. بدأت بهجمات الفدائيين على إسرائيل من

الحدود السورية .

وعقب أحد الضباط :

— وتجمعت الحشود الإسرائيلية في جنوب سوريا ..

— وأبلغنا الاتحاد السوفييتى بهذه الحشود !! ..

— هل كان يحاول أن يدفعنا إلى المعركة ١٩ ..

ورد محمود جازما :

— الاتحاد السوفييتى حذرنا من الدخول في معركة .. عندما أنبأنا بالحشود

— ٢٤٥ —

الإسرائيلية ! ..

وتساءل صوت :

— ولماذا حركنا قواتنا إذن ؟؟ ..

ورد محمود :

— أولا لأننا نتحرك بإرادتنا نحن .. وثانيا لأن لدينا التزام الأخوة والدم للشعب السوري .. أتركه يهدد .. ونقف صامتين !! ..

وتساءل أحد الموظفين :

— حتى هنا .. وكان يمكن أن ينتهى الأمر .. حشد هناك .. وحشد هنا .. لماذا طلبنا سحب قوات الأمم المتحدة ؟؟

ورد محمود :

— هنا تأتى الحركة الجسور .. أو التى نطلق عليها وصف المغامرة .. والتى إذا نجحت .. تصبح عملا رائعا .. وإذا فشلت .. يصبح علينا .. أن نبحث فى أسى وندم — كما نفعل الآن — عن أسباب الفشل ..

وتساءل الصياد العجوز :

— وماذا دفعنا إليها ؟

— كانت قوات الأمم المتحدة .. عقب حرب ٥٦ تقف على شرم الشيخ .. وكانت السفن الإسرائيلية تمر من المضيق .. وكانت الإذاعات العربية .. تلهينا بسياطها .. لأننا نترك إسرائيل تمر .. وكانت فرصة سانحة .. لسحب قوات الأمم المتحدة وإعادة السيطرة على المضيق ..

وتساءل أحد الموظفين :

— ألم نتوقع معركة ؟ ..

ورد محمود :

— بالطبع أدخلناها فى حساباتنا ! ..

— أكنا قادرين عليها ؟ ..

— كنا قادرين .. بالطريقة التي تصورتها القيادة العسكرية وقتذاك ..

— أية طريقة؟؟!!

— الهجوم .. كانت القيادة مقتنعة بأنها قادرة على هزيمة إسرائيل بتوجيه الضربة الأولى .. كانت خططها مرسومة على حسابات الهجوم .. ضرب المطارات .. وضرب الأماكن الاستراتيجية ..

— وماذا حدث؟؟ ..

— حذرنا كما هو معروف بتجنب البدء بالهجوم .. وكان علينا أن نحسب حساب الرأي العام العالمي ..

— ثم ؟ ..

— تلقينا نحن الضربة الأولى .. ضربة محكمة .. اتضح أنه كان يعد لها بإحكام منذ عام ٥٦ .. دمرت طائرتنا على الأرض كما هو معروف بعد ساعتين من المعركة .. ولماذا كنا نذيع كل لحظة أننا أسقطنا طائرات العدو؟؟ ..

— كانت طائرات العدو تلقى خزانات البنزين الفارغة .. فنرصدها على أنها طائرات أسقطناها .. ووجدت قواتنا نفسها تقف على خط المواجهة .. وتقاوم الضربات الأولى باستبسال وشجاعة .. ولكن الأوامر صدرت بالتقهقر .. بعد أن فقدنا طائرتنا كمحاولة من القيادة .. لإنقاذ قواتنا من الدمار .. وماذا حدث بعد ذلك ؟ ..

— حاولنا أن نقف على خط الدفاع الأخير قبل القناة .. واحتشدت مدرعاتنا فيه .. وصدرت الأوامر لما تبقى من طائرتنا لوقايتنا أثناء العمل .. وهبت علينا يومها ريح الأمل .. كان كل شيء يبعث على التفاؤل .. حتى ضربت طائرات العدو مطاراتنا .. فدمرت المجارى الجوية للطائرات .. وعجزت الطائرات عن التحليق .. وواجهت قواتنا في وقفها الأخيرة .. معركة الدمار الشامل .. بغير غطاء جوى .. وتفككت صواميل الجيش ودمرت قواته .. وعدنا نلهث مشردين في الصحراء ..

— ٢٤٧ —

وبدا الأسى على الوجوه .. وبدأت لمعة الدموع فى عينى الصياد العجوز
وهمهم قائلاً :

— يادى المصيبة يا ولاد .. يا خسارتك يا مصر !!

وتتم درويش أفندى فى اعتزاز وهو يغالب دمه :

— مصر كبيرة يا عم خلف .. كبيرة بغير حدود .. يامامات منها ناس وبقيت
كما هى .. مصر المزارع .. مصر الصحارى .. مصر النيل .. مصر الأهرامات ..
مصر الأجيال .. تجرى كمياه النيل .. لا تحف فيها الحياة .. ولا يخبو فيها الأمل ..
وقال محمود وهو يرسل زفرة قصيرة :

— مصر باقية كما بقيت دائماً .. ولكنها جرحت .. مصر تنزف .. وهى تحتاج
إلى عمل حاسم يوقف نزيفها .. ويضعها من جديد لكى تواصل انطلاقها .. بكل
ما تملكه من قدرات .. فى الأرض وفى الشر ..

وقال درويش أفندى :

— البركة فيكم !! ..

ورد محمود :

— فىنا جميعاً .. نحن على الجبهة لا نملك إلا حياتنا .. ونحن نقدمها ببسر .. لا
نحاول اللحظة أن نفكر فى أن لها قيمة .. ولكن الذين ورائنا .. يملكون الكثير ..
يملكون الجهد الذى يجب أن يبذلوه .. فى كل ضربة فأس فى مزرعة .. وفى كل
دورة ترس فى ماكينة .. وفى كل سطر يقرؤه تلميذ فى مدرسة .. فى كل مشرط
فى يد الطبيب .. وفى كل خط يرسمه مهندس .. وكلمة يطلقها مدرس .. الذين
وراءنا يملكون بمجدهم وانضباطهم .. أن يلموا جرح مصر النازف .. وأن
يساندونا لكى نفرض على العدو إرادة مصر .. من أجل الحرية .. والكرامة ..
والحياة الآمنة .. ومن أجل أن يعود كل فلسطينى مشرد آمناً إلى بيته ..

ورد عم خلف الصياد :

— ربنا كريم ..

— ٢٤٨ —

- ثم نهض محميا :
— تصبحوا على خير ..
وقال له درويش :
— إلى أين ؟ ..
— حل موعد النوم ..
وقال محمود :
— ما زال الوقت مبكرا .. رمضان يحب السهر يا عم خلف !
— نحن لا نعرف السهر .. الصيد يحب البكور ..
وقال محمود :
— تصطاد بالشبك .. والا بالسنارة ؟
— بالاثنين ..
— عندى سنارة .. وأريد أن أصطاد معك .. أريدك أن تعلمنى الصيد على أصوله ..
ورد الرجل بتواضع :
— العفو يا سعادة البيه .. أنا تحت أمرك !! ..
— مر علىّ فى أى وقت .. غير الفجر .
— أى وقت أنا موجود تحت أمرك .
وخرج الرجل .. وبدأ الجمع ينفذ ..
وقال درويش وهو يودعهم :
— لم نعرف متى العيد !!؟
ورد شريف :
— المفروض أنه بعد غد !!..
ثم التفت إلى محمود قائلا :
— كنا نظمنا إجازات العيد بين الجنود .. هل أعرضها على سيادتك ؟

— ٢٤٩ —

- لا .. لا .. مشيها كما هي ..
— وسيادتك ستنزل في العيد ؟ ..
— لا .. سأبقى .. تستطيع أن تنزل أنت ..
— كنت قد ربت الإجازة بالتبادل مع بقية الضباط ..
— افعل ما تريد ..
— هل تريد سيادتك أن تمر على المواقع غدا ؟ ..
— نمر معا في أى وقت تريد .. ولكن ليس في الفجر ..
— وضحك شريف ثم تساءل :
— العاشرة معقول ؟؟ ..
— أجل ..
— وعاد محمود إلى الكوخ .. بعد أن ودع الجمع ..
— كانت الريح باردة .. أحس بها تنفذ إلى عظامه من خلال القافلة .. وحاول أن
يتلمس طريقه بين الصخور وهو يشعر بلسعة البرد ..
— كان خليل في انتظاره .. بعد أن أعد الفراش ..
— وتساءل محمود :
— أخبرك إيه ؟؟ ..
— الحمد لله ..
— بردان ؟! ..
— الريح لاسعة ! ..
— أين ستنام ؟ ..
— توجد دكة خشبية في المطبخ .. لقد أعددت لسيادتكم السحور ووضعته
على منضدة في الحجرة ..
— إذن اذهب واسترح ..
— هل أوقظك للسحور ؟ ..

— ٢٥٠ —

— لا داعى .. سأتناول أى شىء قبل أن أنام ..
 واخلع محمود ملايسه واستلقى على الفراش ..
 وأحس بجسده فى حاجة إلى الراحة .. ولكن ذهنه .. كان يقظا مشدودا :
 مرة أخرى .. عاد يتساءل :
 لماذا أتى إلى هنا ؟؟ .
 هل ضاق بكل شىء ..
 الحقيقة .. أجل ..
 هل ضاق بالقتال ..
 لم يضق به .. ولكنه لم يعد يستهويه كما بدا فى أول الأمر .. لقد بات عملا ..
 معادا .. أشبه بطواير التدريب .. وحتى انفعال الثأر .. قد أخذ يخف .
 إنه يريد عملا كبيرا ..
 يريد شيئا يرد كرامة مصر كلها ..
 وهو لا يعرف متى يمكن أن يأتي هذا العمل الكبير ..
 لا يبدو أن هناك تخطيطا لشيء كبير .. وهو لا يعرف السبب ..
 هل لأن الأسلحة لم تستكمل بعد ؟ ..
 هل هى متوقفة على أمور سياسية لا يدركها هو .
 ولكن لماذا يلقي بنفسه هنا ..
 أهو نوع من الهروب ؟؟ ..
 الهروب من ماذا ؟؟؟ ..
 من كل شىء ..
 ولكنه لم يستطع أن يهرب من شىء .
 مناقشة الليلة .. قد دفعته إلى اجتراح المشكلة .. ودفعته إلى الإحساس .. بأن
 كل الناس .. فى كل مكان فى مصر .. يعيشون المشكلة .. حتى عم خلف الصياد
 .. ودرويش أفندى مسئول الفئار .. ثم هو هل يقطع بعدم الدخول فى معركة فى

مثل هذا المكان ؟ ..

ألم يهاجم العدو .. الجزيرة الخضراء .. وحاول النزول فيها أكثر من مرة. لقد نزل بقواته المحملة في القوارب .. ولكن قواتنا اكتشفتها في نقطة النزول واستطاعت المدفعية في شاطئ القناة أن تصطادها وأن تغطي حامية الجزيرة وتمنع أى محاولة لضربها بطيران العدو ..

ولكن هل ممكن أن يكرر محاولته هنا ؟

— من يدري ؟ ..

على أية حال لا بد أن يتفقد مواقع القوات وتدريبهم .. ولكن أى قوات ؟ .. على رأى المثل .. يا جحا عد غنمك : إنهم لا يزيدون على مائة عسكري .. والباقي صيادون وموظفون في الفنار وفي جهاز الرادار .. ولكن ما له وكل هذا ..

لماذا لم يأخذ إجازة ويذهب إلى القاهرة .. فيستجم برهة ويقضى العيد مع الأهل ..

— أى أهل ؟

سامية زوجته .. دائمة التجهم والتبرم .. وهى قادرة على إثارة النكد بغير

مبرر ..

داليا ابنته ..

أليس لها حق عليه .. إنها الوحيدة المظلومة معه .. لماذا لا ينزل ولو لبضعة أيام ليراها .. ويعطيها عيديها ؟ .. أجل .. لا بد أن ينزل ..

ونعمت !! ..

أيذهب ليراها ؟ .. ليقول لها كل سنة وأنت طيبة ..

شئ واجب ..

ولكن هل هذا هو كل ما يريد أن يقول لها ؟!

وأطلق تنهيدة حارة .. حملها بعض الأسى الذى يرسب فى أعماقه ..
 هذه المخلوقة التى يحاول نسيانها .. باتت ترسب مع الأسى فى أعماقه ..
 إنه يهرب منها هى ..
 إنها وحدها سبب مجيئة إلى هنا .
 لم يضق بالقتال .. ولم يضق بأى شىء .. سواها ..
 كما أحس بها أجمل ما فى حياته .. أحس بها أبعد شىء عن حياته ..
 إنه يريد لها ملتصقة به .. جزءا منه .. يريد أن يمد يده كل لحظة .. فيجدها ..
 يتحسس شعرها .. يقبل طرف أنفها .. ويتحسس بشفتيه التمش الخفيف الذى
 يتناثر أسفل عينيها وفوق خديها ...
 يريد لها .. ملكه .. مهما قال الناس عنها .. ومهما قالوا عنه ..
 يريد أن يغير طريقه .. لأنه يشعر أنها هى وحدها باتت ضوء طريقه ..
 ولكنها .. تريده بعيدا .. وتريده .. مجرد نموذج ..
 لا تريد كما قالت أن تشوه صورته .
 وكأن لديها مجرد صورة أو تمثال ..
 وأغمض جفنيه .. وحاول أن ينام .. فلم ينام ..
 وحملت إليه الريح صوت ارتطام الموج بالشاطئ الصخرى .
 ومد يده يعثر بمفتاح الراديو ..
 ووسط الهدوء الذى لا يقطعه .. سوى صوت الموج الآتى من بعيد ..
 انبعث من الجهاز الصغير ..
 همسة حلوة .. من مصر .. ضفيرة .. جدلت فيها الكلمة الرقيقة .. باللحن
 الجميل .. بالصوت الساحر العذب ..
 يا هدى الحيران فى ليل الضنا ..
 أين أنت الآن أم أين أنا ..

— ٢٥٣ —

يا بعيد الدار عن عيني ومن قلبي قريبا ..
أناديك بأشواق ولا ألقى مجيبا ..
وأحس كأن الصوت يحكي شكواه .. ويث حنيه .. وتمنى لو تنقل الريح
الشكوى .. وتحمل الحنين ..

(١٤)

قاتل أو مقتول

استمرأ محمود البقاء في الجزيرة النائية ..
 ذهب مرة إلى القاهرة .. ثم عاد وهو يشعر أن الجزيرة باتت خير ملجأ له ..
 تعارك مع زوجته كالعادة .. وترك لها البيت وخرج ولقى ابنته برهة .. ثم
 ذهبت في رحلة مع المدرسة ..
 وسأل عن نعمت .. الهدف الأول .. لعودته إلى القاهرة .. أو الهدف الأول
 الذى يرسب في أعماقه .. بغير أمل في البلوغ .. وبغير رجاء في التحقيق .. فلم
 يجدها في المستشفى .. ولم يعرف إلى أى مدى يمكن أن يزعجها لو حاول
 الاتصال بها في البيت .. ولكنه حاول مرة وأخرى فلم يستطع العثور عليها ..
 وأخيرا ذهب إلى المستشفى ..
 لقيها تسير بين عنابر المرضى .. ندت عنها صرخة دهشة وفرحة ولهفة لم
 تستطع أن تكتمها ..
 أمسك بيدها وكأنه يضمها إلى صدره ..
 تأمل عينيها الواسعتين .. والتمش أسفلهما وأنفها الدقيق المرفوع بفتحيه
 الضيقتين اللتين طالما حيره كيف يسمحان بدخول الهواء ..
 وبدا العتاب في عينيها :
 — لماذا رحلت إلى الجزيرة ؟؟ ..
 وأطلق من أنفه الزفرة القصيرة الساخرة وسألها :
 — ولماذا لا أرحل .. مكان ناء يمنحني فرصة للاسترخاء ..

— ٢٥٥ —

— والهروب ؟؟ ..

— ربما ..

— من أى شيء ؟ ..

— من كل شيء ..

— حتى منى ؟ ..

— أحاول أن أقنع نفسى بذلك حتى أمنحها إحساسا بالكبرياء .. ولكنى أعرف أنى أهرب من شيء هارب .. شيء غير موجود .. ولكنها كما تعرفين محاولة لرد الاعتبار ..

— لماذا تتحدث هكذا ؟ ..

— ألسنا كذلك ؟ ..

— أنت تعرف مشاعرى ..

— وأستمع بها على البعد .. هل يمكن أن يمنحنى القرب شيئا أفضل ؟ .
وتنهدت وهى تحاول أن تسحب يدها .. وقد بدأ القلق يتتبعها من وقتها فى الممر .. وردت فى نبرة يائسة :

— سيعقد لنا القرب الأمور .. وقد يفقدنا كل شيء .. حتى هذا الإحساس الممتع الذى ننعم به على البعد والذى لم يمنحنا القدر سواه ..

— تبعثين اليأس فى نفسى .. وتملئيني بالأسى والرغبة فى الهروب ..

— ألا يقنعلك ما بيننا ؟ ..

— بالطبع لا .. أود أحيانا .. لو أختطفك .. وأهرب بك على ظهر حصان كفرسان العصور الوسطى .. كم ساورتنى الرغبة فى أن أقدم على حماقة .. أن أفعل بك ما أريد .. بدلا من أن أخضع لما تريد .. ولكنى أخشى أن أفعل ما يؤلمك .. وأنا لا أطيق التفكير فيما يخدش مشاعرك .. وأخشى أن تكرهينى فأفقد حتى

ما تبقى لى من متعة .. تمنحنى العزاء على البعد والقدرة على تحمل الفرقه ..
وزاد بها القلق من وقتها وبدا أن المكان لا يحتمل أكثر من هذا اللئاء الخاطف

— ٢٥٦ —

.. إن حدود عملها المرضى .. وهو لم يأت كمرضى ..

وأحس بأن المفروض ألا يطيل اللقاء .

قال هامسا :

— هل ألقاك ؟ ..

وسألت يائسة :

— كيف ؟؟ ..

— في أى مكان ..

— هل هناك مكان يمكن أن يجمعنا بطريقة طبيعية ؟ ..

— نذهب إلى مكان عام .. شبرد .. هيلتون ؟ ..

— غير معقول ! .

— نذهب إلى مكان خاص ..

و لم تجبه بأكثر من نظرة لوم رادعة .

وعاد يتساءل فى يأس :

— نذهب إلى الجهة ؟ ..

ثم أردف يقول بضحكة ساخرة :

— هذا هو المكان الطبيعى الذى يجمعنا بطريقة لا تثير الأوقاويل .. أو ..

وبسط كفيه فى استسلام :

— أخرج .. وآتى إلى هنا ..

— بعد الشر !! ..

— بل هو خير الخير .. الشر هو ما أنا فيه ..

— لا تقل هذا ..

ورد فى يأس :

— سأعود إلى الجزيرة ..

وتساءلت فى أسى :

- هل تكتب لي ؟؟ ..
- سأحاول ..
- وصمت قليلا .. ثم أردف في حزن :
- أرسلت إليك ذات ليلة مع ريح البحر .. « أقبل الليل » .
- أسمعتها دائما .. « يا بعيد الدار عن عيني .. ومن قلبي قريبا » ..
- وأرسلت زفرة قصيرة مريرة وهمست :
- ألا يكفيني هذا .. ليتك تكون سعيدا به ..
- سأحاول ..
- وستكتب لي ؟ ..
- أيضا سأحاول ..
- وستأتي ؟؟ ..
- لألقاك بضع دقائق .. في ممر المستشفى ؟ ..
- وردت في عتاب حزين :
- وماذا تريدني أن أفعل ؟ ..
- لا شيء ..
- ثم قال ساخرا :
- في المرة القادمة .. سأفرض وجودي عليك .. سأبقى مدة أطول ..
- سأعود جريحا ..
- لا تقل هذا .. ستعود دائما بالسلامة .
- ومدت يدها تضغط يده وتقول في حنان :
- مع السلامة .. سأنتظر رسائلك ..
- وضغط يدها وتمنى لو استطاع تقييلها .. ولكن طرقات الأقدام على أرض
- الممر من حولهما .. لم تسمح بأكثر من ضغط يد .. وكلمة وداع هامسة ..
- وعاد إلى الجزيرة ..
- (العمر لحظة)

أحس فيها بشيء من السكينة والاستقرار ..
 وذهب يقضى وقته بين المرور على مواقع الجنود .. ومراقبة تدريبيهم .. وبين
 لعب الطاولة مع درويش أفندى فى الفئار .. أو الجلوس على صخور الشاطئ
 للصيد مع عم خلف ..

حاول مرة أن يكتب إليها ..
 — أمسك القلم .. وكتب . وشطب .. ثم مزق الورق ..
 وراح ينغم مرة أخرى .. فى تدريب الجنود .. ولعب الطاولة والصيد ..
 والدردشة .

ومرة أخرى حاول أن يكتب ..
 عزيزى ..

أحاول كما قلت لى أن أنعم على البعد بالمشاعر الحلوة ..
 وأكون كافرا بالنعمة .. لو أنكرت متعتها .. ممتع أن أستعيد على البعد كلماتك
 الحلوة .. « ومن قلبى قريبا » .. ممتع أن أحس أنى قريب إلى قلبك قربك إلى قلبى
 .. ممتع ألا أتساءل مع شوق :

موقعى عندك لا أعلمه

آه لو تعلم عندى موقعك

ممتع أن أشعر أن موقعى عندك بات كموقعك — الذى تعلمين — عندى ..
 ممتع أن أستعيد لناظرى .. وجهك المشرق .. وبسمتك الحلوة .. وهساتك
 الرقيقة .. ونظرتك اللهفى ..

ممتع أن أستعيد ضغطة يدك على يدى .. وكأنها ضمة حانية ..
 وأنا أحيأ فى وحدتى .. على رصيدى من مشاعرك .. أجتره فى الدهن وألوكه
 بين الحنايا .

ولكننى أصحو فجأة .. على لسعة حرمان .. فنحن لا نستطيع أبدا أن نعيش
 على الحجر يغلى فى القدر ..

أصبحو فجأة .. لأحس بلهفة على .. ضمك .. ضمك أنت .. بلحمك
ودمك .. بعد أن مللت ضم الهواء .. وعناق الأوهام ..

يا حبيبتي .. أكره أن أكون كافرا ..
ولكنني لا أطبق أن أعانق شبحك .. وأنت موجودة ..
أستطيع أن أثب إليك .. لأشم عبقك .. وأمس يدك .. وأتحسس عينيك
ورموشك وطاقتي أنفك .. وشفتيك .. أنا أعرف طريقى إليك .. إنه طريق
حياتي ..

وإذا كنت قد أخطأت الطريق في أول العمر إلى غيرك .. فأني أعرف هذه المرة
طريقى إليك ..

خلال المعارك التي خضتها .. كنت أحس دائما أن العمر لحظة .. يذهب في
طلقة .. أو شظية ..

وعندما أفكر فيك الآن أشعر أن العمر لحظة .. يأتى .. فى ضمة .. أو لمسة ..
أو همسة ..

هل تجاوزت حدى فى الكتابة ..
هل استطعت أن أعبر عن نفسى ..
إذا كنت لم أفعل .. فعذرى .. أنى محب .. ولست بكاتب ..
اكتبى أنت إلى .. تتمنحيني بعض ما أجتره .. ما دامت أحيأ على الاجترار ..
وما دامت متعتنا قد اقتصرت على مشاعرنا الحلوة ..
نختطفها من الريح .. نلوكها على البعد .. « أناديك بأشواقى .. ولا ألقى
بجيبا » .

وأرسل محمود الرسالة .. وب نفسه إحساس من يضع رسالة فى زجاجة ويقذف
بها مع البحر .. تصل أو لا تصل ..
وعاود أعماله الروتينية فى الجزيرة ..
جلس يلعب الطاولة فى فناء الفنار ..

قذف درويش أفندي الزهر وهو يقول :

— دوبارة ..

وحرك قشاطا هنا وقشاطا هناك وواصل حديثه قائلاً :

— انتهى مؤتمر الرباط دون قرارات .. قالوا إنه قد حدثت أزمة حادة في آخر المؤتمر وإن عبد الناصر غادر الجلسة قبل الأخيرة بعد أن شرح لهم في اجتماع مغلق في أول جلسة تطورات الموقف في عامين ودور مصر في المواجهة العسكرية .. وقذف محمود الزهر وهو يسأل :

— من أين عرفت هذا ؟؟ ..

— يعنى حاعرفه من أين .. من إذاعة التقطتها في الراديو .. قالوا إن عبد الناصر غادر الجلسة الأخيرة نتيجة لعدم الاتفاق على الحشد العسكرى للمعركة وأنه قال « إن المؤتمر لم يخرج بشيء .. ويجب أن يعلن للناس أن المؤتمر فشل حتى لا نخدع الناس ونمنهم بالآمال الكاذبة » ..

— معه حق .. كفانا قرارات سرية .. ومؤتمرات لانخرج منها بشيء ..

— طب وآخرتها ؟؟ .

— لا شيء .. يجب أن نعتمد على أنفسنا .. وعلى الممكن فعلا .. وليس على

الأماني ..

وأخذت الأيام تمر بعد ذلك في الجزيرة .. لا تخلو من ملل ..

لا يقطع مللها سوى أنباء عن هجمات قواتنا في القنال ..

ومع بداية العام الجديد بدأت الضربات تشدد ..

أسقطت ٦ طائرات إسرائيلية فوق جبهة القتال .. انفجرت طائرتان في الجو

وسقطتا فوق الأراضي المصرية ..

اشتعلت الجبهة بمعارك عنيفة ..

وبدأت قواتنا هجومها على مواقع العدو في سيناء فاشتبيكت في معركة حامية

ثلاث ساعات وأنزلت بالعدو خسائر كبيرة .. ودك الطيران مواقع العدو في

الشط والقنطرة .. حاولت طائرات إسرائيل الانتقام فأسقط الدفاع الجوى طائرة
سكاي هوك ..

وتوالى إسقاط طائرات العدو .. أسقطت ثلاث طائرات أخرى بضربة رائعة
.. سقطت الأولى عند بير عريب. والثانية بالقرب من شاطئنا فى خليج السويس
وهبط طيارها بالبارشوت وتعذر إنقاذه من سملك القرش .. وأصيب الثالثة بقذيفة
مباشرة فانفجرت فى الجو شرق عجروود ..

وبدأ العدو ضرباته فى العمق .. لإحداث أكبر قدر من التأثير النفسى
والسياسى فتسللت طائراته إلى هاكستب .. ووادى حوف .. وأسقطت طائرتان
سكاي هوك ..

وجلس محمود مع دوريش أفندى .. وقد بدا عليهما القلق ..
قال محمود :

— هذا غير معقول .. لقد بدأ العدو يضرب قواتنا فى معسكراتها .. وغدا
يضرّبون أهدافا أخرى .. ونحن لا نستطيع أن ندافع أو نرد !! ..
أجاب درويش :

— لقد قال السادات فى أسبوط فى أحد الاجتماعات الشعبية .. إننا نجتاز اليوم
مرحلة غاية فى الحساسية والخطورة .. وإن حطة العدو خلالها تتركز فى القيام
بغارات جوية على الخطوط الخلفية بهدف التأثير على خطوطنا الدفاعية وإثارة
الذعر فى الجبهة الداخلية على أمل إشاعة روح اليأس بين صفوفنا والتسليم بشروط
العدو .. ولكن هناك خططا تم وضعها لمواجهة هذه الحملات المسعورة والرد
عليها . وعلى الجبهة الداخلية أن تؤكد تماسكها حتى تفوت على العدو أهدافه ..
ورد أحد الموظفين :

— ربنا يستر ..

وقال عم خلف :

— مصيبة .. لماذا لا نذهب ونضربهم فى قلوبهم كما يضربوننا فى قلوبنا ؟؟ ..

وأجاب محمود :

— ليس لدينا طائرات تصل اليهم ..

وضرب عم خلف كفا بكف :

— مصيبة يا ولاد .. مصيبة .. إننا هنا نستطيع أن نواجههم .. ولكن ماذا يفعل

الناس في الشوارع والبيوت ..

وقال محمود :

— لا بد أن نعددهم إعدادا كاملا للمعركة .. لن تكون المعركة مجرد مواجهة

على الخطوط الأمامية ..

وانصرف الجمع .. وملء قلوبهم إحساس بالضيق والغضب ..

ومرت بضعة أيام ازداد إحساس محمود خلالها بالملل .. واستقر رأيه على

العودة إلى الجبهة والأنباء تتوالى باحتدام القتال على شاطئ القناة .. وتوالى الغارات

في الداخل ..

وحزم محمود متاعه .. واستعد للعودة ..

استيقظ في الصباح .. شرب الشاي الذي أعده له خليل .. ثم ذهب لوداع

درويش أفندي ..

كان الجو صافيا .. الريح هادئة .. وأشعة الشمس المشرقة تنبئ بيوم دافئ ..

وقف درويش أفندي يشد على يد محمود ويودعه في تأثر :

— ستقطع بنا .. أخذنا عليك .. وملأت أيامنا بالحياة وأضعت منها

الوحشة ..

— سأعود إليكم ..

— كلام .. الذي يذهب عنا لا يعود إلينا ..

— لقد قضيت معكم أياما طيبة ..

— نرجو هذا .. ونرجو أن تذكرنا بالخير ..

— دائما .. سأعطيك عنواني في مصر .. لعلنا نلتقي يوما .

وقبل أن يخرج درويش أفندى ورقة ليكتب العنوان .. سمع أزيز طائرات .. ثم صوت دوى ..

وتوقف في مكانه لحظة .. وازداد الأزيز وازداد الدوى .
العدو يغير بطائراته .. على الجزيرة ..
ماذا يغى منها ؟ .. أترأه يريد أن يحقق ما لم يدرك بعدوانه على الجزيرة
الخضراء ..

الجزيرة نائية .. بعيدة عن مرمى المدفعية .. بعيدة عن الإمداد .. وحاميتها
لاتزيد عن مائة جندي .. ويستطيع أن ينقض عليها من البر والبحر والجو .. قبل
أن تعينها أقرب قاعدة ..
وهتف محمود بدرويش :

— العدو يهجم .. انزلوا المخاليق ..
ثم اندفع بأقصى سرعة نحو المواقع ..
وبعد لحظات كان يكمن مع شريف في موقع القيادة ..
وازدادت ضربات العدو .. وأخذت تمر السكاي هوك موجة إثر موجة تفرغ
حمولتها فوق الأبنية والمواقع .. وفي كل مكان ..
وتطلع شريف إلى محمود متسائلا :
— نضرب ؟؟ ..

— تضرب ماذا .. ولماذا .. دعهم يلقوا بحمولتهم .. ومر عساكر بالاختباء
في المواقع جيدا .. لا نريد خسائر لا مبرر لها .. ولنحتفظ بذخيرتنا نطلقها فيما
يجدى ..

وأعطى شريف أوامر للمواقع المتناثرة في الأخوار الصخرية ..
واستمر ضرب الطائرات في عناد وإلحاح ..
٤ ساعات من الضرب المتوالى .. والجزيرة تهتز من الانفجارات ..
وتساءل محمود :

— يوجد إصابات ؟؟ ..
 — قليلة .. وقد سحبنا الجرحى وراء الجبل فى مكان آمن .. حتى نوفر لهم
 الإسعاف اللازم ..
 وبدأ الدوى يهدأ .. وسمع صوت أزيز من نوع آخر ..
 وهمس شريف :
 — هليوكوبتر !! ..
 وهز محمود رأسه موافقا ..
 وساد الصمت ..
 وبدأت الهليوكوبتر محاولة النزول قرب المواقع ..
 وتساءل شريف :
 — نفتح نار ؟؟ ..
 — افتح ..
 وبدأ ضرب المدافع من المواقع الصخرية بعنف ..
 ودارت الهليوكوبتر دورة ثم انطلقت هاربة نحو السماء .
 وقال محمود ..
 — نفذت مجلدها ..
 وهذا الدوى برهة .. ولكن لم يلبث حتى اقتربت موجة جديدة من السكاي
 هوك .. وعاد الدوى أشد مما كان .. تركيزا وعنفا ..
 كانت محاولة للتأديب .. لأن نيران المواقع جرؤت وأبعدت الهليوكوبتر
 ومنعت إنزال الجنود ..
 وكان الاتصال مع القيادة مستمرا بواسطة جهاز اللاسلكى .
 أبلغت القيادة أن الهليوكوبتر .. طارت .. ثم أبلغت أن الضرب عاد أشد مما كان ..
 وأبلغت القيادة أن الإمدادات تعد للإرسال إلى الجزيرة فورا .. وأن على
 قوات الجزيرة الصمود .. حتى النهاية .

— ٢٦٥ —

وهز محمود رأسه مسلما وهو يتسم ساخرا :
— العدو أمامكم وفوقكم .. والبحر حولكم من جميع الجهات .. نحن أسوأ حالا من طارق بن زياد .. حيث كان العدو أمامه والبحر وراءه ..
وقال شريف لمحمود :

— اللاسلكى عطل .. ماذا نفعل ؟؟ ..
— وماذا نستطيع أن نفعل .. سوى القتال ..
— قالوا إن الإمدادات تعد للإرسال فورا !! ..
— تأتى .. أو لا تأتى .. هنا قدرنا ولا بد أن نواجهه ..
وقذفت طائرات العدو المواقع بقنابل دخان .. نشرت فوقها سحابة دخان كبيرة .. أظلمت الجو وأعمت الجنود عما يدور حولهم ..
وبدأ النزول ..
أفرغت الهليوكوبتر .. حمولاتها .. فوق الطرف الآخر من الجزيرة في أقصى الشمال ..

وخرج جنديان يحملان مدفعى آر . بى . ج .. يقتربان من مواقع العدو في محاولة للاستكشاف .. واشتبكا مع الطائرات .. ففتكت بهما ..
وبدأ صوت العدو من مكبرات العدو من مكبرات الصوت باللغة العربية ..
محاو لا إقناع القوات المدافعة عن الجزيرة بالاستسلام ..

علا صوت العدو منذرا :

« لا فائدة من المقاومة » .

« نحن نهاجم من البر والبحر والجو » .

وهمس محمود معلقا ..

— نعرف يا جبناء ..

وعاد الصوت يهتف :

« أين طيرانكم ؟؟ »

ورد محمود :

— الله أعلم !!

وواصل مكبر الصوت نداهه :

« لن يصلحكم أى إمداد » ..

ورد محمود فى حوارہ الخافت مع الميكروفون :

— غير مهم ..

واستمر الميكروفون يذيع :

« أنتم شبان أبرياء .. لن نقتلكم .. نريد أسرى فقط » .

وضغط محمود على ضروسه فى غيظ وتتم قاتلا :

— أسرى .. والله لن تأخذونا إلا جثثا ..

ثم وجه القول إلى شريف :

— أنا لا أتعامل بالأسرى .. بطلت هذا من يوم موت عبد العزيز .. ليس هناك

وسيلة للتعامل مع السفاحين غير القتل — وكما يقول المثل — يا قاتل .. يا مقتول ..

وبدأ العدو تقدمه .. عبر التباب والصخور .. وأطلقت المواقع نيرانها تحصد

القوات المتقدمة ..

وتوالى هبوط طائرات الهليكوبتر المحملة بالجنود ومعداتهم تحت حماية

المقاتلات .

واستمر الضرب من المواقع على الموجات المتقدمة ..

وفجأة سقط صاروخ فى مخزن الذخيرة .

وقال محمود فى غيظ :

— غير معقول .. نحن فى حاجة إلى كل طلقة ..

ورد شريف :

— سآمر العساكر .. بإنقاذ كل ما يمكن إنقاذه من صناديق الذخيرة ..

وبدأ العساكر يحملون الصناديق بعيدا عن المخزن المتفجر .. وتوالى

الانفجارات وسط الصناديق ..
والجنود ينقلون الصناديق في بساطة وكأنهم ينقلون مخزن تعيين يحوى
جوانات عدس لا مخزن ذخيرة متفجر ..
وحمل أحدهم صندوقا يحتضنه بذراعيه .. وكانت النار قد مست طرف
الصندوق ..

وفجأة انفجر الحمل بصاحبه ..
وأحس محمود وهو يرقب المنظر .. بشيء يلتوى في باطنه .. ولكنه تغلب على
ضعفه .. وصاح بالجنود الذين توقفوا برهة أمام الجندى الصريع ..
— وبعدين .. احنا في عرض كل طلقة ..

وبدأ الليل يسقط .. أرخى سدوله رويدا رويدا .. حتى عمت الظلمة ..
وأحس محمود ببعض الارتياح ..
قال شريف :

— سأنقل الجنود إلى المواقع المتبادلة .. فقد عرف العدو مواقعنا .. وسيحاول
أن يضربها ..

ورد محمود :

— أفعل بسرعة .. وفى صمت .. وسنكون مجموعات صغيرة للإغارة على
العدو .. إننا نستطيع أن نستغل فرصة الظلام جيدا .. إنه يشعر بالضيق فى الظلمة
.. ولكننا نعرف الجزيرة جيدا .. ونعرف مسالكها .. ونستطيع أن ننزل به أكبر
قدر من الخسائر خلال الليل ..

وانتقل الجنود إلى مواقعهم الأخرى ..

ثم بدأت عملية التسلل ..

الرجال يتحركون كالأشباح فوق صحور الجزيرة .. لا همسة .. لا كلمة ..
حتى يواجها مجموعة من جنود العدو .. فيقضوا عليهم .. بالرشاشات والقنابل
اليديوية .. حتى تنفذ الذخيرة ..

ويبدأ الهجوم بالسلاح الأبيض ..
 وكل جندي يسك بسلاحه ويتقدم في حزم وإصرار ..
 إذا لم يكن أمامه إلا أن يكون قاتلاً أو مقتولاً .. فليكن قاتلاً .. وقاتلاً ..
 .. حتى يلقي مصرعه .. ليكون عزاءه عن الحياة .. هو إنهاء حياة أكبر عدد ممكن
 من العدو الذي سيضيع هذه الحياة .. سيشكل أمه .. ويتم أطفاله ..
 لم يعد يهم كل هذا .
 لقد أحس كل منهم .. منذ بداية الهجوم .. أن الموت قدره .. فلماذا لا يفعل
 كل ما يستطيع من التنكيل بعدوه .. قبل أن يقتل ..
 وبهذا المنطق تحرك الجنود ..
 أشباح في الظلام تحمل الموت للعدو .. أينما تجده .. لم يعد يشغله أبداً الخوف
 على نفسه .. لم يعد يفكر في الأمن والسلامة .. وإنما يفكر .. في أفضل طريقة
 لاستئثار ما تبقى في عمره .. من لحظات .. وما تبقى في يده من ذخيرة ..
 وحمل الموت إلى العدو من كل اتجاه ..
 لم يكن العدو يعرف في الظلمة .. أين هو بالنسبة لخصمه .. كان يجده ينبت
 بالموت في يده .. من كل اتجاه .. وفي كل لحظة ..
 وأحس العدو بمذبحة الظلمة المروعة .
 لم يقبض خصمه في مخالبه .. مدافعاً .. ولكنه خرج في الظلمة يشيع الموت في
 أنحاء الجزيرة المظلمة ..
 وخلال ذلك .. وقبل العاشرة .. بدأت بشائر قوات الدعم تصل إلى الجزيرة
 .. وصل أحد اللشعات قرب الشاطئ .. ونزلت منه مجموعة تتجه إلى مواقعنا في
 أحد القوارب .. واكتشف العدو وجودها .. فأسرت بوضع الخوذ .. على
 الصخور .. وبدأ العدو .. يصوب إلى الخوذ نيرانه .. ودارت القوة حتى وصلت
 إلى موقع القيادة .. وأبلغت ببداية وصول الإمدادات ..
 وبدأت مقدمة القوات في النزول .. وبدأ العدو في ضرب اللش بإحدى

— ٢٦٩ —

طائراته .. وتعرض للغرق .. ولكن القوة الصغيرة استطاعت أن تنقذ جهاز
اللاسلكى .. وتسبح به حتى تصل الشاطئ وتحملة إلى مقر القيادة ..
وعاد الاتصال بين قيادة قوة الجزيرة والقيادة العليا .. وأبلغتها أن العدو قد نزل
بما يقرب من كتيبة مظلات حوالى خمسمائة جندي .. وأكدت القيادة العليا ..
أن الطائرات قد تلقت التعليمات بتقديم العون وضرب قوات العدو وبدأت
الإمدادات تشارك فى الهجوم الليلي على العدو ..
وأحس العدو بخطورة الموقف فأطلق المشاعل المضئية .. وتحول الليل إلى نهار
.. وبدأت المجموعات الصغيرة تنسحب .

وقال شريف وهو ينظر إلى ساعته فى قلق :
— الساعة جاوزت الحادية عشرة .. ولا أثر لطائراتنا ..
ورد محمود فى هدوء :

— اصبر ..

ثم هز رأسه فى شئ من الأسف :
— حاولت أن أجعل رجالنا يحيطون بالعدو حتى لا ينتشر فى الجزيرة ويظل
متجمعا فى بقعة واحدة .. لكى تستطيع طائراتنا تصيده بسهولة .. ولكن يبدو
أنه تسرب فى كل أنحاء الجزيرة .. فأنا أسمع ضربه من كل مكان ..
وفجأة سمع أزيز ..

وأرهف شريف ومحمود آذانهما ..

وهمس شريف فى قلق :

— طائراتنا !! ..

وقال محمود مؤكدا :

— أجل ..

وبدأت الطائرات تحصد العدو المنتشر فى أنحاء الجزيرة .. وسرت موجة فرح

.. بين قواتنا ..

ذهب عنهم الإحساس باليأس .. الذى أصابهم عندما بدأ الهجوم على الجزيرة .. ووجدوا العدو يقذف إليهم بمئات الجنود .. ويدك مواقعهم بطائراته دكا .. وبدأ الهدوء يسود .

وعمت الظلمة الجزيرة .. وبدأت الأجساد تحس بتعب اليوم يحل عليها .. واسترخى محمود فى موقعه فى الخندق .. وأحس أنه على استعداد لأن يدفع عشر سنين من عمره .. الذاهب هباء .. من أجل رقدة مربحة .. من أجل إغفاءة ..

قال شريف متسائلا :
— أتراهم سيهدأون ؟؟ ..

ورد محمود :

— ليفعلوا ما يشاءون .. نحن فى انتظارهم .. وكما قلت لك ليس أمام أى منا سوى أحد أمرين .. قاتل .. أو مقتول .. وأعتقد أننا قتلنا منهم عددا لا بأس به .. ورد شريف :

— لا أكتمك القول أى كنت أشعر باليأس .. كنت أشعر أننا سنضيع فى شربة ماء .. وأنا سنباد عن آخرنا .. ولكن عندما خرجنا إليهم .. وسمعت صرخاتهم الفزعة المرتاعة ورصاصنا يستقر فى رؤوسهم وسناكيننا تستقر فى صدورهم عادت السكينة إلى نفسى وملا الأمل جوانحى .. ولم تطل السكينة كثيرا ..

حتى سمع فى الجو أزيز هيلكوبتر .. وكان ضوء الفجر قد لاح ..

واستطاع محمود أن يرى طائرات الهليكوبتر تحوم فى محاولة للهبوط .. وتساءل شريف :

— أينزلون مزيدا من الجنود ؟؟ ..

وقال محمود وهو يحقق النظر في الطائرات :
 — بل يحملون قتلاهم وجرحاهم .. انظر إلى الصناديق الكبيرة المعلقة في
 الطائرات ..

وبدأ العدو في حمل جرحاه وقتلاه ..
 وقبيل السادسة بدأت الهليوكوبتر تتقدم في أفواج هابطة على المواقع المصرية
 .. تحصدها بمدافعها الرشاشة .. تحاول أن تقضى على كل ما بها من مقاومة حتى
 لا يعود من بها مرة أخرى إلى عمليات اشتباك مروعة كالتى قام بها الشياطين في
 ظلمة الليل ..

وردت القوات المصرية على الطائرات بوابل من النيران .. مصممة على
 مواصلة القتال لآخر طلقة في المدافع وآخر نفس في الصدور ..
 لقد أصبر الرجال على التشبث بالأرض الصخرية .. التى ملأهم الإحساس
 وقتذاك .. أنها باتت أئمن من كل شيء ..
 أئمن من حياتهم ..

وخلال ذلك كانت الإمدادات البحرية تتحرك في اللنشات .
 عرف القائد البحرى المقدم حسنى وهو في موقعه في خليج السويس .. ما
 يحدث في الجزيرة الصغيرة التى انقض عليها العدو يحاول أن يفترسها بطائراته
 ومدافعه وجنوده .. وصل الدوى إلى مسامعه .. وعرف من جهاز اللاسلكى أن
 أبطال الجزيرة يقاومون .. وأنهم يصرون على الفناء فى أرض الجزيرة .. ليجعلوا
 من صخورها مقبرة لهم ولأعدائهم ..

وأصدر أوامره للنشات بالتحرك .. قفز فى أحدها ..
 أحس الرجل أنه قلق فى موقعه .. وأنه سيكون أكثر ارتياحاً لو انطلق مع القوة
 ليشارك جنود الجزيرة مصيرهم ويشد أزهرهم ..

انطلقت اللنشات تشق الماء نحو الجزيرة ..
 وأحسست بها طائرات العدو .. وصممت على أن تمنع الدعم من الوصول إلى

الجزيرة .. حتى لا تزيد من متاعب قواتها ..
وهبطت الطائرات نحو القوارب المندفعة في الماء .. وبدأ اللنش القائد يسير في
خط متعرج محاولا تفادى مدافع الطائرة .
وارتفعت الطائرة ثم عادت تهبط من جديد ..
وأطلق حسنى ستارا من الدخان يحجب اندفاع سرب اللنشات عن مدافع
الطائرات المغيرة ..
وواصلت اللنشات السير تحت نيران الطائرات .. تحاول تجنب القصف
الجوى بالسير المتعرج تارة وستار الدخان تارة .
واستمرت معركة المطاردة .. بدأت مدفعية اللنشات المضادة للطائرات
تشتبك مع طائرات العدو المنقضة .. ودخلت إحدى طائرات الميراج مرمى
مدفعية لنش القيادة .. وبسرعة صوب مدفعجى اللنش مدفعه نحو الطائرة المنقضة
على اللنش .. وبطلقة واحد .. أصاب الطائرة .. وإذا بها تسقط مشتعلة في الماء
أمام الرجال .. وصرخ المدفعجى فرحا .. ولم يشعر بصرخة انطلقت من اللنش
.. كانت صرخة قائده بعد أن أصابته إحدى الشظايا .. واستمرت المعركة ..
عادت الطائرات تضرب اللنش حتى أشرف على الغرق ونفدت ذخيرة مدافعه ..
وقفز حسنى إلى الماء .. مع ما بقى من الرجال .. وبدأ السباحة نحو الجزيرة
والطائرات تحوم من حولهم .. تضرب اللنش الغارق .. تتحول إليهم لتحصدهم
وهم في مشوارهم اليأس نحو الجزيرة .. وتمتم حسنى قائلا وهو يضرب الماء
بيديه :

— أنذال .. المفروض أن يقدموا العون لغرقى القطع البحرية ..
وهتف أحد الرجال بجواره وهو يجاهد سباحا في اليم :
— القانون الدولى والأخلاق تمنع مهاجمة الغرقى .. ولكنهم جنباء أنذال .
وواصل حسنى السباحة وهو يحس بالإعياء والدماء تنزف من جرحه ..
حتى استطاع أخيرا بلوغ الشاطئ ..

ووضع قدميه على أرض الجزيرة .. مثلث الخطأ .. لاهث الأنفاس .. وأبصره ..
.. خلف الصياد يقف على الشاطئ في أسي وشرود وهو يقرب جنود البحرية
المصابين الذين قذف بهم الموج إلى الشاطئ ..

واندفع إليه ليعاونه على السير ..
وقبل أن يمد إليه يده خر على صخر الجزيرة .. وانحنى عليه خلف محاولا حمله ..
فوجده قد أسلم الروح ..

صمم على مشاركة أبطال الجزيرة مصيرهم .. فمات على أرضها وضمه
الصياد إلى صدره .. تمنى لو يمنحه روحه وهمس به والدموع تنهر من عينيه في
صمت ..

— يا ولدى .. يا حبيبي .. مصر لن تضيع .. لن تضيع وأنتم حمايتها .
واستمرت المعارك في الجزيرة من خور إلى خور .. ومن خندق إلى خندق ..
وشارك الصيادون في المعركة. اقتحموا مياه الجزيرة ينقلون الذخيرة إلى
القوات المقاتلة ويحملون الجرحى بعيدا عن مناطق الضرب .. وبقي بعضهم بجوار
جنود البحرية مستعملين قوارب الصيد في التنقل بينهم ..
واندفع محمود وشریف يقودان مجموعات المقاومة ..
وانطلق الرجال من خنادقهم يواجهون العدو بمدافعهم الرشاشة .. يحصدونه
.. ثم يموتون ..

يقتلون .. ويقتلون .. حتى تصيب أحدهم رصاصة تصرعه ..
ليكن الواحد منهم .. عشرة .. أو عشرين ..
وأحس محمود بالرجال من حوله يتساقطون .. بعد أن يحصدوا العدو
بالعشرات ..

ولجأ إلى الكوخ الحجري بجوار الفنار .. مسيكا بأحد المدافع في يده .
وواصل العدو تقدمه .. وأرسل أحد الجنود المصريين الذين فرغت ذخيرتهم
فسقطوا أسرى ليفتش الكوخ ويطلب ممن فيه — إذا كان فيه أحد — التسليم ..

(العمر لحظة)

— ٢٧٤ —

وذهب العسكرى إلى محمود ..

وقال له محمود هامسا فى حزم :

— قل لهم إن المبنى خال ..

وعاد العسكرى لينبئهم بخلو المبنى .. وتقدمت القوة .. وخرج إليهم محمود

ليحصدهم بالرشاش حتى آخر طلقة .. واستطاع أحدهم إصابته برصاصة فى

جانبه .. فأحس أن قواه تخور .. والدنيا تغيم من حوله وسقط وهو يتمتم :

— هل صددنا الهجوم .. هل أنقذنا الأرض .. ليتنى أعرف قبل أن أموت ..

ليس الموت مخيفا .. ولكنها مرارة الهزيمة ..

(١٥)

عملية بتر

استطاعت قوة الجزيرة .. أن ترد العدو عنها .. بعد يوم من القتال المرير وأمام
 إصرار عجيب على الصمود لم يجد العدو إزاءه مفرا من الانسحاب ..
 بدأت قواته تضع الألغام والأشراك الخداعة والقنابل الزمنية ..
 وأخذ يغادر الجزيرة حاملا قتلاه وجرحاه ..
 وعادت قواتنا تلم الجرحى والقتلى ..
 وأقبل شريف على محمود يفحصه مرتاعا ..
 كانت الدماء تسيل من جرح في جانبه .. ولكن عروقه كانت تنبض بالحياة ..
 بل لقد أحس بيد شريف تمسك بيده ففتح عينيه وسأل في إعياء ..
 ورد شريف :
 — جلا العدو عن الجزيرة ..
 — كيف؟؟
 — لم جرحاه وقتلاه .. ورحل ..
 وندت عن محمود تهيدة ارتياح وأغمض عينيه في إعياء وتمتم قائلا :
 — الحمد لله ..
 وحمل محمود إلى الفناء .. حيث بدأت عمليات الإسعاف الأولية توطئة لنقل
 المصابين إلى المستشفى ..
 وأخذت القوات في تفتيش الجزيرة ..
 لم تجد من العدو سوى الدماء الغزيرة فوق الصخور .. وبقايا أدوية

وضمادات إسفاف .. وبدأت عملية التنسيق بين قوات الجزيرة — ما تبقى منها — وبين قوات الإمدادات استعدادا لأي هجوم جديد ..

ونقل محمود ضمن أفواج المصابين إلى مستشفى المعادي
كانت نعمت قد قرأت آخر أنباء المعركة تتوسط صدور الصحف :
« بعد قتال مرير دام ٣٦ ساعة اضطر العدو إلى الانسحاب من شدوان .. »
« صحفي أمريكي يعرض صورة للأعمال البطولية الرائعة للجنود المصريين في الجزيرة الصخرية في البحر الأحمر . »

« القتال الذي بدأ على الجزيرة صباح الخميس لم يتوقف إلا مساء أمس .. بعد أن عجز العدو عن البقاء في الجزء الذي نزل فيه .. اضطر إلى الانسحاب . »
« طائراتنا تقصف المواقع التي تمكن العدو من النزول عليها . »
« القاذفات المصرية تهاجم مواقع العدو في أعماق سينا . »
« الطائرات اقتربت من مواقعه على ارتفاع منخفض ودمرت تجمعاته . »
« عند منتصف الليل ضربت طائراتنا مواقع العدو في العريش . »
ومنذ أن بدأت الأنباء تذاع عن المعركة .. وهى تجلس مشدودة .. والراديو الصغير في يدها .. تدوير المؤشرين المحطات تحاول التقاط أنباء المعركة ..
وقرأت البيان العسكري أكثر من مرة ..

« قام العدو في الساعة التاسعة من صباح الخميس بهجوم جوى عنيف على جزيرة شدوان التي يبلغ طولها ١٦ كيلومترا ويتراوح عرضها بين ثلاثة وخمسة كيلومترات .. ويوجد بها فئار مدنى لإرشاد السفن ليلا مناصرا من اصطدامها بالشعب المرجانية .. »

وقد قامت قواتنا بوضع عدد محدود من أفراد قواتنا البحرية والبرية لحراسة الفئار .. وقد اشتركت أعداد كبيرة من طائرات العدو في مهاجمة موقع الفئار الذي يقع في جنوب الجزيرة وكذلك مساكن الموظفين الذين يقومون بإدارة الفئار .. واستمر العدو . »

وتواصل نعمت قراءة البيان حتى تصل إلى آخره ..
 « وقد كان للبطولة التي أبدأها جنودنا في القتال المتلاحم بالسلاح الأبيض
 الأثر الأكبر فيما تكبده العدو من خسائر فادحة اضطرت له للتخلي عن فكرة البقاء
 في الجزيرة التي راودته وأعلنها عند بدء هجومه ؟ ..
 وكانت خسائرننا طوال القتال يوم الخميس وخلال الليل وطوال يوم الجمعة
 حوالى ٨٠ فردا بين شهيد وجريح ومفقود بما فيهم المدنيين الذين كانوا يديرون
 الفنار ..

وإن القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية تعتبر معركة جزيرة شدوان التي
 دامت ٣٦ ساعة متصلة في قتال متلاحم رمزا للصلافة والجرأة والفداء الذى
 وصل في الجزيرة إلى أقصى حد ..

وتذكرت نعمت قول محمود ببساطة « قد يموت عسكري .. أو يجرح آخر
 .. وقد تغنى الداورية بأكملها » .. ونحس بأن قواها تخور .. وتعاود قراءة
 السطور لعلها تجد شيئا عنه .

أين هو .. من كل هذا ؟ ..
 ٣٦ ساعة في قتال متلاحم رمزا للصلافة والجرأة والفداء .
 إنه بغير شك موجود في كل هذا ..
 ولكن إلى أين انتهى ؟ ..

أين هو من الثمانين شهيدا وجريحا ومفقودا ؟ .. وفجأة وصل إلى مسامعها
 صوت سرينة عربات الإسعاف ..

وقفزت من مكانها .. واندفعت إلى الاستقبال .. في هلع .
 وفي اضطرابها الشديد لم تعرف ماذا تفعل ..

هل هناك كشوف للجرحى .. إنهم كثيرون يدفع بهم على النقال الواحد
 بعد الآخر .. ومنظرهم أليم موجه .. البعض تبدو وجوههم كقطعة فحم والدماء
 تنشع من الأربطة .. والآهات .. والأنات ..

أيمكن أن يكون بينهم ؟؟ .

كان يسخر منها دائما .. ويقول إن عمر الشقى بقى .. وإنه تعود دائما أن يعود

سليما ..

ولم تلمحه بين الوجوه المتدافعة على النقالات ..

واندفعت إلى الداخل ..

ولقيت الدكتور رشاد منهمكا في فحص الجرحى ..

وقبل أن تصل إليه هتف بها :

— المقدم محمود عبد الله في الداخل .. عند الدكتور عبد المجيد ..

وأحست بشيء يدمى في باطنها .. وأصابها دوار .. وحاولت جهدها أن

تتماسك حتى لا تسقط ..

ووقفت لحظة حتى تتمالك قواها ، ثم اندفعت إليه متسائلة :

— ماذا به ؟؟ .

— إصابة في جانبه ..

وسألت وهى تزدرد ريقها في جزع :

— هل ؟؟؟!

وهز رشاد رأسه وقال مقاطعا :

— لست أظنها خطيرة ..

وكانت تريد أن تعرف المزيد .. وأن تفعل شيئا ..

ولكنها لم تكن تملك سوى الصمت والانتظار .. والحركة العصبية ..

تروح .. وتغدو .. تجلس ثم تقف ..

تحاول أن تفعل شيئا له معنى .. ولكنها تحس أنها مشلولة التفكير عاجزة عن

التصرف ..

ولا تملك إذا ما طلب منها شيء إلا أن تقول في شroud :

— حاضر .. بعدين ..

— ٢٧٩ —

وبين آونة وأخرى تدفع باب الغرفة .. وتنظر في جزع .. ثم تسأل أحد
المساعدين أو إحدى الممرضات :

— إزاي الحال ؟؟ ..

ويأتيها الرد مختصرا .. غير مفيد :

— ماشي ..

وأخيرا أنهت العملية .. وبدأ محمود تحت الأغشية شاحب الوجه مرهقه
مغمض العينين يشيع الألم في ملامحه ..

وعضت على شفتيها تكتم النواح في باطنها .. وسارت في صمت تتبعه حتى
غرفة الإنعاش ..

ومضى الوقت بطيئا ..

حاولت أن تتشاغل بعمل شيء ..

لم تعرف ماذا فعلت .. فعلت أشياء بلا وعي .. ثم عادت ترقب الجريح الراقدا
في غرفة الإنعاش .. ترقب صدره يعلو ويهبط .. من وراء القفص الشفاف ..

وسمعت صوتا في الخارج يسأل في جزع :

— المقدم محمود عبد الله من فضلك ؟

ورد عليها أحد الأطباء :

— الزيارة ممنوعة بافندم ..

— أنا زوجته ..

— تفضلى ..

وبعد لحظة بدت سامية .. بتقاطيعها الجادة الصارمة .. ووقفت ترقب الجسد

المسجى .. والدموع متحجرة في عينيها .

وسألت في خوف :

— كيف حاله ؟ ..

ولم يكن سواها بجواره .. ولم تعرف ماذا تقول ! .

— ٢٨٠ —

صمتت لحظة ثم أجابت :

— ربنا يرعاه ..

والتفتت إليها سامية .. ولم يبد عليها أنها قد استطاعت أن تميزها .. إما بسبب الضوء الخافت .. أو لأنها نسيبتها ..

وسألت سامية :

— من الدكتور الذى أجرى العملية ؟

— الدكتور محمود عبد المجيد ..

— أين هو ؟؟ .

— فى غرفة العمليات ..

واقترب أحد المساعدين يحاول طمأنتها :

— الإصابة غير خطيرة .. والعملية ناجحة بإذن الله ..

ثم أشار نحو الباب قائلاً :

— تفضلى يا فندم فى غرفة الاستراحة .

واتجهت سامية خارج الغرفة وهى ترمق نعمت بنظرة جانبية محاولة أن تعرف

من تكون ؟ .. وخرجت نعمت وراءها .

وكان المر أكثر ضوعاً .. واقتربت نعمت من سامية بحية :

— صباح الخير يا فندم ..

وميزتها سامية .. ردت عليها التحية بغير مودة :

— صباح الخير ..

ثم أردفت متسائلة :

— حضرتك حضرت العملية ؟؟ ..

وهزت نعمت رأسها بالنفى ..

وعادت سامية تسأل :

— ألم يقل الدكتور شيئاً ؟ ..

— قال إن الاصابة غير خطيرة ..

وتمتت سامية في قلق :

— ربنا يستر ..

وأشارت نعمت إلى غرفة الاستراحة قائلة :

— تفضلى يا فندم استريحى ..

وردت سامية وهى تبحث حولها في قلق :

— ألا يوجد تليفون .. أريد أن أطمئن داليا .. كانت تريد الحضور معى ..

ولكنى خشيت عليها من الصدمة ..

وأشارت نعمت إلى حجرة مجاورة :

— اتفضلى .. يوجد تليفون في هذا المكتب .

واختفت سامية في الحجرة .. وعادت نعمت مرة أخرى إلى حجرة

الإنعاش ..

دفعت الباب وأطلت على الوجه الشاحب .. ما زالت أنفاسه تتردد .. ولكن

وجهه باهت .. كالقماش الأبيض ..

لو تستطيع أن تفعل شيئا .. تمنحه بعض دمها لترد لوجهه لون الحياة .. بدل

هذا الشحوب المروع ..

وتركت الغرفة ..

بعد أن نبهها رشاد إلى غرابة وقفقتها الداهلة المرتاعة قال في لهجة شبه زاجرة :

— وبعدين يا نعمت ؟ ..

وخرجت نعمت .. اندفعت من هذا الممر إلى ذلك المكتب .. تفعل أشياء لا

مبرر لفعلها .. وتقول أشياء لا معنى لها ..

ومرة أخرى تعود مندفعة إلى الغرفة في عصبية ..

وفي هذه المرة وجدت الدكتور عبد المجيد يغادر الغرفة .. فسألته في لهفة :

— كيف الحال يا دكتور ؟؟ ..

— الحمد لله ..

ثم تلقت حوله متسائلا :

— يقولون إن مدام عبد الله حضرت ؟

وردت نعمت :

— أجل .. كانت هنا الآن ..

واتجهت نعمت مع الدكتور عبد المجيد إلى غرفة الاستراحة .

وأقبلت سامية على الدكتور متسائلة في لهفة وجزع :

— كيف الحال يا دكتور ؟؟ ..

— الحمد لله .. جت سليمة ..

— أليس هناك خطر ؟؟ ..

وعاد الرجل الطبيب يكرر قوله :

— سليمة بإذن الله ..

— لماذا إذن تبقونه في غرفة الإنعاش ؟

وضحك الطبيب :

— إذا كان هذا يقلقك .. فسنخرجه الآن !! ..

وهتفت نعمت بغير وعى ..

— لا .. لا .. يا دكتور .. لا داعى لذلك ..

ونظرت سامية إلى نعمت .. نظرة غير صديقة .. ثم قالت للطبيب :

— إذا لم يكن هناك داع لإبقائه .. لماذا لا يخرج .. لقد أفرغنى أن أجده في

غرفة الإنعاش .. ولا أريد أن أصدم داليا برؤية هذا المنظر ..

وقال الدكتور عبد المجيد في هدوء :

— نحن نضعهم هناك فترة بعد العملية .. من باب الطمأنينة .. ولكن حالته

حسنة وسأمر بنقله إلى غرفته ..

وتمنت نعمت ألا يتعجلوا في إخراجه محمود .. كان وجهه الشاحب يقلقها

ولكنها أحست أنها لا تملك من الأمر شيئاً .. وأقلقته نظرة سامية غير الصديقة ولم تستطع إلا أن تتشاغل بالأشياء غير المفيدة التى تتظاهر بعملها ..

ونقل محمود إلى غرفته ..

كان قد بدأ يفيق من إغفاءة البنج ..

كانت نظراته ضائعة .. يحملق فى لا شيء ..

وسارت نعمت بجواره فى صمت ..

فرضت نفسها على خدمته فرضاً .. لم تعباً بنظرات سامية التى لا تحمل الكثير

من المودة ..

إنه مريض .. وهى فى خدمة المرضى ..

وإذا سألتها زوجته سؤلها السخيف الذى سألته فى المرة الأولى .. ولماذا هى

فى خدمة هذا المريض بالذات .. ستقول لها إن هذا هو واجبها إنه بطل .. ويجب

أن يكون الجميع فى خدمته ..

واستطاعت عينا محمود الخائيتان أن تميزاها .. تركزت إحدى نظراته عليها ..

ثم ضاعت وراءها .. ورفع عينيه إلى زوجته .. استقر عليها برهة .. ثم أغمضها

فى إعياء ..

وقال الدكتور المساعد :

— أرجوكم .. دعوه يستريح ..

وبعد برهة .. أقبلت داليا مع عمها المهندس إبراهيم عبد الله ..

ولم تعرف نعمت كيف ستلقاها داليا .. وتحفظت فى لقاءها ..

وقفت ومدت يدها ..

ولكن الفتاة ارتمت عليها تعانقها باكية وهى تردد :

— بابا ..

وضمتها نعمت فى حنان إلى صدرها ..

وضعت فى ضمتها كل ما اختزنه من حنان ولهفة .. وأجابت وهى ترد

الدموع فى عينيها ..

— بابا .. كويس يا داليا ..

ولم ترتج سامية لما فعلته ابنتها ..

لم تجد هناك معنى لهذه المودة بينها وبين نعمت ..

وقالت سامية تحاول أن تمسك زمام الأمر بيدها :

— العملية نجحت والحمد لله .. والإصابة كما قال الدكتور عبد المجيد الذى

أجرى العملية .. ليست خطيرة .. وقد خرج من غرفة الإنعاش لأن حالته

حسنة ..

قالت سامية كل شيء .. ولم تترك فرصة لنعمت أن تقول لداليا شيئاً .. ثم

مدت يدها فجذبت داليا من ذراعها قائلة :

— تعالى .. وألقى عليه نظرة .. ولكن لاتحدثى صوتاً حتى لا تقلقيه ..

ودخلت الابنة وأمه إلى الغرفة المظلمة ووقفت داليا تنظر إلى الوجه الشاحب

المغمض العينين فى لهفة وجزع ..

وفتح محمود جفنيه فى تشاقل وإعياء ..

ونظر إلى داليا نظرة خابية .. دون أن يعرفها ..

وقالت داليا :

— بابا .. أنا داليا ؟ ..

وحملت النظرة معنى . وعلت الشفتين شبح ابتسامة .. عرف الأب ابنته ..

وبسط كفه فمدت كفها تطبق على كفه ..

وبعد لحظة أغمض عينيه ..

وجرت الأم ابنتها للخارج قائلة :

— كفى .. لا داعى لأن ترهقيه ..

وفى الخارج وقفت نعمت تتحدث مع إبراهيم .. كانت به ملامح أخيه ..

جسمه أقصر وأضال .. ولكن بينهما الكثير من الملامح المشتركة التى تؤكد أنهما

أخوان ..

وأحسنت نعمت أنها غريبة .. وأن عليها أن تنصرف ..
ولكن داليا تعلقت بها وسألتها في مودة :
— أما زلت تعملين هنا ؟ ..

— أجل ..

— علمت أنك ذهبت إلى الجبهة ؟ .

وسألت نعمت في دهشة قائلة :

— كيف علمت !!؟؟

وأحسنت نعمت أنها سألت سؤالاً غيباً . فقد يكون محمود هو الذى أنبأها .
ولكن داليا ردت في ذكاء :

— سألت عليك هنا ذات مرة فقالوا لى إنك فى الجبهة ..

— أجل أمضيت هناك أكثر من أسبوعين ..

و لم يبد أن المناقشة قد تركت أثراً طيباً فى نفس سامية .. ولكن داليا لم تعبأ بها
وهتفت فى إعجاب :

— يا بختك .. لقد كنت أعجب بك دائماً كصحفية .. ولكنى الآن أشد

إعجاباً بك فى عملك العسكرى .. ليتنى أستطيع أن أكون مثلك !!؟ .

وقطعت سامية الحديث :

— التفتى إلى دروسك أولاً .. ثم كونى ما تشائين ..

وأحسنت نعمت أن عليها أن تنصرف .. حتى لا تزيد من ضيق سامية فقالت

فى أدب :

— عن إذنكم ..

وردت داليا :

— إلى أين ؟ ..

— لدى بعض الواجبات التى لا بد أن أؤديها ..

— ٢٨٦ —

— ولكن أَلن نراك هنا ؟ ..

— طبعا ..

— سنراك كثيرا ؟؟

وردت نعمت ببساطة :

— إني أعمل هنا ..

— ونحن سنكون هنا بجوار أبي ..

وتتمت سامية :

— عسى ألا تطول المدة ..

وقال إبراهيم :

— لا داعي لتعجل خروجه ..

وردت نعمت :

— ربنا يرعاه .. ويخرجه سالما ..

وذهبت نعمت تتشاغل بأمورها .. وعندما عادت .. كان الجريح وحده ..

وفي أول لقاء .. وقفت نعمت بجواره .. تمسك كفه في رفق وحنان ..

ضغط كفها بكل ما يملك من قواه الخائرة ..

ورفع جفنيه المتشاقلين .. وحاول أن يبيل شفثيه بريقه الجاف .. وارتسمت على

وجهه شبح ابتسامة ..

وهمست نعمت :

— إزيك !!؟

ورد محمود في صوت خافت :

— عدت إليك ..

— بالسلامة ..

وهز رأسه رافضا إجابتها ثم تتم بصوته الخائر :

— لم تكن تنفعنى السلامة في لقائك .. الجرح هو الذى نفعنى ..

وأحست نعمت بالدموع تكاد تطفرف في عينيها وتمتمت قائلة :
— بعد الشر ..

وضغط على يدها في حب وتمتم قائلاً :
— تنطقينها كأُمي .. كلكن مصريات .. أحبك .. كما أحبتها ..
وربتت كفه قائلة :

— لا تجهد نفسك ..
وهز محمود رأسه رافضاً نصيححتها واسترسل يقول في صوته الخافت المتقطع :
— عدت بجرحي .. أسلم سبيل إليك .. سددت على كل السبل .. فلم يبق
أمامي سواه ..

وصمت لحظة ثم أردف :
— مريض .. في مستشفى .. لا خوف منه ولا حرج .. يرجو أن يبقى معك
إلى الأبد ..

وردت نعمت وهي تضغط على كفه :
— لا تقل هذا .. ستشفى وتخرج ..
وأحرم من لقاتك ؟ ..
— بل سنلتقي دائماً ..
— دقائق .. في الممر كأننا نسرق ؟؟ ..
— لا تجهد نفسك الآن .. عندما تستريح .. ستحدث كثيراً ..
— أجل .. كثيراً .. كثيراً .. أأست باقية معي ؟؟ ..
— أجل ..

وبدا عليه الإعياء وأغمض وربت نعمت كفه وهمست :
استرح الآن ..

وتركت الغرفة .. والدموع معلقة في مقلتيها ..
وبقيت نعمت معه ..

عاد إليها بجرحه .. أسلم السبل — كما قال — إليها ..
سدت كل السبل أمامه .. فعاد جريحا .
وكان أشقها على نفسها ..
لم يكن السبل سهلا ..
ولم تكن الإصابة كما قال الطبيب غير خطيرة ..
كان قد نزف كثيرا .. وتلوث الجرح .. وحدثت له كل المضاعفات ..
وبقيت معه .. لم يغمض لها جفن خلال الليالي العصبية التي مر بها ..
وأقبلت ابنته تلوذ بها في ساعات الجزع ..
وسلمت سامية بعونها .. ففي ساعات الخطر لا يسأل الإنسان كيف يأتيه
العون .. ولا من يعينه على الخطر .. حتى يصل إلى بر الأمان ..
ورغم ما أصاب نعمت من جزع .. ورغم كل ما كانت تضمه من مشاعر
اللهفة والخوف والقلق .. فقد حاولت دائما أن تتصرف بحكمة .. وأن تتعامل
مع الموقف الدقيق .. بعقلها .. ممسكة بزمام قلبها حتى لا يفلت منه الزمام ...
لقد عاد إليها بجرحه .. أسلم السبل .. وعليها رغم كل ما بها — أن تحافظ على
سلامته .. سلامة السبل ..
وأن تجعله — كما قال — مريضا في مستشفى ..
ورغم كل ذلك .. لم تكدر راية الخطر تنزل .. ولم يكدر فجر السلامة يتسلل
من ليل الخوف المروع المجهول .. حتى بدأ جو التوتر يسود .. وأخذت سحب
الجفوة تخيم ..
في ساعات الهول .. والجزع يمسك بالخناق .. لم يكن أحد يسأل من يفعل
ماذا .. ولا كان أحد وسط عاصفة الخطر .. يسأل .. من أين جاء طوق النجاة .
فلما زال الخطر وهدأت العاصفة ..
بدأ السؤال لماذا !!!
وسلمت به الابنة يأجاسيس الحب .. والود .. والخير وعرفان الجميل ..

وضاقت به الزوجة .. كشبح يهدد وجودها ..
 نزلت راية خطر .. ورفعت راية خطر أخرى .. راح الخوف على حياته ..
 وأقبل الخوف على الرباط الذى يشده إليها ..
 وإذا كانت قد كسبت حياته .. فهي لا تريد أن تفقد حياتها معه ..
 بعد هدوء العاصفة ..
 بدأ السؤال لماذا .. ولماذا ؟ .
 لم ترتح سامية إلى نعمت في أول مرة .. عندما دخل محمود المستشفى بحصوة
 في الكلى ..
 ولم ترتح إلى وجودها في أول لقاء هذه المرة ..
 ولكن خلال عاصفة الخطر .. جب القلق الأكبر .. القلق الأقل .. فلم تكذ
 تهدأ .. حتى أخذ القلق الأقل يكبر .. حتى صار مخيفاً ..
 لماذا تبقى بجواره ؟ ..
 ولماذا يفعل هذا .. ولماذا تفعل ذاك ؟
 لماذا يبتسم .. ولماذا يهش لها ؟ ..
 من تكون هي .. حتى تأخذ لنفسها هذا الحق أو ذاك .. ولم تعد الجفوة بخافية
 .. وبدأ التوتر يسود الجو ..
 وأخذت نعمت .. تتجنب الصدام .. وتناهى بنفسها عنه .
 وضاق محمود في فراشه .. بكل هذا .
 ضاق بالتوتر من جانب زوجته .. وبمحاولة البعد من جانب نعمت ..
 حتى أسلم السبل .. بات مستعصياً !!
 وفي ذات يوم .. قبيل الظهر .. انفجر الموقف .. بين الزوجين ..
 بدأته سامية بما نسميه « البرطمة » و « التلقيح » .
 ولم يكن في الغرفة سواهما .. كانت داليا خارج الغرفة ولم تكن نعمت
 موجودة ..
 (العمر لحظة)

— ٢٩٠ —

وحاول محمود تجاهلها .. وتشاغل بتقليب مجلة في يده .
 ولكن سامية بدأت تتساءل في عصبية وضيق :
 — هذا غير معقول .. تحشر نفسها في كل شيء .. من تظن نفسها !؟ ..
 وصمت محمود ..
 وأردفت سامية .. وكأنها تصر على تفجير الموقف :
 — مياعة .. وقلة أدب ..
 ولم يجب محمود ..
 واستطردت سامية ولهجتها تزداد عنفا :
 — أنا سأعرف كيف أوقفها عند حدها .. سأقطع رجلها من هنا ..
 وزفر محمود زفرة قصيرة حادة وألقى المجلة من يده .. وتساءل في غضب
 مكبوت :
 — من هي ؟؟ ..
 — الزفة .. اللي اسمها نعمت ..
 وأطلق محمود تنهيدة أطول .. ثم قال في لهجة منذرة حاول ألا يفجر فيها غضبه
 المكبوت :
 — اسمعى يا سامية أرجوك لا داعى للفضائح ..
 — أنا الذى أعمل الفضائح .. أم أنتما ؟ ..
 وعاد محمود يقول منذرا بعصبية الغضب المكبوت :
 — قلت لك اعقلى ..
 وردت سامية صارخة :
 — بل لن أدعها تقرب الغرفة ..
 ورد محمود فى إصرار :
 — بل ستأتى فى كل وقت ..
 — إذا كنت تصر على مجيئها فلن آتى أنا !! ..

— ٢٩١ —

— كما تشائين ..
— تفضلها على ؟؟ ..
ورد محمود في هدوء :
— أجل ..
وصرخت سامية :
— معقول هذا ؟؟ ..
— أجل ..
وأقبلت داليا على صوت الصباح تتساءل في جزع :
— ماذا حدث !!؟؟ ..
وقالت سامية :
— أنا لم أعد أحتمل ..
ورد محمود :
— ولا أنا ..
— إذن لن أبقى معك لحظة ..
وقذف محمود بكل ما في صدره من غضب :
— في ستين داهية ..
— انتهينا .. اعتبر كل ما بيننا انتهى !
وحاولت داليا التدخل قائلة في جزع والدموع تكاد تطفر من عينيها :
— مش معقول ؟؟ ..
وأقبلت لإحدى الممرضات ..
واندفعت سامية إلى الخارج في انفعال .. ووراءها داليا .
وقبيل الغروب .. أقبلت نعمت ..
كان محمود قد بدأ مغادرة الفراش .. وساعدته الممرضة على ارتداء الروب ..
وجلس في الشرفة يتناول الشاي ..

وبدت صفحة النيل ملساء .. تنعكس عليها أشعة الشمس الغاربة وفي الأفق
 بدت بعض الأهرامات المدرجة .. والمداخن والنخيل ..
 وأحس محمود بالهدوء يعاوده .. عقب انفعال الظهيرة .
 لقد خلا إلى نفسه طوال بعد الظهر .. لم يزره أحد .. ليقطع عليه خلوته ..
 لم ترجع زوجته .. ولم تأت نعمت ..
 لم تعد الحياة محتملة مع سامية ..
 لم يكونا يلتقيان إلا للحساب والعتاب .. ثم يفترقان على خصام ..
 وهو لم يكن أبدا البادئ بطلب الانفصال .. إنها هي التي تهدد به دائما .. وفي .
 كل مرة يتركها .. حتى تهدأ ..
 ولكن في هذه المرة .. سيكون حاسما ..
 لقد باتت الحياة معها غير محتملة ..
 ووضع فنجان الشاي على المنضدة ..
 ونظر إلى الساعة .. وتساءل في قلق :
 لماذا لم تأت نعمت ؟ ..
 منذ أن انصرفت في الصباح بعد حضور سامية .. لم يسمع أحد لها صوتا .
 أيمن أن تكون سامية قد نفذت تهديدها .. وطلبت منها أن تكف عن الحضور ..
 مجنونة !!؟ .. هل يمكن أن تفعل هذا ؟ ..
 وفتح باب الغرفة .. وأطلت نعمت بوجهها .. ودارت بعينها في الغرفة
 تبحث عنه .. حتى وجدته في الشرفة فهتفت باسمه :
 — ما هذا .. شاي في الشرفة مرة واحدة !!؟ ..
 وأحس محمود أنه لم يحدث شيء مما يخشاه .. ورد عليها قائلا :
 — اتفضلتي ..
 وتلفتت حولها متسائلة :
 — أين المدام .. وأين داليا .. أمعقول أن تتركك وحيدا ؟

— ٢٩٣ —

وأحست نعمت بجهة نسمة باردة لم تفلح أشعة الشمس الغاربة في تخفيف
لسعتها فقالت في قلق :

— الدنيا برد .. من الأفضل أن تعود إلى الفراش ؟ ..

— ولكنى لا أشعر بالبرد ..

— أرجوك .. لسنا على استعداد للمضاعفات .. قم ..

ونفض محمود إلى الغرفة فاستقر في الفراش ..

وجلست نعمت على مقعد بجواره .. ونظرت إلى ساعتها في قلق وتساءلت :

— لم تحضر مدام سامية بعد الظهر ؟

ورد محمود في ترم :

— أحسن ..

وسألت نعمت في تشكك :

— أحدث بينكما شيء ؟؟ ..

— لقد طلبت الانفصال ..

— لماذا ؟؟ ..

— مجنونة .. لقد باتت لا تحتمل .

— ماذا فعلت ؟ ..

— قالت إنها لن تدعك تأتين إلى هنا .

وأطرقت نعمت برأسها وحاولت أن تتمالك وتمتت قائلة :

— أنا آسفة ..

— أنت لم تخطئى .. لقد كان عليها أن تشكرك .. بدل هذه الغيرة الحمقاء ..

— بل كان يجب على أن أنسحب منذ مدة .. بمجرد أن زال عنك الخطر ..

ورد محمود في إصرار :

— لن تنسجى أبدا .. لا يمكن أن أحرم منك .. حتى في مرضى ..

وتنهدت نعمت ثم قالت في هدوء :

— لقد بت الآن أفضل .. ويجب علينا أن نتصرف بعقل .
 — أكثر من هذا ؟ ..
 — أجل .. يجب أن نتصرف .. بالطريقة الواجبة .. لقد نسينا أنفسنا ..
 — إننا لم تفعل ما يستحق ثورتها ؟
 — إن من حقها أن تغار عليك ! ..
 — لقد ضقت بها وبغيرتها .. لقد ضقت بكل شيء . ولقد قررت أن أنهى كل شيء ..

وردت نعمت في شبه توسل :
 — أرجوك .. لا أريد أن أكون سببا في هذا .. !!
 — لست السبب .. لقد ضقت بها وبعصبيتها وانفجاراتها الدائمة ..
 — ولكنى أنا السبب هذه المرة ..
 وصمت محمود ثم تتم قائلا :
 — ليتك تكونين السبب فعلا .. لماذا لا نكون أشجع من هذا .. ونواجه مصيرنا بشيء من الحزم ؟ .. نحسم أمرنا معا .. لماذا لا نختار طريقنا بعد أن أخطأنا الطريق .. لقد كنت أفضل ما في حياتي .. هل تتصورين أنى سعدت بالجرح .. لأنه مهد الطريق إليك ؟ ..
 وضغطت نعمت على شفيتها تحاول أن تكتم انفعالها ..
 كانت تحس بالرغبة في البكاء .. ولكنها جاهدت لكى تطويه في باطنها وردت في صوت هادئ :

— نحن لا نملك التصرف بهذا الانفعال ..
 — إنه سيبلنا الوحيد .. ويجب أن نسلكه ..
 وأحست نعمت بالأمر تختلط عليها .
 — أيمكن أن يكون الأمر كذلك ؟ ..
 — أيمكن أن يكون هو على حق ؟ ..

— ٢٩٥ —

لقد أخطأت طريقها مع عبد القادر .. وقررت الانفصال ..
وأخطأ هو طريقه إلى زوجته .. وقررا الانفصال ..
ولقد باتت خير ما في حياته .. وبات خير ما في حياتها .. وبات طريقهما
واحدا .. فلماذا تجتمع عن سلوكه ؟ ..
ونفضت فجأة تهم بالانصراف ..
لقد كرهت ضعفها ..
وسألها في دهشة :
— إلى أين ؟؟ ..
— عندى نوبة مرور .. ولا بد أن أنتهى منها ..
— وستعودين ثانية ؟ ..
— سيكون الوقت متأخرا .. وسأعود إلى البيت ..
— لماذا ؟؟ ..
— عادت أمى من الإسكندرية .. والمفروض أن أيت معها .
وأطلق محمود زفرة يائسة ثم قال :
— أمرك ..
ومدت يدها تشد على يده قائلة :
— تصبح على خير .
ورفع يدها إلى شفثيه وهمس :
— سأراك في الصباح ..
— إن شاء الله ..
وفي الصباح أقبلت على الغرفة ..
وجدت داليا وحدها في الخارج ترتب الزهور في الإناء الزجاجى ..
لقيتها في ترحاب وعانقتها داليا في لهفة ..
سألتها نعمت :

— كيف حال بابا ؟؟ ..

— بخير .. لقد سألت عنك ..

— وأين ماما ؟ ..

— لم تأت ..

— خير ؟؟ ..

وصمتت داليا وحاولت أن تكتم انفعالها ثم قالت في لهجة يشوبها التردد :

— كنت أريد أن أحدثك على حدة ..

وأوجست نعمت خيفة مما يمكن أن تقول الفتاة .. ولكنها ردت :

— تعالى !! ..

وجرتها من يدها إلى إحدى الغرف الخالية .. وجلست على الأريكة بجوارها

وأمسكت يدها في حنان وسألتها :

— ماذا حدث ؟؟ .

وتنهدت داليا وقالت بصوت مختنق بالبكاء :

— ماما وبابا يريدان الانفصال !! .

— لماذا ؟؟ ..

— من أجلك ..

— من أجلى أنا ؟؟ ..

— أجل .. تصورى .. إن ماما عصبية .. وبابا يعاملها بجفاء ، لقد أساءت

ماما فهم طبيعتك وحنانك ، أساءت فهم طبيعتك الخيرة .. ولقد حاولت أن

أقنعها .. إلى أحبك وأجد فيك المثل الأعلى .. ولكنني عجزت عن أن أنقل إليها

مشاعري نحوك .. وعجزت عن أفهمها حقيقتك .. ولست أدري ماذا أفعل ..

لماذا يحدث كل هذا .. لماذا تتعقد الأمور بهذا الشكل ؟ ..

وتنهدت نعمت وربتت على كتف داليا قائلة في حنان :

— لا تحملي هما .. هذه أمور تحدث دائما بين الأزواج .. إنها زوبعة في

— ٢٩٧ —

فنجان .. والمفروض أن تغار الزوجة .. وأن يضيق الزوج بغيرتها .. أو يغار هو وتضيق هي به .. إنها على حق .. وهو على حق .. إن الظروف هي التي خلقت هذا الموقف المعقد .. ولكن كل شيء سينتهي على خير .. سيبقى أبوك وهو أهم ما في الأمر .. وسيعود إلى البيت .. ويواصل حياته الطبيعية مع أمك .. أنا لا أشكل سوى شيء عارض في حياتهما .. أوجدتني الظروف في حياته .. وسأذهب بانتهاء الظروف ..

وأجابت داليا .. وهي تطبق على كفها :

— إنك مخلوقة نادرة ..

وأطلقت نعمت زفرة أخرجت بها بعض ما يزخر في صدرها من مشاعر الأسى ..

وردت في صوت خافت :

— أبوك مخلوق نادر .. وهو يحتاج إلى الحنان والرعاية .

وهزت داليا رأسها في حيرة وردت :

— لست أدري .. لماذا يوجد هذا التوتر بينهما دائما ؟ ..

— أنت تستطيعين أن توفقي بينهما .. لقد كبرت .. وبت أقدر على فهمهما ..

ونهضت نعمت قائلة وهي تتجه إلى الممر :

— لنذهب إليه حتى لا يقلق ! ..

— أجل .. لا أعرف كيف أشكرك .. لقد أرحمتني .. كنت دائما أشعر أنك مخلوقة مثالية ..

وضحكت نعمت وأجابت :

— لا تملئيني غرورا فأنا بشر ..

ودخلت نعمت وداليا على محمود ..

وبدا وجهه مشرقا وهو يرى البسمتين على شفاههما ..

(العمر لحظة)

وتبادل الثلاثة حديثا معتادا .. لم يطرق أحدهم فيه أحداث الأمس ..
وبعد برهة استأذنت نعمت وغادرت الغرفة ..
وقبل الظهر .. ذهبت نعمت إلى مدير المستشفى .. وأنباته برغبتها في ترك
الخدمة والعودة إلى الصحافة ..
وفي نفس اليوم . اتصلت بزوجها .. وأنباته بأنها ستعود إلى المجلة .. وطلبت
منه أن يعود إلى البيت ..
وفي حديث تليفوني قصير أنبات سامية .. أنها آسفة على كل ما حدث .. وأنها
تركت خدمة المستشفى ورجتها أن تعود إلى زوجها ..
تصرفت نعمت في حزم وبغير شعور ..
تاجر يشهر إفلاسه .. ويصفى بضاعته .. ويترك السوق ..
وافتقدوها محمود .. سأل عنها .. فأنبىء بأنها تركت المستشفى .. ذهل ..
طلبها في التليفون .. ردت عليه .
سألها :

- لماذا فعلت هذا ؟؟ ..
- كانت العملية تحتاج إلى بتر .. فقامت به ..
- أنت قاسية .. ألا تشعرين كم قسوت على ؟ ..
- قسوت على نفسي أكثر ..
- ألن أراك ؟ ..
- ليس الآن ..
- أتحرميني من لقاء وداع ؟ ..
- أحرمت نفسي ..
- لقاء واحد !! ..
- لا تعذبنى ..
- أهنت عليك إلى هذا الحد ؟! ..

— ٢٩٩ —

— أنت خير ما في حياتي .. وستبقى هكذا ..
وبصوت يخنقه البكاء قالت :
— مع السلامة ..
ثم وضعت السماعة ..

الخاتمة

حاولت نعمت بعد عملية البتر التي قامت بها .. أن تبتلع مواجهتها .. وأن تواصل حياتها في هدوء وكأن شيئاً لم يكن ..

عاودت حياتها الأولى في المجلة وفي البيت .. لم يتغير شيء في الظاهر .. كل شيء وجدته كما هو .. عادت تمارس عملها وحياتها كما تعودت أن تفعل من قبل .. وعندما كانت تسأل لماذا تركت الجيش .. لم تتعد إجابتها .. أن عملها في الجيش كان مجرد تجربة .. إنها استفادت منها كثيراً .. ولكنها كانت تشعر دائماً أن عملها الصحفي هو الأصل وأنها لا بد عائدة إليه ..

وفضلت العمل في قسم التحقيقات .. رغم محاولة الأستاذ زكى نائب رئيس التحرير أن يعيدها إلى رئاسة قسم المرأة التي كانت قد احتلتها إحدى الزميلات .. لم تحس بحماس .. لما كانت تقوم به من قبل .. صور وآخر تسريحات الشعر .. وعلاج السمكة .. وكيف تحتفظين بزوجك .. وكيف تحافظين على نعومة بشرتك ..

كانت تشدها أنباء المعارك الدائرة على القنال ..

شيء ما .. يرسب في أعماقها .. يربطها بهؤلاء الرابضين على خط النار .. ويواجهون الموت بغير إحساس به ويمارسون الشجاعة كجزء من حياتهم الطبيعية .. كشراب الشاي .. والاستماع إلى الراديو ..

« ما شعرت مرة وأنا أنفذ أمراً بالهجوم .. أنى أحتاج إلى شجاعة » .

يسمون القتال « شغل » ..

« عندنا شغل .. فاهم يعنى إيه شغل » ..

ويقبلون عليه .. ببساطة .. وكأنهم في طابور تدريب .. وتوالت أنباء

سلاح الطيران المصرى يقوم بخمس هجمات على العدو خلال ٢٤ ساعة ..
القاذفات المصرية اقتربت من أهدافها على ارتفاع منخفض دقت مواقعه على عمق
١٦٠ كيلومترا وأصاب مقر الحاكم العسكرى فى العريش ..
وحدات الكوماندوز توغلت فى خطوط العدو إلى عمق ١٩٥ كيلومترا
شرق القناة وضربت مركز القيادة بين الشيخ زويد ورفع بالصواريخ وأوقعت به
خسائر فادحة ..

اشتدت الضربات على العدو ..
وبدأ العدو بدوره محاولاته فى نقل المعركة إلى الداخل .. باستخدام الطيران
على أوسع نطاق بغرض تشتيت جهدنا القتالى على القناة وتوزيع قواتنا من أجل
الدفاع فى الداخل .. وتحويل حرب الاستنزاف ضده إلى حرب استنزاف
ضدنا ..

توالت الغارات على التل الكبير والخانكة ودهشور ..
تصاعد ضرب المناطق الاستراتيجية .. وضرب التجمعات العسكرية فى
القاعدة وضرب المدنيين بهدف التأثير على الروح المعنوية للجماهير .. أو كما
اعترف ديان « بهدف ضرب مقاومة الشعب وإحداث الأثر النفسى الذى
يزعزع الثقة » بحيث تحطم إرادة الشعب التى عجزت الهزيمة العسكرية عن
تخطيطها ..

فى ١٥ فبراير ضرب العمال فى مصنع أبو زعبل ..
وفى ١٧ ابريل ضرب التلاميذ فى مدرسة بحر البقر ..
وذهبت نعمت تصحبها آلة التصوير إلى الموقعين المضروبين .
أبصرت القذائف قد بقرت بطن الأرض وأخرجت أحشاءها .. الجدر منهار
والأسقف منقضة بأسياخ الحديد تبرز بين كتل الأسمنت كأنها الهياكل العظمية .
طاقت بالعمال فى المستشفى .. الدمار فظيع .. ولكن الجزع قليل .. ضرب
العدو المصنع .. حطم الجدران .. ولكن لم يستطع أن يحطم عزيمة البشر ..
تصرف العمال فى الموقع المضروب بشجاعة رائعة .. ووعى عجيب ..

وسجل ضرب المصنع .. أن المصرى قادر على المواجهة فى الداخل .. قدرته على المواجهة فى جبهة القتال ..
أبصرت نعمت المواجهة فى كلتا الجبهتين .. وأخذت تسجل فظاعة الدمار ..
وروعة المقاومة ..

ذهبت إلى بحر البقر ..
أجساد الأطفال مختلطة ببقايا الألواح والسيورة .. أحضرت معها جزءا من
السيورة كتب عليها عنوان الدرس .. وبسم الله الرحمن الرحيم .. ومعها فردة
حذاء صغيرة وقطعة ملابس ممزقة لوثتها الدماء ..
ملأت نفسها المرارة .. والأسى ..
تحول بناء المدرسة .. إلى مقبرة للأطفال الأبرياء ..

صبت الفانتوم جحيمها .. على العيدان الخضر .. جلسوا أمام السيورة ..
يتعلمون « زرع » و « حصد » .. وزرع العدو فيهم قنابله المدمرة .. وحصد
أرواحهم الطاهرة ..

وتذكرت نعمت القوات تعبر القناة .. وتضرب .. وأصواتها تعلو « الله أكبر »
وعلى الجانب الآخر فى القناة .. أصوات تردد النداء برجع الصدى « الله أكبر » ..

ومحمود يقول « اقتل .. فلم تعد هناك وسيلة للتعامل مع أهل الغدر سوى
القتل » ..

وتمنت وهى تبصر بقايا العيدان الخضر مختلطة بالأنقاض لو عادت إلى الجبهة
مرة أخرى .. لو شاركت فى القتال .. لو تعاملت كما قال محمود مع العدو بالقتل
.. وليس بأسلوب القلم والورق ..
أحست أنها عاجزة .. بالقلم ..

وتمنت لو استطاعت أن تمسك بدلا منه بندقية .. أو مدفعا ..
وسلمت الموضوع والصور .. وبقايا جثث الأبرياء .. فردة الحذاء .. وقطعة

— ٣٠٣ —

السبورة .. وأوراق الكراريس الملوثة بالدماء ..
وقال لها عبد القادر وهو يقرأ الموضوع ويقاوم دمتين تحاولان أن تجدا
طريقهما إلى عينيه :
— عمل رائع .

وهزت رأسها وانطلقت منها ضحكة قصيرة ملؤها المرارة والسخرية :
— وددت لو استطعت أن أفعل شيئا غير الكتابة ..

— مثل ماذا ؟ ..

— أمسك المدفع وأضرب .. أثأر .. أنتقم ..

— هل تظنين أن عمالك هذا . لا يرقى إلى مستوى الضرب بالمدفع ؟ ..

— كيف ؟؟

— ليس المطلوب من كل منا أن يمسك بمدفع ويضرب .. لو فعلنا هذا .. لما
وجد الذين يحاربون على خط النار .. لقماتهم .. بعض منا يجب أن يصنع رغيف
العيش . والبعض لابد أن يصلح صنابير المياه .. وكل منهم يرقى في أهميته إلى
مستوى حامل المدفع .. المهم أن يعمل عمله جيدا .. وأنت قد أدت عمالك
بأمانة وإخلاص .. إن الموضوع الذى كتبته يمكن أن يكون له أثر أمضى من طلقة
مدفع فى صدر العدو .. إن موضوعك سترجم ويرسل مع الصور إلى وكالات
الأنباء الخارجية ..

ومرت الأيام ونعمت تحاول أن تقنع نفسها بما قال عبد القادر .. ولكنها لا
تستطيع أن تدفع عن نفسها الحنين إلى الجبهة .. وجلست ذات يوم تنصت مع
زملائها إلى خطبة عبد الناصر فى عيد العمال .. وعلا صوت عبد الناصر يهتف
فى إصرار :

« إن أماننا طريقا طويلا وصعبا حتى نخلع من هذه الأرض العربية عدوان
يرحل منها إلا إذا خلعناه » ..

واندفع أحد المحررين من ن خارج الغرفة يصبح غاضبا :

— ٣٠٤ —

- هذه مؤامرة ؟؟ ..
- وتساءل البعض في دهشة :
- ماذا حدث ؟؟ ..
- اسم عبد العزيز رزق كتبه الخطاط واسمى مجموع بنط ١٢ ..
- ورد سكرتير التحرير في برود :
- لم يكن الخطاط موجودا ..
- المقال عندكم من بدرى .. لماذا لم تطلب من الخطاط أن يجهز له
- العنوان ؟؟ ..
- لم يكن مفروضا أن ينزل هذا العدد ..
- ولكنه كان موجودا في الماكيت ..
- فعلا كان موجودا ..
- إذن لماذا لم يجهز ؟؟ ..
- لأنه تأجل للعدد القادم ..
- لماذا ؟؟ ..
- لكي يفسح مجالا للتحقيق العسكرى ..
- وماذا حدث ؟؟ ..
- تأخر التصديق على التحقيق العسكرى فطلب نائب رئيس التحرير إنزال
- موضوعك في آخر لحظة ..
- وصاح المحرر :
- هذه فوضى .. أنا عارف أن هناك مؤامرة ضدنى ..
- وصرخ فيه أحد المحررين :
- مؤامرة إيه وزفت إيه .. دعنا نسمع الخطبة .. أو اخرج بره ..
- واندفع المحرر يبرطم خارج الغرفة ..
- وعاد صوت عبد الناصر يهتف :

— حتى الآن لم يعبىء العرب كل قواهم أو نصف قواهم .. لا بد أن تقوم جبهة شرقية من كل الدول العربية في الشرق وجبهة عربية من كل الدول العربية في الغرب ..

وعلق أحد المحررين قائلا :

— إذا كان الأمريكان قد عملوا جبهة واحدة مع الروس ضد النازي .. ألا يقوم العرب بعمل جبهة واحدة ضد إسرائيل ؟
ودخل حامد الفراش ينيء نعمت بأن الأستاذ زكي نائب رئيس التحرير يطلبها .. وتركت المكتب وذهبت إلى الأستاذ زكي ..
سألها وهو يقلب أوراقا في يده :

— غدا ستوزع النياشين على الأبطال والشهداء .. أتخين أن تغطي الموضوع ؟؟ ..

وبغير تفكير ردت نعمت :

— أجل ..

— سأمر بأعداد المصور ليخرج معك في الصباح ..

وفي الصباح خرجت نعمت بعربة الجريدة مع المصور ..

وصلت إلى مكان الاحتفال ..

جلست مع الصحفيين .. في جانب المنصة .. تلقت تحية الزملاء وردتها .. ثم

دارت بعينها في أرجاء المكان ..

وأصابتها رعدة .. وأحسّت بأنفاسها تتلاحق ..

وجدته يجلس في مقدمة الصفوف .. ينظر إليها في صمت نظرة جامدة ..

لا تعبر عن شيء .. وكأنه لا يراها أو كأنها لا تعني لديه شيئا مميزا ..

واضطربت .. ازدردت ريقها .. وحولت عينها عنه بسرعة .. وتشاغلته

بالحديث مع المصور .. قالت كلاما فارغا .. كان ذهنها يضطرب في رأسها ..

وقلها يضطرب بين ضلوعها .

— ٣٠٦ —

فكرت في أن تعدو ..
 لم تحاول خلال تلك الفترة أن تتصل به ..
 ولم يحاول هو أن يتصل بها ..
 ولم تعرف لماذا ؟ ..
 لقد كرهت أن ينتهى كل ما بينهما بمثل هذه القطيعة ..
 كرهت أن يتحولا إلى خصمين .. أو يتحولا إلى لا شىء ويصبح كل منهما في
 نفس صاحبه .. وكأنه ما كان ..
 ولم تعرف لماذا لم يحاول الاتصال بها ؟ ..
 أهى الكبرياء الجريحة ؟ ..
 أيمكن أن تكون مشاعره قد انتهت فجأة ؟ ..
 أيمكن أن يكون الحب قد انقلب إلى كراهية ؟ ..
 وملأها إحساس بالحزن ..
 كانت نظراته قاسية .. قاتلة ..
 لم يتجههم ولم يتنسم .. نظرا إليها كأنها شىء لا يعنيه ..
 وبرغمها خطفت نظرة أخرى ..
 ثبتت عينها على عينيه لحظة .. أشارت برأسها .. مع محاولة ابتسامة ..
 رد برأسه .. وظلت نظراته التى لا تنم عن شىء .. مثبتة ..
 عادت مرة أخرى تحدث المصور ..
 لم تعرف ماذا تقول له ..
 أنقذتها بداية الحفل ..
 القرآن الكريم .. ثم المناداة على أصحاب الأوسمة من الأبطال وأقارب
 الشهداء ..
 واستلم وسامه ..
 شد على يد القائد وحييا التحية العسكرية وعاد إلى مكانه ..

— ٣٠٧ —

وتلته أسماء أخرى ..
 وبعد برهة سمعت اسم صلاح ..
 وأبصرته يتقدم ليتسلم وسامه وتوالت الأسماء ..
 الكعب يضرب الكعب الآخر ..
 واليد ترفع بشدة إلى الرأس بالتحية .
 ثم يستدير إلى الخلف ويعود إلى مكانه ..
 ونوديت أسماء الشهداء ..
 خرجت الأمهات والآباء والأرامل .. يتشحن بالسواد يتسلمن الأوسمة ..
 وسمعت اسم عبد العزيز ..
 وتلفتت حولها ..
 من الذى سيتسلم وسامه ١١٩٩
 وأبصرت سعدية .. تضم إلى صدرها رضيعا ..
 تقدمت مع عم إبراهيم البقال ..
 قال العجوز يقدمها :
 — أرملة الشهيد .
 وتقدمت بجسدها المنتصب وعينها الواسعتين تمسك الرضيع بيد وتسلم
 الوسام باليد الأخرى ..
 وعادت إلى مكانها مع عم إبراهيم ..
 اتجهت نعمت إليها .. مدت إليها يدها مصافحة .. جلست بجوارها وهى
 تهمس :
 — مبروك يا سعدية ..
 وعرفتها سعدية .. شدت على يدها فى ترحاب :
 — الله يبارك فيكى ..
 قالت نعمت :

— ٣٠٨ —

- لِمَ لَمْ تتصلى بى ؟ ..
— لم يكن هناك حاجة (وأشارت إلى الرضيع على صدرها) لقد أبقيته
ترين .. أليس هذا أفضل ؟؟
وتمت نعمت :
— بالطبع ..
— قلت لى إنه قد عزم على أن يأتى ليتزوجنى .. وليطلب منى أن أبقى
الطفل ..
— أجل هذا هو ما حدث ..
— لبيت رغبته .. واحتفظت به .. وعرف عم إبراهيم بكل ما حدث واعترف
الحى كله بأنه زوجى .. وبأن الوالد ابنه .
وضمت سعدية الرضيع إلى صدرها وتمتت :
— سيكون رجلا كأييه ..
ونودى على آخر اسم ..
وأقبل صلاح يحبى نعمت فى شوق ..
قال لها ضاحكا ..
— نسيطينا !!؟؟ ..
— أبدا .. . لقد أمضيت معكم .. أفضل أيام عمرى ..
— أمى قالت لى إنك ذهبت إليها ..
— وأسفت لما حدث ..
وتهد صلاح ثم قال محاولا أن يأخذ الأمر بخفة :
— يعنى !! ..
— المفروض أن تعود إليهم ..
وأطلق زفرة قصيرة ساخرة ورد قائلا :
— ليس مهما ..

— كيف؟؟ ..

— تزوجت أمى عبد الرحيم أفندى كاتب المحامى .. لم يعد أحد فى حاجة

إلى ..

وأحسنت نعمت أنها قد نكأت جراحه .. ولم تعرف ماذا تقول ..

سألته .. تحاول أن تبعده عن الجرح الذى نكأته ..

— وخطيتك؟؟ ..

ورد صلاح :

— تزوجت ..

وأحسنت نعمت بأنها من حيث لا تقصد نكأت جرحا آخر .

واستطرد صلاح وهو يضحك فى استخفاف ساخر ..

— لطفها زميل .. عنده شقة .. أهم مؤهلات الزوج فى أيامنا هذه ..

ولم تعرف نعمت بماذا تجيب .. هل تشاركه الضحك .. وهى تشعر أنه يحمل

فى طياته المرارة والأسى ..

ولم يترك لها فرصة الرد .. استرسل يقول :

— وفرت علىّ تعب القلب والرجاء .. الحياة هنا باتت مزعجة .. الجبهة أريح

مكان .. لقد أخذنا عليه .. نضرب مرة .. ونضرب أخرى وملء أنفسنا الإيمان

بأننا يوما ما .. سنثب على الضفة الأخرى .. لنحرر الأرض .. ونستعيد كبرياءنا

ونسترد كرامتنا .. ونؤكد للعالم أننا شعب لا يذل .. إننا نعيش بهذا الأمل .. وهذا

اليقين .. إني ما زلت أعمل مع المقدم محمود .. بات عصيبا .. لا يطيق كلمة ،

ولكنه أفضل من غيره .. عن إذئك ..

ومد يده محببا .. وقبل أن تستدير هتف قائلا :

— سنتظر زيارتك ..

ثم استدرك قائلا بعد أن ابتعد :

— فى الجبهة ..

— ٣١٠ —

ودارت نعمت بعينها تبحث عن محمود وبفسها خوف من أن يكون قد انصرف.
ولكنها وجدته مقبلا عليها ..
مد محمود يده محييا وما زالت النظرة الجامدة تطل من عينيه :
— كيف الحال ؟؟ .

وتركت يدها في يده .. وردت :
— كيف حالك أنت ؟

وعلت شفثيه ابتسامة مرة :
— الحمد لله ..

وصمت لحظة ثم أردف :

— الذى لا يحمد على مكروه سواه ..

— مبروك الوسام ..

— الله يبارك فيكى ..

وهمست نعمت :

— تبدو كأنك تكرهنى !.

— ليتنى أستطيع ..

— تمنيت ألا أولئك ..

— لم يكن ألما .. كان قتلا ..

— لا تقل هذا .. أرجوك .. إنك تقتلنى ..

ونظر محمود فى عينها برهة ثم همس :

— هل تذكرين ما قلته لك أن العمر لحظة ..

وهزت رأسها وهى تحاول ابتلاع الدموع التى توشك أن تطفر من عينها
واستطرد محمود يقول هامسا :

— يضيع فى لحظة .. أو يتبلور فى لحظة .. هذه اللحظة تأبى أن تجيء .. إلى

أعيش .. أكل وأشرب .. وأنام .. وأصحو .. وأخوض القتال .. أقتل ..

— ٣١١ —

وأصاب .. ثم يجعلون منى بطلا .. ولكنى أحس بعمرى يتسرب بين يدى ..
يذهب سدى .. وكأنه الماء بين الأصابع ..

وهمست نعمت :

— عمرك لن يذهب سدى .. أنت أعز الناس على هذا البلد .. أنت ذخيرة
مصر الجريحة .. أنت السند .. وأنت الخلاص ..

ولم يبد الرضاء على وجه محمود .. وتتم قائلا :

— المهم أنت .. ماذا أكون بالنسبة لك أنت ؟ .. أما زلت خير الناس في
نفسك ؟

— وأكثر ..

— كم حاولت أن أنساك .. وأن أكرهك .

وتساءلت نعمت في جزع :

— لماذا ؟

وقبل أن يرد محمود استطردت هامسة بصوت ملؤه الحنين .

— إنك لم تغب عن ذهني لحظة .. إنك باق في قلبي .. كأخلد ما يكون البقاء

.. قريب إلى نفسى .. كأعز ما تكون القرينى ..

وضغط محمود على يدها وعلت شفثيه الابتسامة المشرقة وهمس :

— كم كنت في حاجة إلى هذا اللقاء .

— سنلتقى دائما .. دائما ..

— إلى الآن أفضل ..

واختفى كل منهما في الزحام ..

صوته يتردد في مسامعها .. « إلى الآن أفضل » ..

وصوتها يتردد في مسامعه .. « سنلتقى دائما .. دائما » ..

يوسف السباعي

مايو ١٩٧٣

تمت

رقم الإيداع : ٨٨ / ٣٩٥٠

الترقيم الدولي : ١ - ٤٠٧ - ١١ - ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - البحالة

Bibliotheca Alexandrina



0294968

الثلث ٧٥٠ قرشا

دار مصر للطباعة
بمصر - شارع التحرير